جان بول سارتر

الغثيان

رواية



ترجمة د. سهيل إدريس

ورقة بلا تاريخ

سيكون الأفضل كتابة الأحداث يوماً فيوماً. تسجيل يوميات تتيح مواجهة الأمور بوضوح. وينبغي تجنّب إهمال الفروق والدقائق والامور الصغيرة، حتى ولو كانت تبدو لا قيمة لها، وينبغي خصوصاً تصنيفها. يجب أن أقول كيف أرى هذه الطاولة، والشارع، والناس، ورزمة تبغي، ما دام «هذا» هو الذي تغيّر. يجب تحديد مدى هذا التغيّر وطبيعته تحديداً دقيقاً.

فهذه مثلاً علبة كرتون تحتوي على زجاجة حبري. ينبغي ان أحاول القول كيف كنت أراها «من قبل»، وكيف الآن [١] حسناً! انها شكل متوازي المستطيلات، وهي تنفصل عن ـ هذا سخف، فليس ثمة ما يُقال عنها. هذا ما ينبغي تجنبّه، يجب ألاّ نضع الغرابة حيث لا يوجد شيء. وأعتقد أنّ هذا موضع الخطر لمن يسجّل اليوميات: إنه يبالغ في كل شيء، وهو في حالة ترصّد، وهو يحرّف الحقيقة بلا انقطاع. ومن جهة أخرى أكيدٌ أني استطيع، بين لحظة واخرى ـ وبصدد هذه العلبة بالذات او بصدد أي شيء آخر ـ ان استشعر مجدّداً ذلك الانطباع الذي أحسسته امس الاول. يجب ان اكون دائماً على أهبة، والاّ فان هذا الانطباع سيُفلت من بين اصابعي مرة أخرى. يجب ألاّ [٢] شيئاً، وانما يجب ان اسجّل بعناية وبأكبر تفصيل ممكن كل ما يحدث.

(١) كلمة متروكة بيضاء.

(٢) كلمة مشطوبة (قد تكون «أفتسر») وهناك كلمة مكتوبة على الهامش، ولكنها غير مقروءة.

طبعاً، ليس بوسعي بعدُ ان اكتب كتابة واضحة عن قصص السبت وأمس الاول ، فلقد بَعُدَ عهدي بها كثيراً ؛ على ان بوسعي ان اقول إنه لم يقع في الحالة الاولى ولا في الحالة الثانية ما ألف الناس أن يدعوه بالحَدَث. كان الصبية يوم السبت يلعبون بقذف الحجارة على سطح الماء، وكنت اريد ان اقذف مثلهم حصاةً في البحر. وفي تلك اللحظة، توقفت وألقيت بالحصاة ثم انصرفت. ولا بدّ ان مظهري كان مظهر شرود، على الأرجح، ما دام الصبية قد ضحكوا حين خلّفتهم.

هذا ما يخصّ الخارج . اما ما حدث في داخلي ، فانه لم يترك آثاراً واضحة. كان ثمة شيء قد رأيته فأثار اشمئزازي ، ولكني لا ادري بعدُ هل كنت انظر الى البحر ام الى الحصاة . كانت الحصاة مسطّحة ، جافة في احد جانبيها، رطبة موحلة في الجانب الآخر . وكنت امسك بها من اطرافها ، واصابعي متباعدة جداً ، لأتجنّب تلويث يدي .

غير ان الامر كان ، امس الاول ، اشدّ تعقيداً . ثم انه قد حدثت تلك السلسلة من المصادفات والالتباسات التي لم افهمها . ولكني لن أتسلّى بسرد هذا كلّه على الورق . ومهما يكن ، فقد كان اكيداً اني قد اصابني الخوف ، او شعورٌ من هذا القبيل . ولو كنت ادري ما الذي خفت منه ، لكنت قد خطوتُ خطوة كبيرة .

والعجيب في الامر ، انني على غير استعداد اطلاقاً لأحسبني مجنوناً ، بل انا ارى بوضوح اني لست كذلك : فجميع هذه التغيرات تتعلّق بالاشياء . او هذا على الاقل ما اودّ ان اكون على يقين منه .

الساعة العاشرة والنصف (١)

ربما كان الامر ، في آخر المطاف ، نوبة جنون ، وليس باقياً منها أي اثر .

---

(١) مساء بالطبع . والمقطع التالي كتب بعد المقاطع السابقة بوقت طويل . ونحن نميل الى الاعتقاد بأنه كتب ، على اقل تقدير ، في اليوم التالي .

وإن الأحاسيس العجيبة التي راودتني في الاسبوع الماضي ، تبدو لي اليوم مضحكة جداً ، وانا لا أحس بها بعد . إنني في هذا المساء في رضى تام ، وفي وضع بورجوازي طيّب في العالم . هاهنا غرفتي المتجهة نحو الشمال الشرقي . وتحتي شارع « الموتيليه » وورشة المحطة الجديدة . وأنا أرى من نافذتي ، عند زاوية جادّة « فيكتور – نوار » الشعلة الحمراء والبيضاء لمقهى « رانديفو دي شامينو » [١] لقد وصل قطار باريس ، وهاهم الناس يخرجون من المحطة القديمة وينتشرون في الشوارع ، إني أسمع خطى وأصواتاً . وكثير من الناس ينتظرون الترام الأخير . ولا بد أنهم يشكّلون جماعة صغيرة حزينة حول مصباح الغاز ، تحت نافذتي تماماً . ان عليهم ان ينتظروا بضع دقائق أخرى : إن الترام لم يمرّ قبل الساعة العاشرة والخامسة والأربعين . المهم ألاّ يأتي الليلة مسافرون من التجار : فأنا شديد الرغبة في النوم ، وعليّ أن أعوّض كثيراً من النوم الذي فاتني . فليلة هادئة ، ليلة واحدة، كفيلة بكنس هذه القصص جميعاً .

الساعة الحادية عشرة إلا الربع : ليس ثمة بعد ما يُخشى منه ، فانهم سيكونون قد وصلوا . إلا اذا كان الدور اليوم دور السيد الذي يأتي من « روان » . إنه يأتي كل اسبوع ، وتحفظ له الغرفة رقم ٢ ، في الطابق الاول ، تلك التي لها مرحضة . فمن الممكن بعد ان يأتي : فهو غالباً ما يأخذ قدح بيرة في « رانديفو دي شامينو » قبل ان ينام . والحق أنه لا يُحدث كثيراً من الضجة . إنه قصير جداً ، ونظيف جداً ، وهو ذو شارب اسود ملمّع وشعر مستعار . هاهو ذا .

وحين سمعته يرقى الدرج ، أحسست بخفق يسير في صدري ، لشدة ما كان ذلك مطمئناً : فأي شيء يُخشى من عالم منتظم الى هذا الحدّ ؟ أحسب اني قد شُفيت .

---

(١) وترجمتها « ملتقى عمال السكك الحديدية » – المترجم .

وها هـو ذا الترام رقم ٧ « اباتوار – غران باسان » . إنـه يصل في ضجة كبيرة من صوت الحديد. ثم يُقلع. وهو الآن يدلف، محملاً بالحقائب والأولاد النائمين ، نحو « ليغران باسان » نحو المصانع، في « الشرق » الأسود . إنه الترام الذي يسبق آخر ترام ؛ أما الأخير ، فسيمر بعد ساعة .

سأنام . لقد شُفيت ، وإني قد عدلت عن كتابة انطباعاتي يوماً فيوماً ، على غرار ما تفعل الفتيات الصغيرات ، في دفتر جميل جديد .

على أنه ربما كان ممتعاً ، في حالة واحدة ، ان اكتب يومياتي : في حالة ما إذا [١] .

(١) هنا يتوقف نص الورقة التي هي بلا تاريخ .

دفتر اليوميات

الاثنين ٢٠ كانون الثاني ١٩٣٢

لقد حدث لي شيء ما ، وليس بوسعي بعد أن اشكّ في ذلك . تمّ على شكل مرَض ، لا كيقين عادي ، ولا كحقيقة بديهية . ولقد انسلّ خفية ، رويداً رويداً ؛ وكل ما في الأمر أني أحسستني غريباً بعض الشيء ، متزعجاً بعض الشيء . وإذ بلغت الساحة ، كف عن التحرك وسكن ، فتمكّنت من الاقتناع بأنه لم يكن بي شيء ، وأن ذلك كان رعباً مزيفاً . ولكن هاهو ذا الآن يتفتّح .

إنني لا أعتقد أن مهنة المؤرخ تُهيء للتحليل النفسي . ولم يكن يعنينا ، في قضيتنا ، إلا عواطف كاملة تُطلق عليها أسماء أجناس كـ «الطمع» و «الفائدة» . ومع ذلك ، إذا كنت أملك ظلاً من المعرفة لنفسي ، فان هذا هو أوان الإفادة منه .

إن في يديَّ ، مثلاً ، شيئاً ما جديداً ، طريقة ما لتناول غليوني أو شوكتي . او هي الشوكة التي لها الآن طريقةٌ ما تتيح أمر تناولها ، لست ادرى . حين هممتُ الساعة بدخول غرفتي ، توقّفت فجـأة ، لأنني كنت أحسّ في يدي شيئاً بارداً كان يلفت انتباهي بلون من ألوان الشخصية . وفتحت يدي ونظرت . فاذا أنا ممسكٌ ، بكل بساطة ، بمزلاج الباب . وهذا الصباح ، في المكتبـة ، حين أقبـل «العصامي»[1] يلقي علي التحية ، قضيت عشر ثوان لتذكّره .

(١) هو « اوجيه ب ... » الذي سيرد غالباً في هذه اليوميات . لقد كان مستخدم مباشر ، وكان روكنتان قد تعرف به عام ١٩٣٠ في مكتبة بوفيل .

كنت أرى وجهاً مجهولاً ، وجهاً بالكاد . ثم انه كانت هناك يده ، كدودة ضخمة بيضاء ، في يدي . وسرعان ما تركتها ، فسقطت الذراع باسترخاء .

وفي الشارع أيضاً تتهادى كمية من الضجيج المبهم .

وإذن ، فقد حدث تغيّر ، في هذه الأسابيع الأخيرة . ولكن أين ؟ إنه تغيّر مجرّد لا يحطّ على شيء . أأكون أنا الذي تغيّرت؟ إن لم أكن أنا، فهي إذن هذه الغرفة ، هذه المدينة ، هذه الطبيعة ؛ لا بد من الاختيار .

* * *

أعتقد أنني انا الذي تغيرت : ذلك ايسر الحلول . وهو اكرهها ايضاً . ولكن يجب ان اعترف اخيراً أنني معرّض لهذه التغييرات المفاجئة . والواقع أني نادراً ما أفكر ، ولذلك يحدث ان تتجمع في " طائفة " من التحولات الصغيرة من غير ان أتنبه لها ، ثم يأتي يوم تحدث فيه ثورة حقيقية . وهذا ما اكسب حياتي هذا المظهر المتنافر ، اللامنسجم . فحين غادرت فرنسا ، مثلاً ، وُجِد كثيرون يقولون إني غادرتها بدافع من عناد . وحين عدت إليها ، فجأة ، بعد ستة اعوام من السفر ، استطاعوا بكل سهولة ايضاً ان يتحدثوا عن العناد . واني ما زلت أتمثلني مع « مرسييه » في مكتب ذلك الموظف الفرنسي الذي استقال في العام الفائت إثر قضية «بترو». وكان مرسييه متجهاً الى البنغال في بعثة أثرية. وكنت قد طالما وددت الذهاب الى البنغال ، وكان يحثني على الانضمام اليه . وأنا الآن أتساءل عن سبب ذلك . وأعتقد انه لم يكن واثقاً من « بورتال » وانه كان يعوّل عليّ لمراقبته . ولم اكن اجد اي سبب للرفض. وحتى لو كنت قد استشعرت آنذاك هذه المؤامرة الصغيرة بشأن « بورتال » ، فان ذلك كان سبباً إضافياً يحملني على القبول في حماسة . ولقد كنت مشلولاً ، ولم أكن استطيع ان اقول كلمة . وكنت أحدّق في تمثال هندي صغير ، على سجادة خضراء ، بالقرب من جهاز تلفوني . وكان يخيّل إليّ انني كنت ممتلئاً باللمفا او بالحليب الفاتر . وكان مرسييه يقول لي بصبر ملائكي كان يحجب بعض الحنق :

– أجل ، إني بحاجة لأن أتأكد رسمياً . أنا اعلم ان الأمر سينتهي بك الى القبول : فالأفضل ان تقبل على الفور .

وكانت له لحيةٌ ذات سواد محمّر ، معطرة تعطيراً كثيفا . وقد كنت أستنشق لدى كل حركة من رأسه نفحة عطر . ثم استيقظت فجأة من سبات ستة أعوام .

وبدا لي التمثال كريهاً بليداً ، وأحسست أني كنت سئمت سأماً عميقاً. لم أكن أستطيع ان أفهم لماذا كنت في الهند الصينية . ما الذي كنت أفعله هناك؟ لماذا كنت أتحدث مع هؤلاء الناس ؟ ولماذا كنت أرتدي هذه الثياب العجيبة حقاً ؟ كان "هوسبي قد مات . وكان قد غمرني ودحرجني طوال سنوات، وهاأنذا أحسني الآن فارغاً . ولكن ذلك لم يكن الأسوأ : فقد كانت تحطّ أمامي ، في نوع من التثاقل ، فكرة ضخمة تافهة . ولا أعرف جيداً ما كانت هذه الفكرة ، ولكني لم أكن أستطيع ان انظر اليها ، لفرط ما كانت تنفرني . وذلك كله ، كان يمتزج عندي بعطر لحية مرسييه.

وانتفضت ، وقد طفح غضبي عليه ، فأجبت بجفاء :

– أشكرك ، اعتقد انني قد سافرت بما فيه الكفاية : فيجب الآن ان اعود الى فرنسا .

وفي اليوم التالي ، كنت أستقل الباخرة الى مرسيليا .

إذا لم أكن مخطئاً ، واذا كانت جميع العلامات التي تتجمع تنذر بانقلاب جديد في حياتي ، فاني خائف . ليس ذلك لأنها غنيةٌ، حياتي، او لأنها مثقلة ، او لأنها ثمينة . وانما انا خائف مما سيولد ويستولي عليَّ – ويجرّني الى اين ؟ اينبغي لي بعد ان ارحل ، وان اترك كل شيء في التصميم ، تحقيقاتي وكتابي ؟ اتراني سأستيقظ بعد شهر، بعد اعوام ، مجهداً ، خائباً ، وسط أنقاض جديدة ؟ كم أود لو ابتصّر في ذاتي بوضوح قبل ان يفوت الأوان .

الثلاثاء ٣٠ كانون الثاني

لا جديد .

عملت من الساعة التاسعة حتى الواحدة في دار الكتب . وقد دبّجت الفصل الثاني عشر وكل ما يتعلق بإقامة رولبون في روسيا ، حتى موت بول الاول . هو ذا عمل ناجز : فلن اهتم به بعد حتى يحين تبييضه .

انها الساعة الواحدة والنصف ، وأنا في مقهى « مابلي » اتناول سندويشاً ، وكل شيء طبيعي تقريباً . والحق ان كل شيء في المقاهي ، وخاصة في مقهى مابلي ، طبيعي دائماً ، بسبب المدير السيد فاسكيل الذي يحمل في وجهه مظهراً سوقياً وضعياً يدعو الى الاطمئنان. ان ساعة قيلولته تحين عما قليل ، وقد بدأت عيناه تتوردان ، ولكن مشيته تظل حيّة عازمة . وهو يتنزّه بين الطاولات ، ويقترب خفية من الزبائن :

– هل أنت راضٍ يا سيدي ؟

وأبتسم اذ اراه بهذه الحيوية : فحين يفرغ مقهاه ، يفرغ رأسه ايضاً. إن المقهى يصبح خالياً بين الثانية والرابعة ، واذ ذاك يقوم السيد فاسكيل ببضع خطوات ، في هيئة بلهاء ، ويطفىء الخدم الانوار ، فينسلّ في البراءة : ان هذا الرجل ، حين يكون وحده ، ينام .

كان زهاء عشرون زبوناً من العزّاب والمهندسين الصغار والمستخدمين، ما يزالون في المقهى . انهم يتناولون غداءهم على عجل في نُزل عائلية يسمونها مطاعمهم ، ولما كانوا بحاجة الى شيء من الترف ، فانهم يتجهون الى هذا المقهى ، بعد الطعام ، فيحتسون القهوة ويلعبون البوكر ، وهم يُحدثون بعض الضجة ، ضجة واهنة لا تزعجني . إن عليهم ، هم ايضاً ، لكي يوجدوا ، ان يتعدّدوا .

أما انا ، فأعيش وحيداً ، وحيداً كل الوحدة . انني لا أتحدث مع احد ، ابداً ، لا أتلقى شيئاً ، ولا أعطي شيئاً . و « العصامي » لا حساب له. صحيح ان هناك فرانسواز ، صاحبة مقهى « رانديفو دي شامينو » . ولكن هل

أتحدث حقاً معها ؟ إنني احياناً أسألها ، بعد العشاء ، حين تقدم لي قدح بيرة:
– هل لديك وقتٌ هذا المساء ؟
وهي لا تقول قطّ لا ، فأتبعها الى إحدى غرف الطابق الاول الكبيرة التي تؤجرها بالساعة او النهار. وأنا لا أدفع لها : فنحن نقوم بفعل الحب مزدوجاً . وهي تصيب في ذلك متعة (انها بحاجة الى رجل كل يوم ، ولديها آخرون غيري) وهكذا أتطهر من بعض الكآبات التي اعرف جيداً أسبابها . ولكننا لا نكاد نتبادل إلا بعض الكلمات . وما جدوى ذلك ؟ إنّ كلاّ لنفسه ، ثم اني أظل في نظرها قبل كل شيء زبوناً من زبائن مقهاها . وهي تقول لي ، بينما تنزع ثوبها:
– قل لي هل تعرف هذا المُشهّي المسمّى « بريكو » ؟ لقد طلبه زبونان هذا الأسبوع. ولم تكن الخادمة تعرفه ، فأقبلت تخبرني : وكانا رحالتين ولا بد انهما شرباه في باريس . ولكني لا أحب ان اشتري دون ان اعرف . اذا لم يكن لديك مانع ، فسأحتفظ بجوربي .
وقد حدث في الماضي – بعد ان انقضى وقت طويل على تركها إياي – ان فكرت في « آني » . أما الآن ، فأنا لا أفكر بعد في أحد ؛ بل انا لا أهتمّ حتى بالبحث عن الكلمات . إنها تسيل فيّ ، متراوحة السرعة ، فأدعها تقطر ، من غير ان أثبت شيئاً . فإذا اخطأت وتعلقت بالكلمات ، فان أفكاري تظل معظم الوقت نوعاً من الضباب . إنها ترسم أشكالاً مبهمة مضحكة ، وتغور : وسرعان ما أنساها .
إن هؤلاء الشبان يدهشونني : فهم يروون ، اذ يحتسون قهوتهم ، قصصاً واضحة ومحتملة الوقوع . وإذا سئلوا عما فعلوا بالأمس ، لا يضطربون بل انهم يطلعونك على الواقع بكلمتين . ولو كنت مكانهم لتلعثمت . ومن الحق أن ليس ثمة بعد من يهتم بكيفية استعمال وقتي .ان من يعيش وحيداً ، لا يعرف حتى معنى ان يروي . فان احتمال الوقوع يختفي في الوقت نفسه الذي يختفي فيه الأصدقاء . والأحداث كذلك انها تُترك لتجري ؛ نُرى

أناساً ينبعون فجأة وهم يتكلمون ويمضون ، فنغرق في قصص لا رأس لها ولا ذنب : وهكذا نكون شهوداً مقيتين . ولكننا، تعويضاً عن ذلك ، لا نفوّت كل ما هو غير محتمل الوقوع ، كل ما لا يمكن ان يُصدق في المقاهي . فقد حدث مثلاً يوم السبت ، حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر ، ان امرأة قصيرة ترتدي ثوباً سماوياً ازرق، كانت تركض القهقرى وهي تضحك وتلوح بمنديل. وفي الوقت نفسه ، كان زنجي" يلبس مشمعاً حليبي اللون وينتعل حذاء اصفر ويضع قبعة خضراء ، ينعطف عند زاوية الشارع وهو يصفّر . ولقد صدمته المرأة في تهقرها ، تحت فانوس معلّق بسياج بضاء في المساء. وإذن، فقد كان ثمة في الوقت نفسه ، هذا السياج الذي تنبعث منه رائحة خشب مبتل ، وذلك الفانوس وهذه المرأة القصيرة الشقراء بين ذراعي زنجي ، تحت سماء من نار . وأنا افرض اننا لو كنا اربعة او خمسة ، للاحظنا الصدمة ، وهذه الألوان الرقيقة جميعاً ، وذلك المعطف الجميل الازرق الذي كان يشبه لحافاً من زغب ، والمشمع الفاتح اللون ، ومربعات الفانوس الحمراء ؛ وكنا لنضحك من الدهشة التي كانت ترتسم على ذينك الوجهين الطفليين .

ولكن يندر ان تجد رجلاً وحيداً يرغب في الضحك : صحيح ان مجموع المشهد قد انتعش في نظري بمعنى قوي" بل ووحشي" ، ولكنه نقي. ثم تفسّخ ، فلم يبق إلا الفانوس ، والسياج ، والسماء : وكان هذا ايضاً جميلاً بما فيه الكفاية . ولكن بعد ساعة ، كان الفانوس مضاء" ، والريح تئن ، وكانت السماء سوداء : ولم يكن قد بقي شيء على الاطلاق .

هذا كله ليس جديداً جداً ؛ هذه الانفعالات التي لا تؤذي ، لم أرفضها قط ؛ بل على العكس . فيكفي، من يريد ان يستشعرها ان يكون وحيداً بعض الشيء ، وحيداً بما فيه الكفاية ليتخلّص في اللحظة المناسبة من احتمال الوقوع . ولكني كنت أبقى قريباً جداً من الناس ، على سطح الوحدة ، مصمماً كل التصميم على ان ألتجيء إليهم في حالة الخطر : وهكذا كنت ، حتى ذلك الحين ، هاوياً .

اما الآن ، فان في كل مكان اشياء شبيهة بهذا القدح من البيرة القائم هناك على الطاولة . وحين اراه ، تأخذني الرغبة في ان اقول : كفى ! انني اكفّ عن اللعب . وانا ادرك جيداً اني مضيت ابعد مما ينبغي . انني ارفض ان ليس بالامكان اخذُ الوحدة بعين الاعتبار . غير ان ذلك لا يعني انني انظر فيما تحت سريري قبل ان انام ، ولا اني اخشى ان ارى باب غرفتي ينفتح فجأة في وسط الليل . ولكني مع ذلك قَلِق : فها قد انقضى نصف ساعة وانا اتجنب ان « انظر » الى هذا القدح من البيرة . انني انظر الى فوق ، والى تحت ، والى اليمين ، والى اليسار : اما « هو » فلا اريد ان اراه . وانا اعلم جيداً ان جميع العزّاب الذين يحيطون بي لا يمكن ان يقدّموا لي اية معونة : فلقد فات الاوان ، وليس بامكاني بعد ان التجيء اليهم . سوف يأتون لربتوا على كتفي ويقولوا لي : ماذا هناك ، هذا القدح من البيرة ؟ انه ككل الأقداح . انه مائل الحافة ، وهو ذو عروة ، ويحمل ترساً صغيراً مع مسحاة ، وقد كُتب على الترس « سابتنبرو » . وانا اعرف هذا كله ، ولكني اعلم ان هناك شيئاً آخر . يكاد لا يكون شيئاً . ولكني لا استطيع ان اشرح ما اراه . لا استطيع ان اشرحه لأحد . وهكذا : أنزلق على مهل إلى جوف الماء ، نحو الخوف .

انني وحيد وسط هذه الأصوات الفرحة المعقولة . إن جميع هؤلاء الأشخاص يقضون وقتهم في التعبير عن آرائهم ، وفي الاعتراف اعترافاً بهيجاً بأنهم يتقاسمون الرأي نفسه . فيا للأهمية التي يعلقونها ، يا إلهي ، على ان يفكروا جميعهم معاً في الأشياء نفسها . يكفي ان نرى سحنتهم حين يمر بينهم احد هؤلاء الأشخاص ذوي العيون السمكية والذين يبدون وكأنهم ينظرون في داخلهم والذين لا يمكن بعد ان يكونوا معهم على وفاق . حين كنت في الثامنة من عمري وكنت العب في حديقة اللكسمبورغ ، كان ثمة واحدٌ منهم يأتي ليجلس في مَرقب قائم عند الحاجز الذي يمتد بحذاء شارع اوغست كونت . ولم يكن يتكلم ، ولكنه كان بين الفترة والأخرى يمد ساقه وينظر إلى قدمه نظرة مذعورة . وكانت هذه القدم تنتعل حذاء ، بينما كانت الأخرى في

بابوج . وقد قال الحارس لخالي إن ذلك الرجل كان رقيباً ، وقد أُحيل إلى التقاعد لأنه كان قد جاء يقرأ العلامات الشهريـــة في الصفوف وهو يرتدي الثوب الأكاديمي . وكنا نشعر تجاهه بخوف مريع لأننا كنا نشعر انه كان وحيداً . وقد ابتسم ذات يوم لروبير ، فيما كان يمد له ذراعيه من بعيد: فأوشك ان يغمى على روبير . ولم يكن يخيفنا مظهر هذا الرجل البائس ، ولا الدمّل الذي كان في رقبته ، وكانت ياقته المستعارة تحكّه بطرفها : ولكننا كنا نشعر انه كان يشكّـل في رأسه افكار عقرب او سرطان ، وكان يُرهبنا ان يستطيع انسان ان يشكّل افكار سرطان عن المرقب ، وعن دواليبنا وعن الأعشاب .

أهذا إذن ما ينتظرني ؟ إنه يُسئمني للمرة الأولى ان اكون وحيداً . اني اود ان اتحدث عما يحدث لي قبل ان يفوت الأوان . قبل ان أُخيف الأطفال . اود لو تكون آنّي هنا .

عجباً : لقد ملأت عشر صفحات ولم اقل الحقيقة – على الأقل لم اقل كل الحقيقة . فاني حين كتبت ، تحت التاريخ ، عبارة « لا جديد » ، انما فعلت ذلك بنية سيئة : فالواقع ان قصة صغيرة،ليست معيبة ولا عجيبة،كانت ترفض ان تخرج . « لا جديد » . يعجبني كم يستطيع المرء ان يكذب وهو يجعل الحق في جانبه . بالطبع،لم يحدث شيء جديد،إذا صح التعبير : وانما حدث هذا الصباح ، في الساعة الثامنة والربع ، إذ كنت خارجاً من فندق برنتانيا لأتجه إلى دار الكتب،ان اردت التقاط ورقة كانت ملقاة على الأرض . فلم استطع . هذا كل شيء ، وهو ليس حتى حادثاً . نعم ، ولكني اضيف ، لكي أقول الحقيقة كلّها ، اني تأثرت لذلك بالغ التأثر : فلقد فكرت بأني لم أكن حراً . وفي دار الكتب حاولت ، بلا نجاح ، أن اتحرر من هـذه الفكرة . واردت ان اهرب منها الى مقهى مابـلي . وكنت أؤمل ان تتلاشى تحت الأضواء . ولكنها ظلت قابعة هنا ، في نفسي ، ثقيلة ومؤلمة . وهي التي أملت عليّ الصفحات السابقة .

لماذا تراني لم أتحدث عنها ؟ لا بـد ان ذلك كان بدافع الكبرياء ، وكان ايضاً ، الى حد ما ، بدافع الحَرَق والارتباك . انني لم اعتد ان اروي لنفسي ما يحدث لي ، ولذلك لا أجد ثانيةً تسلسل الأحداث ، ولا أميّز مـا هو هام . ولكن الأمر انتهى الآن : لقد قرأت ما كنت اكتبه في مقهى مابيلي ، فشعرت بالخجل ؛ انني لا أريد اسراراً ، ولا حالات نفسية ، ولا ما لا يمكن أن يُعبر عنه ؛ فأنا لست بكراً ولا كاهناً ، حتى ألعب لعبة الحياة الداخلية .

ليس عندي كثير أقوله : انني لم أستطع ان التقط الورقة ، هـذا كل شيء .

انني أحب كثيراً ان التقط حبّات الكستناء ، والخرق القديمة ، ولا سيما الاوراق . يلذني أن آخذها ، وان أُغلق عليها يـدي ، واوشك ان أحملها الى فمي ، كما يفعل الأطفال . وكانت آني تدخل في الوان بيضاء مـن الغضب حين كنت ارفع اطراف اوراق ثقيلة ضخمة ، ولكنها على الأرجح ملطخة بالخراء. إن الانسان غالباً ما يجد في الحدائق ، في الصيف أو مطلع الخريف ، قصاصات جرائد سلقتها الشمس ، فغدت جافة قابلة للكسر ، كالأوراق الميتة ، مصفرة جداً حتى يُظن ان حمض البكريك قد داخلها . وفي الشتاء ، توجد أوراق اخرى وقد دُقّت وسحقت ولطخت ، فهي تعـود الى الأرض : وأوراق اخرى جديدة ، بل ولامعة ، شديدة البياض ، خافقة ، تنتصب كالأوز ، ولكن الأرض تكون قد دبقتها من الأسفل ، فاذا هي تتلوى ، وتنتزع نفسها من الوحل ، ولكنها ما تلبث ان تذهب فتنسطح نهائياً على بُعدٍ يسير . هذا كله لذيذٌ ان يلتقط . وقد اكتفي احياناً بجسها وانا انظر اليهـا عن كثب ، وأحياناً اخرى امزقها لأسمع خشخشتها الطويلة ، او أشعلها، اذا كانت رطبة جداً ، مما لا يتم بلا جهد ؛ ثم أمسح راحتيّ الممتلئتين وحلاً بجدار أو بجذع شجرة .

إذن ، فقد كنت اليوم أنظر الى حذاء أشقر ينتعله ضابط في الفرسان ، كان خارجاً من الثكنة . وإذ كنت اتابع الحذاء بنظري ، رأيت ورقة جاثمة بالقرب

من مستنقع . وحسبت أن الضابط سيسحق بنعله الورقة في الوحل ، ولكن لا : لقد تخطى بخطوة واحدة الورقة والمستنقع . واقتربت : كانت صفحة كاملة لا شك في انها منتزعة من دفتر مدرسة . وكان المطر قد بللها ولواها، وكانت مغطاة بالتجعدات والتورم ، كيد محترقة . وكان خط الهامش الأحمر قد حال الى ندى وردي ؛ وكان الحبر قد سال في عدة أمكنة، وكان أسفل الورقة ضائعاً تحت قشرة من الوحل . ولقد انحنيت تأخذني الفرحة ان أمسّ هذه العجينة الطرية النضرة التي ستتدحرج تحت أصابعي في كريات رمادية ... ولم أستطع .

وظللت لحظة منحنياً ، وقرأت « إملاء : البوم الأبيض . » ثم استقمت، خالي اليدين ، اني لست بعدُ حراً ، لا استطيع بعدُ أن أفعل ما اريد.

إن الأشياء ينبغي ألاّ « تلمس » ، ما دامت لا تعيش . اننا نستعملها، ونضعها في أماكنها ، ونعيش وسطها : إنها نافعة ، لا أكثر . أما انا، فهي تلمسني : وهذا لا يطاق . انني اخاف ان اتصل بهـا ، كما لو انها كانت حيوانات حيّة .

انني الآن أرى ؛ انني أتذكر افضل من ذي قبل ما شعرت به ذلك اليوم ، عند شاطىء البحر ، حين كنت ممسكاً بتلك الحصاة . كان ذلك لوناً من الاشمئزاز اللذيذ . وما كان أكرهه ! وانا على يقين من أن ذلك كان صادراً عن الحصاة ، وكان ينتقل من الحصاة الى يديّ . أجل ، هوذا الأمر ، هوذا : نوعٌ من « الغثيان » في يدي .

صباح الخميس ، في دار الكتب .

حين كنت أهبط درج الفندق الساعة ، سمعت لوسي تتقدم ، للمرة المئة ، بشكواها الى صاحبة الفندق ، فيما هي تمسح الدرجات . وكانت صاحبة الفندق تتكلم في جهد وبعبارات قصيرة لأنها لم تكن قد حصلت بعد على طقم أسنانها المستعار . وكانت عارية تقريباً ، في روبديشامبر وردي ، وبابوج .

وكانت لوسي قذرة ، على عادتها ، وكانت بين الفينة والفينة تتوقف عن الدلك وتنتصب على ركبتيها لتنظر إلى سيدتها . وكانت تتكلم بلا انقطاع ، وبلهجة متعقلة ، فتقول :

– افضّل مئة مرة أن يركض ، إن هذا لدي سواء ، ما دام ذلك لا يُلحق به ضرراً .

وكانت تتحدث عن زوجها : كانت هذه المرأة القصيرة السمراء ذات الشعر الأسود بما وفرته من مال قد اتخذت لها ، وهي في الأربعين من عمرها ، شاباً فاتناً ، يعمل مُحكماً في « مصانع لوكوانت » . انها شقية في زواجها . ولم يكن زوجها يضربها أو يخونها : وانما كان يشرب ، وكان يعود ثملاً كل مساء . وكان سيء الصحة ، ولقد رأيته في ثلاثة أشهر يمتقع ويذوب . وتعتقد لوسي أن السبب في ذلك هو الخمر ، بينما انا ارجح انه مسلول .

وكانت لوسي تقول : – يجب ان اتغلب على هذا الشقاء .

وانا على يقين من ان ذلك يتأكلها ، ولكن على مهل ، وفي صبر : وتغلبت ، ولكنها ليست قادرة على ان تتعزى ولا على ان تستسلم لمصيبتها . وهي تفكر في ذلك قليلاً ، قليلاً جداً ، من هنا ومن هناك ، وتتطفل عليه . ولا سيما حين تكون مع الناس ، لأنهم يعزّونها ، ولأنه يسليها قليلاً ان تتحدث بلهجة حاسمة ، وفي ظاهر من اعطاء النصح . وإذ تكون وحيدة في الغرف ، اسمعها تدمدم لتتجنب التفكير . ولكنها طوال النهار ضجرة ، وسريعاً ما تبدو عابسة متعبة ، فتقول وهي تلامس حنجرتها :

– إن الأمر هنا ، يكاد يخنقني .

انها تتألم كالبخلاء . ولا بد انها بخيلة بالنسبة لمباهجها . وانا أتساءل عما إذا لم تكن تتمنى أحياناً ان تتحرر من هذا الألم الرتيب ، من هذه الهمهمات التي تعود ما ان تكف عن الغناء ، عما إذا لم تكن تتمنى ان تتألم مرة واحدة ، ان تغرق في اليأس . ولكن ذلك ، بأي حال ، سيكون محالاً عليها : انها معقدة .

بعد ظهر الخميس :

« كان السيد دورولبون قبيحاً جداً . وكان يروق الملكة انطوانيت ان تدعوه بـ « قردتها العزيزة » ولكن كانت له مع ذلك جميع نساء البلاط ،لا بطريقة المزاح كما كان يفعل « فوازنون » القرد : وانما بجاذبية كانت تدفع انتصاراته الجميلة إلى أبعد حدود الهوس . انه يحبك الدسائس ويمثل دوراً مريباً في قضية « العقد » ثم يختفي عام ١٧٩٠ ، بعد ان يكون قد عقد تجارة متصلة مع ميرابو – تونو ونرسيا . ثم يُعثر عليه في روسيا ، حيث يغتال قليلاً بول الأول ، ومن ثم يسافر إلى أبعد البلاد ، إلى الهند والصين وتركستان . وهو يعمل في التهريب والتآمر والتجسس. وفي عام ١٨١٣ ، يعود إلى باريس ، فيبلغ عام ١٨١٦ أعظم السلطة والقدرة ، حين يصبح الأمين الوحيد لأسرار دوقة انغوليم . وكانت هذه المرأة العجوز ذات الأهواء الغريبة والتي كانت تستند إلى ذكريات طفولة فظيعة ، تهدأ وتسكن وتبسم حين تراه . وكان هو يستغلها لينشر المطر أو الطقس الجميل في البلاط . وفي آذار ١٨٢٠ تزوج الآنسة دو روكلور، وكانت جميلة جداً وفي الثامنة عشرة من عمرها، وكان السيد دورولبون قد بلغ السبعين ، انه في قمة المجد،وفي ذروة حياته . وبعد سبعة أشهر أُتهم بالخيانة ، فقبض عليه والقي في زنزانة حيث مات بعد خمسة أعوام في السجن ، من غير ان تجري محاكمته » .

أعدت قراءة هذا المقطع لجرمين برجيه[1] في كآبة . ولقد عرفت السيد دورولبون ، أول ما عرفته،من خلال هذه الأسطر . وكم بدا لي فاتناً ، وكم أحببته بعد ذلك ، في أعقاب هذه الكلمات القليلة ! وإنما أنا هنا من أجله هو ، من أجل هذا الرجل الصغير البسيط . وحين عدت من السفر ، كان بوسعي ان أستقر في باريس أو في مرسيليا . ولكن معظم الوثائق التي تتعلق باقامة المركيز

(١) جيرمين برجيه : « ميرابو – تونو واصدقاؤه » ص ٤٠٦ ، الهامش ٢ . شامبيون . ١٩٠٦ (ملاحظة الناشر) .

الطويلة في فرنسا انما هي موجودة في مكتبة بوفيل البلدية. وكان رولبون صاحب قصر في «ماروم». وقبل الحرب، كان ما يزال على قيد الحياة في هذه الضيعة أحدُ أحفاده، وهو مهندس معاري يُدعى رولبون - شامبوبريه، وحين مات عام ١٩١٢، قدّم إرثاً هاماً جداً لمكتبة بوفيل: رسائل من رسائل المركيز، ومقتطفات من يومياته، وأوراقاً مختلفة. وانا لم أطلع بعد عليها كلها.

واني لسعيد بأن أعثر على هذا النص مرة ثانية. فها قد انقضت عشرة أعوام لم اعد فيها قراءتها. ويخيل إليّ ان خطي قد تغيّر: فقد كنت اكتب الكلمات بطريقة اكثر تلاصقاً. وكم كنت احب السيد دورولبون في تلك السنة! واني اتذكر ذات مساء - مساء ثلاثاء: كنت قد عملت طول النهار في «المازارين». وكنت قد ادركت، عبر مراسلاته عامي ١٧٨٩ - ١٧٩٠، كيف خدع نرسيا بطريقة عظيمة. كان الليل قد هبط، وكنت اهبط جادة «دومين»، وعند زاوية شارع «دولاغيتيه» اشتريت كستناء. هل كنت سعيداً؟ كنت أضحك وحدي وانا أتمثل سحنة نرسيا حين عاد الى المانيا. اما وجه المركيز فشبيه بهذا الحبر: لقد اصفر كثيراً، منذ ان اخذت اهتم به.

فبادىء الأمر، كففت عن ان افهم شيئاً من سلوكه، ابتداء من عام ١٨٠١؛ وليس سبب ذلك قلة الوثائق، فان الرسائل ومقتطفات المذكرات والتقارير السرية واضبارات الشرطة متوفرة اكثر مما ينبغي. وانما الذي يعوز هذه الشواهد كلها، الحزم والكثافة. لا، انها غير متناقضة، ولكنها غير متوافقة كذلك. وهي تبدو وكأنها لا تخص الشخص نفسه؛ ومع ذلك، فان المؤرخين الآخرين يشتغلون على معلومات من النوع نفسه. فكيف تراهم يفعلون؟ أأكون احرص منهم على الدقة أم اكون اقل منهم ذكاء؟ والحق ان السؤال، مطروحاً على هذا النحو، يخلفني بارداً تماماً. فما الذي أبحث عنه، في آخر المطاف؟ انني لا ادري من ذلك شيئاً. إن رولبون الرجل كان، مدة طويلة اشد إثارةً لاهتمامي من الكتاب الذي ينبغي ان اكتبه، ولكن الرجل الآن... الرجل بدأ يضجرني. وانا متعلق الآن بالكتاب، وأحسّ حاجة

لكتابته تقوى شيئاً فشيئاً ، على قدر ما أشيخ ، كما يُخال .

يمكن الاقرار طبعاً بأن رولبون قد أسهم إسهاماً فعالاً في اغتيال بول الأول ، وانه قبل بعد ذلك مهمة تجسس عليا في الشرق لحساب القيصر ، وانه خان بلا انقطاع الكسندر لحساب نابليون . ولقد استطاع في الوقت نفسه ان يعقد مراسلة ناشطة مع الكونت دارتوا وأن يُنفذ اليه معلومات قليلة الأهمية ليقنعه باخلاصه : وليس في هذا كله ما هو غير محتمل الوقوع ؛ فقد كان فوشيه ، في العهد نفسه ، يمثل ملهاة لا تقل تعقيداً وخطراً . وربما كان المركيز أيضاً يقوم لحسابه بتجارة البنادق مع الامارات الآسيوية .

أجل ، لقد استطاع ان يقوم بهذا كله ، ولكن الأمر غير ثابت : لقد بدأت اعتقد ان ليس بوسع المرء ان يثبت شيئاً على الاطلاق . انها افتراضات تنبيء عن الأحداث : ولكن شعوري بأنها صادرة عني هو من العمق بحيث تصبح بكل بساطة طريقة لتوحيد معلوماتي . فليس ثمة ضوء واحد يجيء من جانب رولبون . إن الاحداث ببطئها وكسلها وإضجارها لا تفعل إلاّ ان تنسجم مع الاتجاه الذي اود ان امنحها إياه ؛ ولكنها تظل خارجية عنه . وانا أحس بأني اقوم بعمل محض خيالي . بل انا متأكد جداً من ان ابطال رواية ما سيكونون اكثر حقيقة ، وعلى أي حال سيكونون أبعث على الرضى والاستحسان .

الجمعة

الساعة الثالثة . والساعة الثالثة هي دائماً قبل الأوان او بعده بالنسبة لكل ما يريد المرء ان يعمله . لحظة عجيبة من لحظات ما بعد الظهر . وهي اليوم شيء لا يُحتمل .

إن شمساً باردة تبيّض غبار زجاج النوافذ . سماء صفراء ، يخالطها البياض . ولقد كانت السواقي مجلّدة هذا الصباح .

انني أهضم هضماً ثقيلاً بالقرب من الموقد. وانا أعلم مقدماً ان النهار ضائع .

لن أفعل شيئاً صالحاً ، إلا حين يهبط الليل ، ربما . وهذا من جراء الشمس ، إنها تذهّب بغموض غيوماً قذرة بيضاء معلقة في الهواء فوق الورشة ، وتسيل في غرفتي ممتقعة شقراء ، وتبسط على طاولتي أربعة أشعة كابية ومزيفة.

إن غليوني مطليّ ببرنيق مذهّب يجذب النظر أولاً بظاهر من المرح: ان المرء ينظر اليه فيذوب البرنيق ، ولا يبقى غير خط طويل شاحب على قطعة من خشب . وكل شيء هكذا ، كل شيء ، حتى يداي . وإن أفضل ما يعمله المرء ، حين تطلع مثل هذه الشمس ، ان يذهب فينام . غير اني قد نمت كالحيوان في الليلة الماضية ، وليس بي بعد من نعاس .

لكم أحببت سماء الأمس ، سماءً ضيقة ، مسودّة بالمطر ، كانت تندفع إلى زجاج النوافذ ، كوجه مضحك ومؤثر . اما هذه الشمس ، فليست مضحكة ، بل على العكس . فعلى كل ما أحبه ، على صدأ الورشة ، وعلى لوحات السياج المتهرئة ، يسقط نور بخيل عاقل، شبيه بنظر يلقيه المرء ، بعد ليلة لا نوم فيها ، على القرارات التي اتخذها عشية الأمس بحماسة ، أو على صفحات كتبها دفعة واحدة ، ومن غير شطب أو حذف. وإن المقاهي الأربعة لجادة فيكتور — نوار ، تلك المقاهي التي تشع ليلاً ، جنباً إلى جنب ، والتي هي أكثر من مقاه — أحواض أو قوارب أو نجوم او عيون كبيرة بيضاء — قد فقدت جمالها المبهم .

يوم ممتاز ليقوم المرء بارتداد على نفسه : إن هذه الأضواء الباردة التي تلقيها الشمس على المخلوقات ، كأنها حكم لا رحمة فيه — تدخل فيّ عن طريق العينين؛ فأنا مُضاء . من الداخل ، بنور مُفقر . وانا على يقين من ان ربع ساعة سيكون كافياً لأبلغ الحد الأقصى من الاشمئزاز من نفسي . وهذا ما لا أحرص عليه أبداً . ولن أقرأ ثانية ما كتبته امس عن إقامة رولبون في سان بترسبورغ . انني ابقى جالساً ، مرتخي الذراعين ، او أخطّ بضع كلمات ، من غير حماسة ، او أتثاءب ، او انتظر ان يهبط الليل. وحين يسود الظلام ، سأخرج انا والأشياء من الغموض .

هل شارك رولبون ام لا في اغتيال بول الأول ؟ تلك هي قضية اليوم: ولقد وصلت إلى هذه النقطة ، وليس بوسعي ان استمر قبل ان اقرر .

إن « تشيركوف » يعتقد بأن رولبون كان مأجوراً من الكونت باهلن. وهو يقول إن معظم المتآمرين قد اكتفوا باسقاط القيصر وحبسه . (والواقع ان الاسكندر كان يبدو موافقاً لهذا الحل) ولكن باهلن كان يود ان ينتهي تماماً من بول . ويعتقد ان السيد دوررولبون قد كُلف بتحريض المتآمرين شخصياً على القتل .

« لقد زار كلاً منهم وكان يمثل الحادثة التي ستقع ، بمقدرة لا تضاهى . وعلى هذا النحو ، ولّد لديهم او نمّى جنون القتل . »

ولكنني احذر تشيركوف ، فليس هو شاهداً عاقلاً ، وإنما هو مجوسي سادي ونصف مجنون : انه يحوّل كل شيء إلى شيطاني . وانه ليستحيل عليّ تصور السيد دوررولبون في هذا الدور الميلودرامي. مثّل حادثة القتل؟ كفى ! انه بارد ، وهو لا يُغري بالعادي : انه لا يُرشد ، بل يوحي ، ولا تستطيع طريقته المتقعة التي لا لون لها ، ان تنجح إلا مع اناس من طينته ، دساسين او سياسيين .

كتبت السيدة دوشاربير تقول : « لم يكن ادمار دوررولبون يرسم قط وهو يتكلم ، ولم يكن يقوم بالحركات ، ولم يكن يغيّر لهجة صوته . وكان يحتفظ بعينيه نصف مغلقتين ، ونادراً ما يرى المرء بين أجفانه الطرف الأقصى من حدقتيه الرماديتين . لقد مضى علي أعوام قصيرة منذ جرؤت على ان اصارح نفسي بأنه كان يضجرني إلى أبعد حد ممكن . كان يتكلم على نحو ما كان الأب مابلي يكتب » .

وهذا هو الرجل الذي كان ، بموهبته في التقليد . . ولكن كيف تراه كان يغوي النساء ؟ ثم إن هناك هذه القصة الغريبة التي يرويها « سيغور » والتي تبدو لي حقيقية :

« في عام ١٧٨٧ ، كان رجل عجوز ، هو صديق لديدرو ، وقد تثقف

على أيدي الفلاسفة ، كان يحتضر في خان بالقرب من « مولين » . وكان كهنة المناطق المجاورة قد بلغوا حد الإرهاق ، بعد ان حاولوا كل شيء عبثاً ؛ كان الرجل يرفض أن يتناول الأسرار الأخيرة ، وكان يؤمن بألوهية الكون . ومرّ السيد دورولبون ، وكان لا يؤمن بشيء ، فتراهن مع كاهن « مولين » انه لا يحتاج الى اكثر من ساعتين ليُعيد المحتضر الى مشاعره المسيحية.وقبل الكاهن الرهان وخسر فقد بدأ اقناع المحتضر عند الساعة الثالثة صباحاً ، وقد اعترف عند الساعة الخامسة ، ومات عند السابعة . وسأل الكاهن : « أتبلغ هذا الحد من قوة الحجة والنقاش ؟ إنك تبذّ رجالنا ! » فأجاب السيد دورولبون «اني لم اناقشه او احاجه ، وانما خوفته من الجحيم » .

والآن ، اتراه قد شارك مشاركة فعلية في القتل ؟ لقد صحبه ضابط من اصدقائه ذلك المساء ، حوالي الساعة الثامنة ، الى باب منزله ، فإذا خرج منه ثانية ، فكيف اجتاز سان – بترسبورغ من غير ان يقلق ؟ كان بول ، وهو نصف مجنون ، قد اصدر امره باعتقال جميع المارة ، ابتداء من الساعة التاسعة مساء ، ما عدا القابلات والاطباء . فهل ينبغي تصديق الاسطورة اللامعقولة التي تقول إن رولبون قد تنكر في ثياب قابلة حتى يبلغ القصر ؟ الحق انه كان ، بعد كل حساب ، حرياً بذلك . ومهما يكن من أمر ، فإنه لم يكن في بيته ليلة الاغتيال،وهذا يبدو مبتوتاً فيه . ولا بد ان الاسكندر قد ارتاب فيه بقوة ، إذ ان احد اعماله الاولى حين تسلّم السلطة كان ان ابعد المركيز بحجة ارساله في مهمة الى الشرق الأقصى .

إن السيد دورولبون يقتلني ضجراً . وأنا انهض ، واتحرك في هذا النور الشاحب . واني اراه يتغيّر على يديّ وعلى اكمام سترتي : وانا لا استطيع ان اعبّر عن مدى اشمئزازي منه . اني اتثاءب . وأضيء المصباح الكهربائي على الطاولة : فلعل نوره يستطيع ان يهزم نور النهار . ولكن لا : إن قصارى ما يستطيعه المصباح هو ان يحدث حول قاعدته مستنقعاً يثير الشفقة . واطفئه وانا أنهض . وارى في الجدار ثقباً ابيض : انه المرآة . إنه شَرك . وانا اعلم

أني سأتداعى للسقوط فيه . لقد تم الأمر . فقد بدا الشيء الرمادي في المرآة واقترب فأنظر اليه ، ويستحيل عليّ بعد ذلك الذهاب .

إنه انعكاس وجهي . وغالباً ما أبقى لأتأمله ، في هذه النهارات الضائعة وانا لا أفهم شيئاً منه ، هذا الوجه . إن لوجوه الآخرين معنى ؛ أما وجهي فلا . بل انا لا استطيع ان اقرر هل هو جميل أم قبيح . أعتقد انه قبيح ، لأنهم قالوا لي ذلك . ولكن ذلك لا يثير استغرابي. بل يصدمني في الحقيقة ان يستطيعوا ان يعزوا له صفات من هذا النوع ، كما لو كانوا يصفون بالجمال او القبح قطعة أرض او كتلة من الصخر.

على ان هناك مع ذلك شيئاً تروق رؤيته ، فوق منطقة الخدين الطرية ، فوق الجبين : ذلك هو هذا الشعاع الأحمر الذي يذهّب صلعتي ، إنـه شعري . إن هذا يروق النظر . إنه لون واضح عـلى الأقل : فأنا مسرور بأن أكون احمر الشعر . وهذا : في المرآة يُرى ، ويشع انني محظوظ ، رغم كل شيء : فلو كان جبيني يحمل شعراً كذلك الذي لا يوفق في التصميم الكستنائي والأشقر ، فان وجهي كان يضيع في المبهم ، وكان يعود عليّ بالدوار .

إن نظري يهبط ببطء، وفي ملل ، على هذا الجبين ، وهذين الخدين: انه لا يلتقي شيئاً صلباً ، بل يميع كما لو انـه يغرق في رمل . هناك طبعاً أنف وعينان وفم ، ولكن هذا كله لا معنى له ، حتى ولا تعبير انساني . ومع ذلك، فقد كانت آني وفيلين تجدان هيئتي حية ؛ فمن الممكن ان اكون قد ألفيت وجهي اكثر مما ينبغي . وكانت عمتي « بيجوا » تقول ، إذ كنت صغيراً « إذا افرطت في النظر الى نفسك بالمرآة ، فسوف ترى فيها قرداً » ولا بدّ أني نظرت وقتاً أطول ايضاً : وما أراه هو ما تحت القرد ، عند تخوم العالم النباتي ، على مستوى المرجّلات . انا لا انكر ان في ذلك حياة ؛ ولكن آني تفكر بمثل هـذه الحياة : فانا أرى ارتعاشات خفيفة ، وأرى لحماً تفهاً يتفتح ويخفق في استسلام . ولا سيما العينان ، انهما ، عن قرب ، فظيعتان ، انهما زجاجيتان : مائعتان ، عمياوان ، يحدّهما الاحمرار ، فكأنهما حراشف السمك .

اني استند بكل ثقلي على حافة الخزف ، وأدني وجهي من المرآة حتى لألمسها وتختفي العينان والأنف والفم : ولا يبقى ما هو بشري قط . تجعدات سمراء عند كل جانب من انتفاخ الشفتين المحموم. تشققات جنُوات . إن زغباً حريرياً ابيض يركض على منحدرات الخدين الكبيرة، وشعرتين تخرجان من المنخرين : انها خارطة جيولوجية بارزة الخطوط . وبالرغم من كل شيء ، فان هذا العالم القمري مألوف عندي . انا لا استطيع القول اني « أتعرّف » الى تفاصيله ، ولكن مجموعه يعطيني انطباعاً لما « سبقت رؤيته » يعود علي بالخدر : فأنسل على مهل في النوم .

اود ان استعيد السيطرة على نفسي : وان احساساً حياً وحاسماً كفيل به أن يحررني . وأطبق يدي اليسرى على خدي ، وأشدّ على الجلد ، واغضّن وجهي ، فيستسلم نصفه ، بينما يلتوي نصف الفم الأيسر وينتفخ وهو يكشف سناً من اسناني ، وينفتح المحجر عن كرة بيضاء ، على بشرة وردية نازفة . وليس هذا ما كنت ابحث عنه : فليس ثمّة من شيء بارز ، ولا من شيء جديد ، وانما هناك ما هو عذب، فضفاض، سبقت رؤيته ! وأنام مفتوح العينين ، ويكون الوجه قد بدأ يكبر ، ويكبر في المرآة ، فاذا هو هالة ضخمة شاحبة تنزلق في النور ...

وما ايقظني فجأة ، هو اني أضعت التوازن . فاذا بي اجد نفسي راكباً كرسياً وانا ما ازال مصاباً بالدوار . هل يبذل سائر الرجال مثل هذه المشقة ليحكموا على وجوههم ؟ يخيل الي اني ارى وجهي كما احس جسدي ، باحساس عضوي أصم والآخرون ؟ رولبون ، مثلاً ؟ أكان يُنميه أيضاً ان ينظر في المرايا الى ما كانت السيدة دوجانلي تسميه « وجهه الصغير المجعّد النظيف الواضح ، المنقوش بالجدري ، حيث كان يكمن خبثٌ فريد يقفز الى العينين ، أياً كان الجهد الذي يبذله من أجل إخفائه ؟ » وتضيف قائلة : « كان يهتم بالغ الاهتمام برأسه ، وانا لم أره قط من غير شعر مستعار . ولكن خديه كانا في زرقة تميل الى السواد ، لأنه كان ذا ذقن كثيفة ، وكان يحرص على

ان يحلقها بيده ، وكان هذا رديئاً جداً . وكان معتـاداً ان يلطخ وجهه بأبيض الاسفيداج ، على غرار « غريم » . وكان السيد دودانجفيل يقول انـه ، بهذا الابيض كله والازرق كله ، كان يشبه قطعة من جبن « روكفور » .

ويخيل إلي أنه كان ولا بد حسن المنظر . ولكنه لم يبدُ كـذلك ، في آخر المطاف ، للسيدة دوشاربير . فأنا احسب انها كانت تجده بالأحرى شاحباً. وربما كان محالاً على المرء ان يفهم وجهه بالذات . او لعل ذلك لأني انسان متوحد ؟ لقد تعلم الاشخاص الذين يعيشون في المجتمع ان يروا أنفسهم ، في المرايا، كما يبدون لأصدقائهم . اما انا ، فليس لي من أصدقاء : أمن أجل ذلك يبدو لحمي عارياً الى هذا الحد ؟ لكأنها ــ أجل ، لكأنها الطبيعة بلا بشر .

ليس لديّ رغبة بعد في العمل ، ولا يمكنني ان افعل شيئاً بعد ، إلا أن انتظر الليل .

الخامسة والنصف

إن الوضع سيء ! إنه سيء جداً : فانا اشعر بها ، وتلك القذارة، ذلك « الغثيان » وهو شيء جديد ، هذه المرة : فقد أصابني وأنا في مقهى . لقد كانت المقاهي حتى الآن ملاذي الوحيد لأنها ملأى بالناس ومضاءة جيداً : فحتى هـذا لن يتوفر لي بعد الآن ؛ وحين سأكون مطارداً في غرفتي ، لن أعلم بعد اني أذهب .

كنت قد جئت للمضاجعة ، ولكني ما كدت أدفع الباب حتى صاحت بي مادلين الخادمة :

ــ إن صاحبة الفندق غير موجودة ، فهي في السوق تبتاع حاجاتها.

وأحسست بخيبة شديدة في عضوي ، دغدغة طويلة مزعجـة . وفي الوقت نفسه كنت أُحس قميصي الذي كان يحك طرف ثديي ، فكنت محاطاً ومأخوذاً

بدوامة بطيئة ملونة ، دوامة من ضباب ، من اضواء في الدخان ، في المرايا ، مع المقاعد الصغيرة التي كانت تلتمع في الداخـــل ، ولم أكن أرى لماذا حدث ذلك هنـــاك ، ولا كيف حدث كذلك . وكنت على عتبة الباب ، متردداً ، ثم حدث اندفاع ،فر ظل في السقف واحسستني مدفوعاً الى امام . كنت عائماً وكنت دائخاً بالضباب المشعّ الذي كان يدخل فيّ من كل منفذ . وجاءت مادلين عائمة تنزع سترتي ، فلاحظت انها قد سرّحت شعرها الى خلف وحلت اذنيها بأقراط : حتى انني كدت أنكرها . وكنت أنظر الى خديها الكبيرين اللذين كانا لا يكفان يتمددان نحو الأذنين . وكان في تجويف الخـــدين ، تحت الوجنتين ، لطختان ورديتان منعزلتان كان يبدو انهما ضجرتان على تلك البشرة المسكينة .
كان الخدان يمتدان ، يمتدان نحو الاذنين ، وكانت مادلين تبتسم :
— ماذا تأخذ،يا سيد انطوان ؟

واذ ذاك أصابني « الغثيان » ،فتداعيت للسقوط على المقعد الصغير . ولم اكن اعرف حتى اين كنت . وكنت أرى الألوان تدور حولي عـــلى مهل ، وكانت بي رغبة للتقيؤ . وهكذا : منذ ذلك الحين، لم يتركني الغثيان، إنه يستولي علي

ودفعت . ورفعت مادلين صحني . وسحقت كأسي على البلاط بركةً من البيرة الصفراء ، حيث عامت فقاعـــة . وكان المقعد مبقوراً . في المكان الذي أجلس فيه، فكنت مضطراً ، حتى لا أنزلق ، أن اشد نعلي بقوة على الأرض؛ إن الطقس بارد . والى اليمين ، يلعب بعضهم الورق على سجادة من صوف . وانا لم أرهم حين دخلت ؛ وكل ما شعرت به أنه كان ثمة رزمة دافئة، نصفها على المقعد الطويل ، ونصفها على الطاولة الداخلية ، مع أزواج من الاذرع التي تتحرك . وبعد ذلك ، جاءتهم مادلـــين بالـــورق والطنفسة والقسائم في صحيفة . إنهم ثلاثة او خمسة ، لا أدري ، فـــأنا لا املك الجرأة للنظر اليهم . إن لي نابضاً مكسوراً : فبوسعي ان احرك عيني ، لا رأسي . إن الرأس طري كله ، مطاط ، فكأنه موضوعٌ وضعاً على رقبتي ؛ فاذا أدرته ، فإنني أوشك

أن أُسقطه . ومع ذلك ، فاني اسمع تنفساً قصيراً ، وأرى بطرف عيني ، بين الفينة والفينة ، لمعاً محمراً يغطيه شعرٌ أبيض . إنها يد .

حين تكون صاحبة الفندق في السوق ، يحل محلها على المشرب ابن عمها وكان اسمه ادولف . وقد بدأت انظر اليـه وانا اجلس ، واستمررت لأنني لم أكن استطيع ان أُدير رأسي . وكان يلبس قميصاً قصير الأكمام ، مع رافعتين بنفسجيتين ؛ وقد لف أكمام قميصه الى ما فوق المرفق . امـا رافعتا البنطلون ، فهما تكادان لا تُريان على القميص الأزرق ، فهما ممحوتان ، غارقتان في الزرقة ، ولكن ذلك من قبيل التواضع الكاذب : فهما بالفعل لا تتركان مجالاً لأن تنسيا ، وهما تزعجانني بعنادهما الحروفي ، كما لو انهما ، بعـد ان قررتا ان تصبحا بنفسجيتين ، توقفتا في الطريق ، من غير ان تتخليا عن ادعاءاتهما . إن المرء لتأخذه الرغبة في ان يقول لهما : « هيا ! » « إصبحا » بنفسجيتين ولينته الأمر ! » ولكن لا ، انهما تبقيان معلقتين ، معاندتين في جهدهما غير الناجز . احياناً تنزلق الزرقة التي تحيط بهما فتغطيها تماماً : فأظل لحظة لا أراهما . ولكن تلك لا تكون الا موجة ، فان الزرقة لا تلبث ان تشجب هنا وهناك ، وأرى من جديد جزراً صغيرة من بنفسج متردد تتسع وتتصل فيما بينها لتعيد تكوين الرافعتين . وليس لابن العم ادولف عينان : إن أجفانه المتورمة المشمرة لا تفعل الا ان تنفتح قليلاً عـلى بياض . وهو يبتسم ابتسامة ناعسة ، وبين حين وآخر يشخر قليلاً وينبح ويتخبّط بضعف ، ككلب يحلم .

وكان قميصه القطني يبرز بفرح فوق جدار بلون الشوكولا . إن هذا ايضاً يعود بشعور « الغثيان » . او بالأحرى الغثيان نفسه . إن « الغثيان » ليس فيَّ : فأنا أحسه « هناك » على الجدار ، على الرافعتين ، حولي في كل مكان . فليس هو والمقهى إلا شيئاً واحداً ، انما انا الذي فيه .

والى يميني ، تأخذ الرزمة الدافئة في الضجيج ، وتحرك ازواج أذرعها .

— عجباً ! ها هوذا « الاتو » ! ما هو « الاتو » ؟

صُلْبٌ كبير أسود منحنٍ على اللعبة .
– ها ها ها !
– ماذا ؟ هذا هو « الاتو » ، لقد لعبه .
– لا ادري ، لم أر ...
– بلى ، لقد لعبت الآن « الأتو » .
– آه حسناً ، إذن « اتو » القلب .
وأخذ يغنّي :
– « أتو » القلب ، أتو القلب ، اتو القلب !
صوت : – ما هذا يا سيدي ؟ ما هذا يا سيدي ؟ انني آخذه !
ويسود الصمت من جديد – مذاق سكّر الهواء ، في جوف فمي . الروائح الرافعتان .

ونهض ابن العم ، فخطا بضع خطوات ، ووضع يديه خلف ظهره ، وابتسم ، ورفع رأسه وانقلب الى خلف ، على رأس عقبيه . إنه على هذا الوضع يستنيم . انه هنا يترنّح ، وهو ما يزال يبتسم ، وخدّاه يرتجفان . انه يوشك ان يسقط . انه ينحني الى خلف ، ينحني ، ينحني ، ووجهه مستديرٌ كلياً نحو السقف ، واذ يوشك ان يسقط ، يستدرك نفسه بحذق على طرف المشرب ، ويستردّ توازنه . وبعد ذلك ، يعيد الكرة . ويأخذني الضجر ، فأنادي الخادمة :
– مادلين ، ضعي لي لحناً على الفونوغراف ، من لطفك . ان الذي يعجبني تعرفينه : « بعض هذه الايام »
– نعم ، لكن ذلك قد يُزعج هؤلاء السادة ! ان هؤلاء السادة لا يحبون الموسيقى حين يكونون مستغرقين في اللعب . آه ! سأسألهم .
وأقوم بجهد كبير فأدير رأسي . انهم اربعة . وتنحني على عجوز ارجواني يضع على ارنبة انفه نظارة تحيط بها دائرة سوداء . انه يخفي اوراقه على صدره ويرميني بنظرة تحتية .

— إفعل ما تريد ، يا سيد.

ابتسامات . ان اسنانه متهرئة . وليس هو صاحب اليد الحمراء ، وانما صاحبها جاره ، وهو رجل ذو شارب اسود . وصاحب الشارب هذا يملك منخرين هائلين بوسعها ان يفحّا الهواء لأسرة برمتها ؛ وهما يأكلان نصف وجهه ، ولكنه مع ذلك يتنفّس من فمه وهو يلهث قليلاً . وان معها ايضاً شاباً ذا رأس كلبي . وانا لا اتميز اللاعب الرابع .

وكان الورق يسقط على سجادة الصوف وهو يدوّم ؛ ثم تأتي ايد ذات اصابع بخواتم فتلتقطه وهي تحكّ السجادة بأظافرها . وكانت الايدي تحدث لطخات بيضاء على السجادة ، وهي تبدو منتفخة مغبرّة . وكان الورق ما يني يسقط ، والايدي تروح وتجيء . اي انشغال عجيب ! انه لا يبدو في مظهر لعب ، ولا ضحك ، ولا عادة . واعتقد انهم انما يقومون بذلك ليملأوا الوقت . ولكن الوقت اعرض مما ينبغي ، فهو لا يدَع لهم ان يملأوه . ان كلّ ما يُغمس فيه يميع ويتمطّى . فحركة اليد الحمراء هذه مثلاً ، التي تلتقط الورق وهي تتعثّر : انها حركة خرِعة تماماً . ينبغي فتقُها والتفصيل في داخلها .

وتدير مادلين محرّك الفونوغراف . المهم الاّ تخطىء فتضع كما وضعت في المرة السابق لحن « كافاليريا روستيكانا » . ولكن لا ، إنه اللحن المطلوب ، واني لاعرفه منذ الانغام الاولى . انه « راغ — تايم » قديم مع لازمة مغنّـــاة . وقد سمعت عام ١٩١٧ جنوداً امبركيين يغنّونه في شوارع لاروشيل . ولا بد ان تاريخه يعود الى ما قبل الحرب ، ولكن التسجيل احدث عهداً . ومهما يكن من امر ، فانه اقدم اسطوانات المجموعة ، اسطوانة « باتيه » ذات ابرة ياقوتية .

عما قليل تأتي اللازمة : انها هي التي احبّها خاصة ، والطريقة الوعرة التي تتقذف بها الى امام ، كجرُف تجاه البحر . ان « الجاز » هو الذي يعزف الآن ؛ ليس ثمة غناء ، وانما انغام ، عشرات الآلات من الانتفاضات الصغيرة . انها لا تعرف راحة ، فان نظاماً صارماً يولّدها ويهدمها ، من غير ان يترك

لها ابداً وقتاً تستدرك فيه نفسها ، تعيش فيه لحسابها . انها تركض وتتدافع فتضربني لدى مرورها ضربة جافة وتتلاشى . وانا اودّ كثيراً ان امسك بها ، ولكني اعلم اني اذا نجحت في ايقاف احداها ، فلن يبقى بين اصابعي الاّ لحن متراخ حقير . فينبغي ان اقبل موتها ؛ بل عليّ ان « اريده » ، هذا الموت : فقليلة هي الانطباعات التي اعرفها في مثل هذه المرارة والقوة .

بدأت أدفأ ، واحسّني سعيداً . وليس ذلك بعدُ شيئاً عظيماً ، فهي سعادة « غثيان » صغيرة : تتمدّد في اعماق المستنقع اللزج ، في اعماق « زمننا » — زمن الرافعات البنفسجية والمقاعد المبقورة — وهي مصنوعة من لحظات عريضة رخوة تكبر لدى اطرافها بشكل لطخات الزيت . وهي ما كادت تولد ؛ حتّى شاخت ، ويخيّل اليّ اني اعرفها منذ عشرين سنة .

وهناك سعادة اخرى : فثمة ، في الخارج ، تلك اللفافة الفولاذية ، وقت الموسيقى القصير الذي يخترق زمننا من جهة الى اخرى ويرفضه ويمزّقه بأسنانه الصغيرة الحادّة ؛ ان هناك زمناً آخر .

— السيد راندو يلعب القلب ، وانت تضع الواحد .

وينزلق الصوت ويختفي . لا شيء يعضّ على شريط الفولاذ ، لا الباب الذي ينفتح ولا نفحة الهواء البارد التي تسيل على ركبتي ، ولا وصول الطبيب البيطري مع حفيدته الصغيرة : ان الموسيقى تخرق هذه الاشكال المبهمة وتمرّ عبرها . وما كادت الحفيدة تجلس ، حتّى أخذت : فجلست جامدة ، مفتوحة العينين على سعتها ؛ وأخذت تصغي وهي تحكّ الطاولة بقبضتها .

لحظات اخرى وتغنّي الزنجية . ان ذلك يبدو لا مفرّ منه ، فما اقواها ضرورة هذه الموسيقى : لا شيء يستطيع ان يقطعها ، لا شيء مما يصدر عن هذا الزمن الذي يسترخي فيه هذا العالم ، وسوف تنقطع من تلقاء نفسها ، بالأمر . واذا كنت احبّ هذا الصوت الجميل ، فخصوصاً من اجل ذلك : لا من اجل عظمته ولا من اجل حزنه ، ذلك انه الحدَث الذي هيأه كثير من الانغام ، من بعيد جداً ، وهي تموت لكي يحيا . ومع ذلك فأنا قلق ؛ ان ايقاف الاسطوانة

لا يحتاج الا لشيء يسير جداً: ان ينكسر نابض، او ان يأخذ ابن العم ادولف هوى مفاجىء. فكم هو غريب، وكم هو مؤثر ان تكون هذه القسوة رخصة الى هذا الحد! ان شيئاً لا يملك ان يقطعها، ويستطيع كل شيء ان يحطمها.

وتلاشى آخر نغم، وأحسست في الصمت القصير الذي تلا ان «شيئاً ما قد حدث».

صمت

إن ما حدث هو ان «الغثيان» قد اختفى. حين ارتفع الصوت، في السكون أحسست جسمي يقسو، وتلاشى «الغثيان». دفعة واحدة: وكان شاقاً تقريباً ان يصبح هكذا قاسياً كله، لامعاً كله. وفي الوقت نفسه، كان زمن الموسيقى يتمدد وينتفخ كإعصار. وكان يملأ القاعة بشفافيته المعدنية، فيما هو يسحق على الجدران زمننا البائس. انني «في» الموسيقى. وفي المرايا تدور كرات نارية، تحيط بها حلقات من دخان وتدور، حاجبة وكاشفة بسمة النور القاسية. وتقلص قدح البيرة امامي، وتراكم على الطاولة: وكان يبدو كثيفاً، لا غنى عنه. وأردت ان آخذه وأزينه فمددت يدي... يا إلهي! ان هذا خصوصاً هو الذي تغير، انها حركاتي. لقد نمت حركة ذراعي هذه كموضوع عظيم، فانزلقت على طول غناء الزنجية، وخيل الي انني كنت أرقص.

وكان وجه ادولف هنا، مستنداً الى الجدار الشوكولاتي؛ وكان يبدو قريباً جداً. وفي اللحظة التي كانت يدي تنطبق فيها، رأيت رأسه؛ وكان له وضوح الخاتمة وضرورتها. وضغطت أصابعي على القدح، ونظرت الى ادولف: انني سعيد.

ــ خذ!

وانقذف صوت وسط ضجة صاخبة. انه جاري يتكلم، وكان العجوز يغلي. وقد احدث خداه لطخة بنفسجية على جلد المقعد الأسمر. وصفق ورقة

على الطاولة . انها . «مانيل» المربّع ولكن الشاب ذا الرأس الكلبي ابتسم. وكان اللاعب الأحمر منحنياً على الطاولة يرصده من تحت ، متأهباً للقفز.

— وخذ !

وخرجت يد الشاب من الظلّ ، فعامت لحظة ، وهي بيضاء متثاقلة ، ثم ذابت فجأة كأنها الحدأة ، وشدّت ورقة على السجادة . وقفز الأحمر السمين في الهواء :

— خراء ! انه يقطع .

وبدا طيف « ملك القلب » بين اصابع متشنّجة ، ثم قُلب على انفه ، واستؤنف اللعب . ملك جميل ، قادم من مكان بعيد ، مهيأً بكثير من الحيل ، وكثير من الحركات المختفية . وها هو ذا يختفي بدوره ، لتولد حيلٌ اخرى وحركات اخرى ، وكرّ وفرّ ، وارتداد حظّ ، وجملةٌ من المغامرات الصغيرة .

انني منفعل ، وانا احسّ جسمي كآلة ضبط في استراحة . لقد حدثت لي انا مغامرات حقيقية . وانا لا اذكر منها أي تفصيل ، ولكني ألحظ تسلسل الظروف الدقيق . لقد جزت البحار ، وخلفت ورائي مدناً ، وعبرت انهاراً ، وأوغلت في الغابات ، وكنت أقصد دائماً مدناً اخرى . ولقد ملكت نساء ، وتقاتلت مع رجال ، ولم اكن استطيع قط ان ارجع الى الوراء ، شأني في ذلك شأن اسطوانة لا تستطيع ان تدور القهقرى . وذلك كله ، الى « أين » كان يقودني ؟ الى هذه الحقيقة ، الى هذا المقعد ، الى هذه الفقاعة من النور المدمدمة بالموسيقى .

وحين تركتني ...

نعم ، انا الذي كنت كثيراً ما احب ان اجلس في روما على شاطىء « التيبر » ، وانا اهبط « الرمبلا » وأصعدها مئات المرات في برشلونة مساءً انا الذي رأيت قرب « انغكور » ، في جزيرة « باراي » في « براخان » ،

شجرةً من تين البنغال تعقد جذورها حول كنيسة « الناغاس » ، انني هنا ، اعيش اللحظة نفسها التي يعيشها لاعبو « المانيل » هؤلاء ، وأصغي الى زنجية تغنّي ، بينما برود الليل الضعيف في الخارج .

وتوقفت الاسطوانة .

ودخل الليل عذباً ، متردداً . انه لا يُرى ، ولكنه هنا ، يغلّف المصابيح ، وان المرء ليستنشق في الهواء شيئاً كثيفاً : انه هو ، الليل . الطقس بارد . ويدفع احد اللاعبين الاوراق ، في غير ما نظام ، الى آخر يجمعها من جديد . وقد بقيت ورقة في الخلف . أتراهم لا يرونها ؟ انها تسعة القلب . ويأخذها احدهم اخيراً فيعطيها الشاب ذا الرأس الكلبي .

ــ آه ! انها تسعة القلب !

حسناً . اني ذاهب . وينحني الشيخ البنفسجي على ورقة وهو يمص رأس قلم . وتنظر اليه مادلين نظرة مشرقة وفارغة . ويقلب الشاب تسعة القلب بين اصابعه . يا إلهي !...

وأنهض في مشقة ، وفي المرآة ، فوق صلعة الطبيب البيطري ، أرى وجهاً لابشرياً ينسلّ .

سأذهب عما قليل الى السينما .

ان الهواء ينعشني : فليس له مذاق السكر ولا رائحة الفرموت الخمرية ولكن ما ابرد الطقس !

انها الساعة السابعة والنصف ، وليس بي جوع ، والسينما لا تبدأ الا في التاسعة ، فما الذي افعله ؟ يجب ان اسير بسرعة لأتدفأ . وأتردد : ان الجادة خلفي تفضي الى قلب المدينة ، الى الزينات النارية الكبيرة للشوارع المركزية ، الى قصر بارامونت ، الى الامبريال ، الى مخازن « جاهان » الكبرى ، ان هذا لا يغريني على الإطلاق : فهذه ساعة تناول المشهّيات ، وقد رأيت ما يكفيني الآن من الأشياء الحية والكلاب والبشر وجميع الكتل الرخوة التي تتحرّك

تلقائياً .
وانعطف الى اليسار ، وأوشك ان ألج ذلك الثقب ، هناك ، في آخر صفّ مصابيح الغاز : انني سأتابع « البولفار الأسود » حتى جادة غالفاني . وينفث الثقب ريحاً مثلجة : ليس ثمة الا حجارة وتراب . ان الحجارة شيء قاس لا يتحرك .
ان ثمة طرقاً من طريق مملّ : فعلى الرصيف الأمين كتلة غازية رمادية مع خطوط نارية ، وهي تحدث ضجة الصدف : انها المحطة القديمة . وقد أخصب وجودُها المئة متر الاولى من البولفار الاسود – ابتداء من بولفار « الرودوت » حتى شارع « بارادي » – وولّد فيها زهاء عشرة مصابيح واربعة مقاه متجاورة ، مقهى « راندیفو دي شامينو » وثلاثة اخرى تسترخي طوال النهار ، ولكنها تتبادل الضوء مساءً وتلقي مستطيلات مضيئة على الشارع . انني آخذ ثلاثة حمامات اخرى من النور الأصفر ، وأرى امرأة مسنّة تخرج من حانوت « راباش » للسمانة ، وهي تردّ غلالتها على رأسها وتأخذ في الركض : لقد انتهى الأمر الآن . انني على حافة رصيف شارع « بارادي » الى جانب آخر مصباح . ان شريط القطران ينقطع هنا . فمن الناحية الاخرى للشارع ، يقوم السواد والوحل . وأعبر شارع بارادي ، وتمشي قدمي اليمنى في مستنقع ماء ، فيبتلّ جوربي ، ان النزهة تبتدىء .
ليس ثمة « من يسكن » هذه المنطقة من البولفار الأسود . فالطقس فيها اقسى من ان يُحتمل ، والأرض اعقّ من ان تستقرّ فيها الحياة وتنمو . والمناشر الثلاث للاخوة سولاي (الاخوة سولاي هم الذين صنعوا القبّة المصفّحة لكنيسة سانت – سيسيل دولامبر والتي كلفت مئة الف فرنك) تنفتح الى الغرب بكل ابوابها وكل نوافذها ، على شارع جان – برت – كوري فتملأه بالهدير . وهي تولي بولفار فيكتور – نوار ظهورها الثلاثة التي تلتصق بها جدران . وهذه الأبنية تحفّ رصيف اليسار طوال اربعمئة متر : ليس ثمة أي نافذة ، حتى ولا كوّة .

وسرت هذه المرة بقدميّ الاثنتين في الساقية . وعبرت الطريق : كان على الرصيف الآخر مصباح غاز واحد ، كمنارة عند طرف الارض الأقصى ، يضيء سياجاً مبقوراً ، مهدّماً في مواضع .

وكانت قصاصات من الاعلانات ما تزال ملصقة على الالواح . فذاك وجه جميل ممتلىء بالحقد يكشّر على ارضية خضراء ممزّقة بشكل نجمة ؛ وتحت الأنف ، رسم احدهم شارباً معوّجاً . وبوسع الناظر ان يتهجأ ، فوق قصاصة اخرى ، كلمة « Purâtre » بحروف بيضاء تسقط منها قطرات حمراء ، ربما كانت قطرات دم . ومن الممكن ان يكون الوجه والكلمة جزءين من الاعلان نفسه . غير ان الاعلان هو الآن ممزّق ، فالصلات البسيطة المقصودة التي تجمع بينهما قد اختفت ، ولكن وحدة اخرى قد قامت من تلقاء نفسها بين الفم الملتوي وقطرات الدم والاحرف البيضاء وآخر الكلمة « Acre » : فكأنّ هوساً مجرماً لا يهدأ يسعى الى الظهور عن طريق هذه العلامات العجيبة . ويمكن المرء ان يرى بين الامواج النيّرة اضواء الطريق الحديدية . وثمة جدار طويل يكمل السياج . جدار بلا فتحات ولا ابواب ولا نوافذ ، يقف على بعد مئتي متر ، بازاء بيت . وجاوزت حقل عمل المصباح ، وهأنذا ادخل الثقب الأسود . واني لأشعر وأنا ارى ظلّي عند قدميّ يذوب في الظلام ، اني اغطس في ماء مثلج . وأتبيّن امامي ، في البعيد ، عبر كثافات من سواد ، شحوباً مورّداً : انها جادة غالفاني . وأستدير ؛ وخلف مصباح الغاز ، في البعيد ، يوجد ظلّ من ضياء : تلك هي المحطة ، والمقاهي الأربعة . وخلفي وامامي اشخاص يشربون ويلعبون الورق في المقاهي . اما هنا ، فليس الا ظلام . وتحمل لي الريح ، في تواتر ، صوت جرس صغير متوحّد يأتي من بعيد . ان الضجيج المألوف ، وهدير السيارات والصراخ والنباح ، كل هذه لا تبتعد قط عن الشوارع المضاءة ، فهي تظلّ محمومة . واما هذا الجرس ، فانه يخرق الظلمات ويصل الى هنا : انه اقسى وأقلّ انسانية من سائر الضجيج .

وأتوقّف لأصغي اليه . انني مقرور ، واذناي تؤلمانني ؛ ولا بدّ انهما

حمراوان تماماً . ولكني لا أحس ّ نفسي بعد ، إنني غارق في صفاء ما يحيط بي ؛ لا شيء يعيش ؛ إن الريح تئن ، وخطوط ٌ صلبة ٌ تفر في الليـل . إن البولفار الأسود لا يتخذ سحنة الشوارع البورجوازية التي تقدم هبات ٍ للمارة . فليس هنا من اهم ّ بتزيينه : انه لا يعدو ان يكون قفا. قفا شارع جان – بيرت كوروي، وجادة غالفاني . صحيح ان سكان بوفيل مـا زالوا يراقبونه قليلاً ، حوالي المحطة ؛ انهم ينظفونه بين وقت وآخر ، بسبب المسافرين . ولكنهم سرعان ما يتركونه بعد ذلك ، فيمضي مستقيماً أعمى ، حتى يصطدم بجادة غالفاني . لقد نسيته المدينة . وقد تجتازه احياناً بسرعة كبيرة شاحنة ضخمة بلون التراب، وهي ترسل ضجة راعدة ، بل هو لا تحدث فيه قتل ، لانعدام القتلة والضحايا. ان البولفار الاسود لا إنساني . كالمعدن . كمثلث . وإنه لحظ لبوفيل ان يكون فيها مثل هذا البولفار . فالمألوف ان لا يوجد مثله إلا في العواصم ، في برلين ، من ناحية نوكولن او باتجاه فريدريشهين – وفي لندن ، خلف غرنويش. ممرات مستقيمة وقذرة ، في صميم المجرى الهوائي ، مع ارصفة عريضة بلا أشجار. إنها دائماً تقريباً خارج السور ، في هذه الاحياء الغريبة التي تصنع فيهـا المدن ، بالقرب من محطات البضائع ، ومستودعات الترامات ، والمسالخ، ومستودعات الغاز . انها بعد يومين من المطر ، حين تكون المدينة كلها لزجة تحت الشمس ، وحين تشع بالحرارة الرطبة ، تظل باردة تماماً ، وتحتفظ بوحلها ومستنقعاتها . بل ان لهـا مستنقعات لا تجف أبداً ، إلا شهراً واحداً في العام ، في آب .

لقد بقي «الغثيان» هناك ، في النور الاصفر . انني سعيد : فهـذا البرد شديد النقاء ، وشديدة ُ النقاء هذه الليلة ؛ ألست انا نفسي نفحة من هواء مثلوج ؟ ليتني لا أملك دماً ، ولا لفاً ولا لحماً . ليتني أسيل في هـذا القنال الطويل نحو ذلك الشحوب هناك . ليتني لا أكون إلا برداً .

ها هم أولاء بشر . ظلان . أية حاجة كانت بهما ليجيئا الى هنا ؟ انها امرأة قصيرة تشد ّ رجلاً من كمه . وهي تتكلم بصوت سريع

دقيق . وأنا لا افهم ما تقول ، بسبب الريح .

وقال الرجل : – ستسدّين بوزك ، أليس كذلك ؟

وظلت تتكلم ، وفجأة دفعها . وتبادلا النظرات ، مترددين ، ثم دسّ الرجل يديه في جيبه ومضى من غير ان يلوي .

واختفى الرجل . وهأنذا تفصلني عن المرأة ثلاثة أمتار على الاكثر . وفجأة مزقتها اصوات عريضة مبحوحة ، انتُزعت منها لتملأ الشارع كله، بعنف هائل :

– شارل ! ارجوك ، أتعرف ما قلته لك ؟ عُد يا شارل ، لقد كفاني ما عانيت ، انني شقية اكثر مما ينبغي .

ومررت بها عن كثب ، حتى كان بوسعي ان ألمسها. ان هذا ... ولكن كيف نصدق ان هذا اللحم المحترق ، هذا الوجه المشع بالألم ؟... ومع ذلك، فأنا اتعرّف المنديل والمعطف والسمة التي على ذراعها اليمنى بلون تفل الحمر ، انها هي ، لوسي ، خادمة البيت . انني لا أجرؤ على ان أقدم لها مساعدتي ، ولكن يجب ان تستطيع التماسها عند الحاجة : ومررت أمامها ببطء ، وانا انظر اليها . وثبتت عيناها عليّ ، ولكن لم يبدُ أنها رأتني ؛ انها تبدو وكأنها لا تعرفني في ألمها . وخطوت بضع خطوات ، ثم التفت ...

أجل ، انها هي ، انها لوسي . ولكنها متغيرة الوجه ، شديدة الغضب ، متألمة بسخاء مجنون . انني احسدها . فهي هنا ، منتصبة باستقامة ، منفرجة الذراعين كما لو انها كانت تنتظر الكي : وفتحت فمها فكادت تختنق. وانا أحس بأن الجدران قد كبرت ، على جانبي الطريق ، وتقاربت ، وان لوسي كانت في جوف بئر . وانتظرت بضع لحظات ، وانا اخشى ان تسقط ميتة، فهي أهزل من ان تتحمل هذا الالم العنيف ولكنها لم تتحرك . وبدا انها قد تمعدنت ، ككل ما يحيط بها . وتساءلت ذات لحظة عما اذا لم أكن مخطئاً بشأنها ، وعما اذا لم تكن هذه طبيعتها تتكشف لي فجأة ...

وندّت عن لوسي أنة قصيرة ، ورفعت يدها الى حنجرتها وهي تفتح

عينين كبيرتين مندهشتين . لا ، انها لا تستمد من ذاتها القوة على ان تتألم الى هذا الحد . ان ذلك يأتيها من الخارج ... إن هـذا البولفار . يجب ان تُؤخذ من كتفيها ، وتقاد الى الانوار ، وسط الناس في الشوارع العذبة الوردية : فان المرء لا يستطيع هناك ان يتألم بمثل هذه القوة ، سوف ترتخي هناك ، وستستعيد هيئتها الايجابية ومستوى آلامها العادي .

وأوليتها ظهري . انها ، بعد كل حساب ، محظوظـة . فأنا هادىء اكثر مما ينبغي ، منذ ثلاث سنوات . وانا لا استطيع ان اتلقّى شيئاً من هذه الوحدة الفاجعة الا قليلاً من الصفاء الفارغ . انني ذاهب .

الخميس الساعة الحادية عشرة والنصف

اشتغلت ساعتين في قاعة المطالعة . وهبطت الى ساحة « الرهونات » لأدخن غليوناً . ساحة مبلطة ببلاط وردي . وسكان بوفيل فخورون بها ، لأنها ترجع الى القرن الثامن عشر . ورأيت في مدخل شارع شاماد وشارع سوسبيدار سلقات قديمة تسد الطريق على السيارات . وهاتيك السيدات اللواتي أتين لينزهن كلابهن ينسللن تحت القناطر ، بمحاذاة الجدران . وقلما يتقدمن حتى النور الواضح ، ولكنهن يرمين نظرات فتيات ، نظرات مختلسة راضية على تمثال غوستاف امبتراز . لا بد انهن لا يعرفن اسم هذا العملاق البرونزي ولكنهن على ثقة من أنه ، بفضل ردنجوته وقبعته العالية ، كان رجلاً من الطبقة العالية . انه يمسك قبعته بيده اليسرى ، ويضع اليمنى على ركام الطلحيات التصفية : ذلك يشبه لو ان جدهم كان هنا ، على هذه القاعدة ، مصبوباً في البرونز . ولم يكنّ بحاجة الى اطالة النظر اليه ليدركن انه كان يفكر مثلهن ، مثلهن تماماً ، حول جميع الموضوعات . وقد وضع في خدمة أفكارهن الصغيرة الضيّقة والصلبة سلطته وعلمه الواسع المستمد من الطلحيات التصفية التي تسحقها يده الثقيلة . وتشعر السيـدات ذوات الأثـواب السوداء بالعزاء ، فبوسعهن ان ينصرفن بهدوء الى شؤون المنزل ، وينزهن كلابهن : فالافكار

المقدسة ، الافكار الطيبة التي ورثنها عن آبائهن ، ليس عليهن بعد تبعة الدفاع عنها ؛ فان رجلاً من البرونز جعل نفسه حامياً لها .

إن «دائرة المعارف» الكبرى تكرس بضعة أسطر لهذه الشخصية ؛ وقد قرأتها في العام الماضي . وقد كنت وضعت المجلد على حافة نافذة ؛ وكان بوسعي ان ارى ، عبر الزجاج ، صلعة امبتراز الخضراء . وقد علمت أنه اشتهر حوالي ١٨٩٠ . وكـان مفتشاً للاكاديمي . وكان يرسم اشياء جميلة . وقد ألف ثلاثة كتب : « حول الشعبية عند قدماء اليونان » (١٨٨٧) و « التربية عند رولان » (١٨٩١) و « وصية شعرية » في عام ١٨٩٩ . وقد مات عام ١٩٠٢ ، حاملاً حسرات تلامذته والمعجبين به من ذوي الذوق الرفيع .

استندت الى واجهـة دار الكتب . إني أُدخن غليوني الذي يهدد بالانطفاء . وأرى سيدة مسنة تخرج خائفة من الرواق ذي القبب وتنظر الى امبتراز نظرة دقيقة وعنيدة . وتجرؤ فجأة ، فتجتاز الساحة بكل سرعة في رجليها وتقف امام التمثال وهي تحرك فكيها . ثم تمضي سوداء على البلاط الوردي وتختفي في شقّ جدار .

ربما كانت هذه الساحة جذلة ، حوالي ١٨٠٠ ، بقرميدها الوردي وبيوتها . اما الآن فان فيها شيئاً جافاً وردیئاً ، ظلاً دقيقاً من فظاعة . وهذا صادرٌ من ذلك الرجل القائم هناك على قاعدته . انهم حين صبّوا هذا الجامعي في البرونز ، جعلوا منه ساحراً .

وانظر الى امبتراز مواجهة . ليس له عينان ، ويكاد لا يكون له أنف ، ولحية تأكلها ذلك البرص الغريب الذي ينقض أحياناً كالوباء على جميع تماثيل حي من الأحياء . إنه يحيّي : وتحمل صُدرته ، لدى القلب ، لطخة كبيرة خضراء اللون . وهو يبدو منحرف المزاج منزعجاً . انه طبعاً لا يحيا ، ولكنه ليس كذلك فاقد الروح . ان قوة صمّاء تنبعث منه : فكأنها ريحٌ تردّني : ان امبتراز يود ان يطردني من ساحة « الرهونات » . ولكني لن

أذهب قبل ان أنهي تدخين هذا الغليون .

وينبعث فجأة من خلفي شبح كبير ، فأقفز متنفضاً .

– المعذرة يا سيدي ، لم أكن أريد ان أزعجك . لقد رأيت أن شفتيك كانتا تتحركان . ولا شك في انك كنت تردد عبارات من كتابك (وضحك) انك تقوم بمطاردة الشطرات .

وأنظر الى « العصامي » في ذهول . ولكنه بدا مدهوشاً من دهشتي .

– أليس واجباً يا سيدي ان يتجنب المرء الشطرات في النثر ؟

ان احترامه لي قد انخفض قليلاً . واسأله ما الذي يفعله هنا ، في هذه الساعة . فيوضح لي ان معلمه قد اعطاه عطلة ، وأنه قدم تواً الى المكتبة ، وانه لن يتناول الغداء ، وانه سيطالع حتى موعد الإغلاق . وأكف عن الاصغاء اليه ، ولكنه لا بد من ان يكون قد ابتعد عن الموضوع الأدبي ، فقد سمعت فجأة :

– ... ليتني املك مثلك سعادة ان اكتب كتاباً .

يجب ان اقول شيئاً ما . وقلت بلهجة ارتياب :

– ... سعادة ...

فأخطأ في فهم معنى جوابي ، وسارع يصحح :

– كان عليّ يا سيدي ان أقول : كفاءة .

ورقينا الدرج . ليست لديّ رغبة في العمل . وكان لاحدهم قد ترك كتاب « اوجيني غرانديه » على الطاولة ، وكان الكتاب مفتوحاً على الصفحة السابعة والعشرين . وقد التقطته بآلية ، وأخذت أقرأ الصفحة السابعة والعشرين ، ثم الصفحة الثامنة والعشرين : فليست لديّ الجرأة بالبدء من البداءة .

واتجه « العصامي » نحو رفوف الجدار بخطوة حيّة ، وعاد بمجلدين وضعهما على الطاولة ، بهيئة كلب عثر على عظمة .

– ماذا تقرأ ؟

يخيّل اليّ انه يكره ان يجيبني : فقد تردد قليلاً ، وأدار عينيه الكبيرتين

الشاردتين ، ثم مدّ لي الكتابين على مضض . انهما « التراب العضوي ومناجم التراب العضوي » تأليف لاربالتيرييه ، و « ابتوباديزا او التعلم المفيد » تأليف لاستيكس . ولكن ؟ إنني لا أرى مـــا يزعجه . فان قراءة مثل هذا الكتب تبدو لي محتشمة جداً . وإرضاءً لضميري ، قلبت صفحات « ابتوباديزا » فلم أجد فيه إلا كل ما هو رفيع .

الساعة الثالثة

تركت « اوجيني غرانديه » . وانصرفت الى العمل ، ولكن بلا حماسة. وكان « العصامي » الذي يرى أني اكتب ، يراقبني في تلذّذ واحترام . وبين الفينة والفينة أرفع قليلاً رأسي ، فأرى الياقة الكبيرة المنشّاة التي تخرج منها عنقه الدجاجية . إنه يرتدي ثياباً رثة ، ولكن لباسه الداخلي ذو بياض باهر . وقد تناول من على الرف نفسه مجلداً آخر قرأت عنوانه بالمقلوب « سهم كوديبك » يوميات نورماندية للآنسة جولي لافبرنيو . إن قراءات العصامي ستحيرني دائماً .

وتعاود ذاكرتي دفعةً واحدة اسماء آخر المؤلفين الذين قرأ آثارهم : لامبر ، لانجلو ، لاربالتيرييه ، لاستيكس ، لافبرنيو . انه لإشراق ؛ لقد فهمت طريقة العصامي : انه يثقف نفسه وفق الالفباء .

وأتأمله في نوع من الاعجاب . اية إرادة تحتاج اليها ليحقق في هدوء وعناء خطةً واسعة المدى الى هذا الحد؟ منذ سبعة أعوام (لقد قال لي أنه كان يدرس منذ سبعة اعوام) دخل هذه القاعة ذات يوم في أبهة كبيرة . وقـــد استعرض بنظره الكتب التي تغطي الجدران من غير ان يحصرها عد ، ولا بد انه قال ، كما قال راستينياك تقريباً : « انت وانا ، ايها العلم الانساني ! » ثم ذهب يأخذ اول كتاب على اول رف الى أقصى اليمين، وفتحه على الصفحة الاولى، بشعور من الاحتـــرام والرهبة ممزوج بتصميم لا يتزعزع ، وقـــد وصل الآن

الى حرف K . L بعد J ، و L بعد K . وقد انتقل بقسوة من درس مُعقدات الأجنحة الى نظرية «الكانتا» ، ومن كتاب عن تيمورلنك الى مقالة انتقاد كاثوليكية ضد مذهب داروين: انه لم يَحَرَّ لحظة واحدة. لقد قرأ كل شيء، وقد اختزن في رأسه نصف ما يعرفه البشر عن التناسل الذاتي ، ونصف الحجج ضد تشريح الحيوانات الحية . إن خلفه وأمامه عالماً . ويقترب اليوم الذي يقول فيه لنفسه ، وهو يغلق آخر كتاب في آخر رف الى أقصى اليسار: «والآن ؟»

إن هذه ساعة «عصرونيته» ، وهو يأكل بهيئة بريئة خبزاً ولوحاً من «غالابيتر» . جفناه مسبلان ، وبوسعي ان أتأمل أهدابه الجميلة المعقوفة – أهداب امرأة . وهو يبعث رائحة تبغ قديم تختلط بها ، اذ يتنفس ، ، عطر الشوكولا العذب .

الجمعة ، الساعة الثالثة

أخذت في شرك المرآة ، اكثر قليلاً من ذي قبل . انني أتجنبها ، ولكن لكي أسقط في شرك الزجاج : اقترب من النافذة ، مرتخي الذراعين ، بلا عمل . الورشة ، السياج ، المحطة القديمة – المحطة القديمة ، السياج ، الورشة. وأتثاءب بشدة ، حتى ان دمعة تطفر الى عينيّ . وأمسك الغليون بيدي اليمنى ، ورزمة تبغي باليسرى . يجب حشو هذا الغليون . ولكني لست متحمساً لذلك . إن ذراعيّ تتدليان ، وأنا أسند جبيني الى الزجاج . تلك المرأة العجوز تضايقني . انها تنطنط في عناد ، بعينين ضائعتين . وهي تقف أحياناً بهيئة مذعورة ، كما لو ان خطراً غير مرئيّ قد لامسها . ها هي ذي تحت نافذتي . إن الريح تُلصق تنورتها على ركبتيها . وتقف لتسوّي غلالتها . ان يديها ترتجفان . وتمضي من جديد : وأنا الآن أراها من ظهرها . يالبغلة العجوز ! أنا افترض أنها ستنعطف الى اليمين ، في الجادة السوداء . ان أمامها مئة متر تقطعها : فاذا ظلّت تمشي على هذا النحو ، فهي بحاجة الى عشر دقائق ، عشر دقائق سأبقى

في أثنائها هكذا ، انظر اليها ، وجبيني ملتصق بالزجاج . ستقف عشرين مرة، ثم تمضي ، ثم تقف ...

انني «أري» المستقبل انه هناك ، منتصب في الشارع ، لا يكاد يزيد شحوباً عن الحاضر . ما حاجته لأن يتحقق أي جديد بمنحه ذلك ؟ ان العجوز تبتعد وهي تعرج ، وتقف ، ثم تشدّ على خصلة رمادية تفلت من غلالتها . انها تمشي ، لقد كانت هناك ، وها هي الآن هنا ... انني لا أدري بعدُ أين بلغت من أمرها : هل «أرى» حركاتها ، أم انني «أتنبأ» بها ؟ انني لا أميّز بعدُ الحاضر من المستقبل ، ومع ذلك ، فان هذا يستمر ، يتحقق شيئاً فشيئاً، إن العجوز تتقدم في الشارع الخالي ، وهي تنقل نعليها الرجاليين الكبيرين. ان هذا هو الزمن ، الزمن عارياً تماماً ، انه يأتي متمهلاً للوجود ، انه يُغري بالانتظار ، حتى اذا أقبل ، يُحس المرء بالاشمئزاز لأنه يلاحظ ان وقتاً طويلاً قد انقضى على وجوده هنا . ان العجوز تقترب من زاوية الشارع ، وهي ليست بعدُ إلا كومة صغيرة من الأقمشة السوداء . أجل ، انني أقر ، هذا جديد حقاً ، فهي لم تكن هناك الساعة . ولكن هذا جديد كامد ، ذابل ، لا يستطيع ابداً ان يفاجيء . انها على وشك ان تنعطف في زاوية الشارع ، إنها تنعطف – طوال أبد .

وانتزع نفسي من النافذة ، فأجتاز الغرفة وأنا أترنّح ، وأتدبق بالمرآة ، انظر الى نفسي ، أشمئز من نفسي : طوال أبد كذلك . وأخيراً ، أفلت من صورتي ، وأمضي لأرتمي على سريري . وانظرُ الى السقف ، وأود ان أنام.

هدوء . هدوء . انني لا أحس بعدُ الانزلاق ، ولا ملامسات الزمن . أرى صوراً على السقف . دوائر نور اولاً ، ثم صلباناً . وكان ذلك يرف. ثم ها هي صورة اخرى تتشكل ، في جوف عينيّ ، هذه . انها حيوان كبير راكع ، وانا أرى قدميه الأماميتين ، وبردعته . امّا الباقي ، فغطى بالضباب . غير أني أتعرفه جيداً : انه جَمَل رأيته في مراكش ، وهو مربوط بحجر . كان قد ركع ونهض ست مرات على التوالي ، وكان بعض الصبية يضحكون

ويحرّضونه بأصواتهم .

منذ عامين ، كان ذلك رائعاً : لم يكن لي الا ان اغمض عيني ، وسرعان ما يطنّ رأسي كخليّة : كنت ارى من جديد وجوهاً وأشجاراً وبيوتاً وبابانية من « كاميثي » تغتسل وهي عارية في برميل ، وروسياً ميتاً يسيل من جرح عريض فاغر ، ودمه كلّه في مستنقع بقربه . وكنت استعيد طعم الكسكس ، ورائحة الزيت التي تملأ عند الظهر شوارع بورغوس ، ورائحة البسباسة التي تخفق في شوارع تطوان ، وصفير الرعاة اليونانيين . كنت منفعلاً . لقد انقضى وقت طويل على هذه الفرحة الذاهبة . أتراها ستولد اليوم من جديد ؟

شمس محرقة ، تنسلّ في رأسي بخشونة ، كصفيحة فانوس سحري ، تتبعها قطعة من سماء زرقاء ؛ وقد تسمّرت ، بعد بضع انتفاضات ، فذهبتني كليّ من الداخل . فمن أيّ نهار مراكشي (او جزائري او سوري) انفصل هذا اللمعان فجأة ؟ وتداعيت أسيل في الماضي .

مكناس . كيف تراه كان اذن ذلك الجبليّ الذي اخافنا في زقاق ، بين جامع « بردان » وتلك الساحرة الساخرة التي تظلّلها شجرة توت ؟ لقد اقبل علينا ، وكانت آتي الى يميني . او لعلّها كانت الى يساري ؟

هذه الشمس وهذه السماء الزرقاء لم تكونا الا خداعاً . وهذه هي المرة المئة التي انخدع بهما . ان ذكرياتي هي النقود في بورصة الشيطان : فاننا حين نفتحها لا نجد فيها الا اوراقاً ميتة .

اما الجبلي، فلا اتمثّل منه بعدُ الا عيناً كبيرة مفقوءة، حليبية. تلك العين ، أهي حقّى له ، هو ؟ إن الطبيب الذي كان يشرح لي في « باكو » فكرة مستشفيات الدولة للإجهاض ،كان هو ايضاً أعور ، وحين اريد ان اتذكّر وجهه ، فإنما تبدو كذلك هذه الكرة المبيضّة . ان هذين الرجلين لا يملكان الاّ عيناً واحدة يتبادلانها بالدور ، شأنهما في ذلك شأن « النورن » [1]

(١) Nornes وهن في الميثولوجيا السكندينافية العذراوات اللواتي يقطعن في مصائر الناس . (المترجم)

وأمر هذه الساحة التي كنت أقصدها في مكناس كل يوم، هو اشدّ بساطة: انني لا اراها بعدُ على الإطلاق. بيد انه يبقى لي الشعور الغامض بأنها كانت ساحة ساحرة، وهذه الكلمات الثلاث المترابطة ترابطاً لا انفصام له: ساحة مكناس الساحرة. لا شك في اني اذا اغمضت عينيّ او حدّقت بالسقف في غموض، استطعت ان أعيد تأليف المنظر: شجرة في البعيد، شكل مظلم كثيف يعدو اليّ. ولكني اخترع هذا كلّه لمتطلّبات القضية.. لقد كان ذلك المراكشي طويلاً وصلباً، والحق اني رأيته فقط حين كان يلمسني. وهكذا ما أزال «أعرف» انه كان طويلاً وصلباً: ان بعض المعلومات المختصرة تظلّ ثاوية في ذاكرتي. ولكني لا «أرى» بعدُ شيئاً: فعبثاً ما نحث في الماضي، وانا لا أستخرج منه الاّ اطرافاً من صور، ولا ادري جيداً ما الذي تمثّله، ولا ما اذا كانت ذكريات او اوهاماً.

والحق انّ هذه الاطراف نفسها قد اختفت في كثير من الحالات، فلم يبقَ بعد الا كلمات: ما يزال بامكاني ان اروي حكايات، أرويها جيداً جداً (فانا بالنسبة للحكاية لا اخشى احداً، الا ضباط البحر المهنيّين) ولكنها ليست بعد الا هياكل. صحيح ان القضية فيها قضية شخص يفعل هذا او ذاك، ولكنه ليس إياي، وليس عندي ما هو مشترك معه. انه يتنزّه في بلاد لا اعرف عنها اكثر مما لو انني لم أزرها قطّ. ويحدث احياناً، في اثناء السرد، ان انطق بهذه الاسماء الجميلة التي تقرأ في الأطالس، من مثل ارانجواز او كانتربري. انها تولّد فيّ صوراً جديدة كل الجدّة كتلك التي يشكلها، بعد المطالعة، اولئك الذين لم يسافروا قط: انني احلم على كلمات، هذا كل ما في الأمر.

على انه يبقى من مئة حكاية ميتة حكاية او حكايتان حيّتان. وانا اذكرهما في تحفّظ احياناً. لا اكثر مما ينبغي، خشية ان ابليها. وأتناول احداهما، فأستعيد الديكور والأشخاص والمواقف. وفجأة اتوقّف: فلقد احسست بشيء تالف، ورأيت كلمةً تنفذ فوق نسيج المشاعر. وانا احدس ان هذه

الكلمة ستأخذ عمّا قليل مكان بضعة صور احبّها . وسرعان ما اقف ، وأفكّر على عجل بشيء آخر ؛ انني لا اريد ان أُتعب ذكرياتي . ولكن عبثاً ، ففي المرة القادمة التي اذكرها فيها ، سيكون قسمٌ كبيرٌ منها قد تثبّت وتسمّر .

وارسم حركة مبهمة لكي انهض ، لأذهب فآتي بصُوَري في مكناس ، من الصندوق الذي دفعتُه تحت طاولتي . ما الفائدة ؟ ان مهيجات الشبق هذه فقدت كل تأثير على ذاكرتي . ولقد عثرت ذات يوم على صورة صغيرة مصغّرةً تحت ورق نشّاف . وكانت تمثّل امرأة تبتسم ، بالقرب من جوض . وتأمّلتها لحظة من غير ان اعرفها . ثم قرأت على قفا الصورة : « آني . بورتسموث ، ٧ نيسان ٢٧ » .

لم يسبق لي ان احسست كاليوم احساساً قوياً بأني بلا ابعاد خفية ، واني محدودٌ بجسمي ، وبالافكار الخفيفة التي تتصاعد منه كالفقاقيع . انني أبني ذكرياتي بحاضري . فانا ملقىً ومتروك في الحاضر . اما الماضي فأحاول عبثاً ان اتصل به : انني لا استطيع ان افرّ .

الباب يطرق . انه العصامي : وكنت قد نسيته . لقد وعدته بأن أُريه صور رحلتي . ليأخذه الشيطان .

وجلس على كرسيّ ؛ ولامست مؤخرته المسند وانحنى صدره الصلب الى امام . وقفزت من سريري وأشعلت النور :

– ولكن كيف ذلك يا سيدي ؟ لقد كنّا في حالة جيدة جداً .

– لا لرؤية الصور ...

وأخذت منه قبعته التي كان حائراً لا يدري ما يفعل بها .

– أصحيح هذا يا سيدي ؟ اتريد حقاً ان تُريني اياها ؟

– طبعاً .

وكأن في هذا حساب : فأنا آمل ان يصمت ، بينما ينظر اليها . وانحنيت تحت الطاولة ، ودفعت الصندوق بازاء الأحذية اللامعة ، ثم وضعت على رُكبتيه حمل ذراعين من البطاقات البريدية والصور : اسبانيا ومراكش الاسْبانية

ولكني ارى من هيئته الضاحكة المنفتحة اني اخطأت خطأً فادحاً اذ حسبت اني سأحيله الى الصمت . لقد ألقى نظرةً على منظر لسان – سيباستيان مأخوذ من جبل ايفالدو ، ثم وضعه باحتراس على الطاولة وظلّ لحظة صامتاً . ثم تنهّد :

– آه ! إنك محظوظ يا سيدي . اذا كان ما يُقال صحيحاً ، فان السفر هو خير مدرسة . اتوافق على هذا الرأي يا سيدي ؟

فقمت بحركة مبهمة . ومن حسن الحظ انه لم ينتبه .

– لا بدّ ان ذلك يُحدث انقلاباً كبيراً . ولئن كُتب لي ان اقوم برحلة ، فيخيّل اليّ اني اودّ ، قبل ان اسافر ، ان اسجّل كتابة ادنى الخطوط في طبعي ، لأتمكن من ان اقارن لدى عودتي ما كنته وما اصبحته . وقد قرأت ان هناك مسافرين تغيّروا تغيراً كبيراً جسدياً وروحياً ، حتى ان اقرب اقربائهم لم يعرفوهم لدى عودتهم .

وكان يقلّب في شرود حزمة كبيرة من الصور ؛ وقد تناول احداها ووضعها على الطاولة من غير ان ينظر اليها ؛ ثم حدّق بكثافة في الصورة التالية التي تمثل القديس جيروم منحوتاً على كرسيّ في كاتدرائية بورغوس .

– هل رأيت هذا « المسيح » ذا الجلد الحيواني في بورغوس ؟ ان هناك يا سيدي كتاباً عجيباً عن هذه التماثيل ذات الجلود الحيوانية ، بل وحتى ذات البشرية الانسانية . و « العذراء » السوداء ؟ انها ليست في بورغوس ، انها في ساراغوس ؟ ولكن ربما كانت هناك صورة منها في بورغوس ؟ ان الحجّاج يقبّلونها ، اليس كذلك ؟ – اقصد صورة ساراغوس . وهناك اثر من قدمها على بلاطة ؟ موجودة في ثقب ؟ تدفع الامهات فيه اولادهنّ ؟

ويدفع بكلتا يديه ، وهو متصلّب تماماً ، ولداً خيالياً . فكأنما هو برفض هدايا ارتاكزيركيس .

– آه ، العادات يا سيدي ، هذا ... عجيب !

ووجّه اليّ ، وهو يلهث ، فكّه الحماري الكبير . وكانت تنبعث منه رائحة

التبغ والماء والنتن . وكانت عيناه الجميلتان الشاردتان تلمعان ككرتين من نار ، وكان شعره القليل يحيط صلعته بهالة من بخار . وتحت هذه الصلعة ، كانت جماعات من الساموبيد والنيام — نيام والمالغاش والفيوجيان يحتفلون بأغرب الأعياد ، ويأكلون آباءهم المسنّين واولادهم ، ويدورون حول أنفسهم على دقّات الطبل حتى الأغماء ، ويستسلمون لجنون « الاموك » [١] ، ويحرقون موتاهم ، ويعرضونهم على السطوح ، ويتركونهم لمجرى المياه على قارب تضيئه شعلة ، ويتضاجعون بالاتفاق ، امهات وابناء ، آباء وبنات ، اخوة واخوات ، ويبترون أعضاءهم ويخصون انفسهم ، ويمدّدون شفاههم بالأطباق وينقشون على اجنابهم حيوانات مسيخة .

— هل يمكننا ان نقول مع باسكال ان العادة طبيعة ثانية ؟

وزرع عينيه السوداوين بعينيّ ، يلتمس جواباً ، فقلت :

— هذا يتوقّف .

وتنفّس .

— وهذا ايضاً ما كنت اقوله لنفسي يا سيدي . ولكني أحذر نفسي اشدّ الحذر ، ينبغي على الانسان ان يكون قد قرأ كل شيء .

ولكنه اصيب بالهذيان لدى رؤيته للصورة التالية . فقد اطلق صرخة فرح :

— سيغوفي ! سيغوفي ! لقد قرأت كتاباً عن سيغوفي .

وأضاف بلهجة تباه :

— اني يا سيدي لا اذكر بعد اسم المؤلف . فأحياناً تغيب عني الأسماء :

ن .. نو .. نود ..

فقلت له بحيوية :

— مستحيل ، انك ما تزال عند حرف اللام ، لافيرنيو ..

وسرعان ما ندمت على عبارتي : فهو ، بعد كل حساب ، لم يحدّثني قط

---

(١) جنون القتل لدى سكان مالاكا . (المترجم)

عن هذه الطريقة في القراءة ، ولا بدّ ان ذلك هذيان سرّي . والواقع انه قد اضطرب وتقدّمت شفتاه بهيئة باكية . ثم أخفض رأسه ونظر الى زهاء عشر بطاقات بريدية من غير ان ينبس بحرف .

ولكني لاحظت بعد ثلاثين ثانية ان حماسة كبيرة تنفخه ، وانه يوشك ان ينفجر اذا لم يتكلم :

– حين أنتهي من تثقيف نفسي (وأمامي بعد ست سنوات لهذا) فسوف انضمّ ، اذا سُمح لي ، الى الطلاب والاساتذة الذين يقومون برحلة سنوية الى الشرق الاوسط .

وأضاف في طلاوة :

– اودّ ان ادقّق بعض المعلومات ، واحب كذلك ان يحدث لي ما هو غير متوقّع ، ما هو جديد ، وبكلمة واحدة : مغامرات .

وكان قد اخفض صوته واتخذ هيئة الخبث . فقلت له مندهشاً :

– اي نوع من المغامرات ؟

– جميع الانواع يا سيدي . ان المرء قد يخطيء في اختيار قطار ، فيهبط في مدينة مجهولة ، او يضيع محفظته ، او يُقبض عليه خطأ فيقضي الليل في سجن . حسبت يا سيدي ان بالامكان تعريف المغامرة هكذا : حدث يخرج من العاديّ ، من غير ان يكون بالضرورة خارق العادة . يتحدثون عن سحر المغامرة . فهل تبدو لك هذه العبارة دقيقة ؟ أودّ ان اطرح عليك سؤالاً يا سيدي .

– وما هو ؟

فاحمر وابتسم :

– ربما كان ذلك مخالفاً للرصانة ...

– قلْ مع ذلك ...

فال عليّ وسألني ، وعيناه نصف مغمضتين :

– هل وقعت له مغامرات كثيرة ، يا سيدي ؟

فأجبت بآلية :

— بضع مغامرات .

وانقلبت الى خلف لأتفادى نفَسه الموبوء . اجل ، لقد قلت ذلك بآلية ، من غير ان افكر بالأمر . والواقع اني عادةً اميل الى الاعتزاز بأني عرفت مغامرات كثيرة . اما اليوم ، فقد كدت ألفظ هذه الكلمات حتى اخذني غيظ على نفسي كبير : فقد خيِّل اليّ اني اكذب ، واني في حياتي كلها لم اعرف ادنى مغامرة ، او اني بالأحرى لا اعرف حتى ما تعنيه هذه الكلمة . وفي الوقت نفسه ثقل على كتفيّ ذلك الخمود نفسه الذي استولى عليّ في هانوي ، منذ اربعة اعوام ، حين كان مرسيبه يستعجلني ان ألحق به ، وكنت احدّق ، من غير ان اجيب ، في تمثال هندي صغير ، وكانت « الفكرة » هناك ، تلك الكتلة الضخمة البيضاء التي كانت كثيراً ما أثارت اشمئزازي آنذاك : وكنت لم ارها مرة اخرى منذ اعوام . وقال العصامي :

— هل يمكنني ان اسألك ...

فليخسأ ! لعله يطالب ان اروي له احدى هذه المغامرات العظيمة ! انني لا اريد ان اقول كلمة في هذا الموضوع ، وملت فوق كتفيه الضيقتين وقلت وانا اضع اصبعي على احدى الصور :

— هذه هي سانتيان ، اجمل قرية في اسبانيا .

— سانتيان جيل بلاس ؟ انني لم اكن أظنّ ان لها وجوداً حقيقياً . آه ! يا سيدي، كَم في حديثك من فائدة. ان المرء يرى جيداً انك قد سافرت حقاً .

صرفت العصامي ، بعد ان حشوت جيوبه بالبطاقات البريدية والصور والمنحوتات . وقد ذهب مسحوراً وأطفأت النور . وهأنذا الآن وحدي . لستُ وحدي تماماً . فما تزال هناك ايضاً هذه الفكرة ، تنتظر . ولقد تكوّرتْ ولبثت هناك كقطة كبيرة ؛ انها لا تشرح شيئاً ، وهي لا تتحرك وتكتفي بأن تقول لا . لا ، لم تحدث لي مغامرات .

وحشوت غليوني وأشعلته وتمدّدت على سريري وانا اضع معطفاً على

ساقيّ . ان ما يدهشني ، هو ان أحسّني حزيناً ومتعباً الى هذا الحدّ . فحتّى لو كان صحيحاً انه لم تحدث لي مغامرات ، فما عسى ذلك ان يؤثر عندي ؟ يخيّل اليّ اولاً انها قضية كلمات محض . قضية مكناس هذه مثلاً ، التي كنت افكر بها الساعة : لقد وثب عليّ مراكشي وأراد ان يضربني بمدية كبيرة ولكنّي قذفته بقبضة ادركته تحت صدغه ... واذ ذاك اخذ يصرخ باللغة العربية ، وسرعان ما برز عددٌ من القذرين لحقوا بنا حتّى سوق العطارين . ان بامكان الناس تسمية ذلك بالاسم الذي يروقهم ، ولكنه على كل حال حدثٌ قد «وقع لي» .

ان الظلام مطبق ، وانا لا ادري بعدُ جيداً اذا كان غليوني مشتعلاً . ومرّ ترام : لمعان احمر في السقف . ثم جاءت سيارة ثقيلة هزّت البيت . لا بدّ انها الساعة السادسة .

لم تحدث لي مغامرات . لقد وقعت لي حكايات وأحداث وما الى ذلك ، ولكن لا مغامرات . انها ليست قضية كلام ؛ لقد بدأت افهم . ان هناك شيئاً احرص عليه اكثر من أي شيء آخر – من غير ان انتبّه اليه تماماً . وهو لم يكن الحب ، ولله الحمد ، ولا المجد ، ولا الغنى . وانما كان ... على ايّ حال ، كنت قد تصورت ان حياتي يمكن في بعض الفترات ان تتخذ صفةً نادرة وثمينة . ولم تكن ثمة حاجة الى الظروف الاستثنائية : كل ما كنت اطلبه شيء من الدقة . ان حياتي الحاضرة ليس فيها ما هو لامع جداً : ولكن بين الفينة والفينة ، حين كانوا يعزفون الموسيقى مثلاً في المقاهي ، كنت أرتدّ الى خلف وأقول لنفسي : في الماضي ، عرفت وانا في لندن ، ومكناس ، وطوكيو ، لحظات رائعة ، وحدثت لي مغامرات . وهذا ما يُنتزع منّي الآن . وعلمت فجأة ، بلا سبب ظاهر ، انني كذبت على نفسي طوال عشرة اعوام . ان المغامرات هي في الكتب . وطبعاً ، كل ما يروى في الكتب يمكن ان يحدث حقاً ، ولكن لا بالطريقة نفسها . وانما كنت حريصاً على طريقة الحدوث هذه بالذات حرصاً شديداً .

وقد كان ينبغي اولاً ان تكون البداءات بداءات حقيقية. يا للحسرة ! انني أرى جيداً الآن ما كنت أريده . بداءات حقيقية ، تظهر كجرس بوق ، كالنغمات الاولى للحن جاز ، فجأة ، واضعة حداً للسأم ، مؤكدة الزمن ؛ من تلك الأمسيات التي يقال بعدها : «كنت أتنزه ، وكان ذلك في أمسية من نوار .» يتنزه المرء ، إذ يكون القمر قد أطل ، فها هو خال ، عاطل ، فارغ بعض الشيء . ثم يفكر دفعة واحدة : «لقد حدث شيء ما .» اي شيء : خشخشة خفيفة في العتمة ، طيف خفيف يعبر الشارع . ولكن هذا الحدث الضئيل لا يشبه الاحداث الاخرى . فنحن نلاحظ على التوّ أنه مقدمة لشكل كبير يضيع رسمه في الضباب ، ونقول في انفسنا كذلك : «إن شيئاً ما يبدأ.»

شيء ما يحدث لينتهي : ان المغامرة لا تسمح بأن توضع لها وُصلة ؛ فهي لا معنى لها الا بموتها . والى هذا الموت ، الذي ربما يصبح موتي انا ايضاً ، أراني مدفوعاً بلا عودة . وكل لحظة لا تظهر الا لتجر اللحظات التي تلي. وانا متعلق بكل لحظة من قلبي : انني اعرف انها فريدة ؛ غير قابلة للاستبدال – ومع ذلك ، فأنا لن اقوم بحركة لأمنعها من ان تتلاشى . فهذه الدقيقة الأخيرة التي أقضيها – في برلين ، في لندن – بين ذراعي هذه المرأة التي لقيتها عشية الامس – الدقيقة التي احبها بشغف ، والمرأة التي أوشك ان أحبها – سوف تنتهي ، وانا على يقين من ذلك . عما قليل ، سأقصد بلداً آخر ، ولن أجد ثانية هذه المرأة ، ولا تلك الليلة . انني أنحني على كل ثانية ، وأحاول أن أستنفدها ، لا يحدث شيء إلا وأدركه وأثبته في نفسي ، لا شيء ، لا الرقة الفارّة من هاتين العينين الجميلتين ، ولا صخب الشارع ، ولا الاشراق الكاذب للفجر : ومع ذلك فان الدقيقة تسيل ، وأنا لا ألتقطها ، وأحب ان تنقضي .

وفجأة ، بعد ذلك ، ينكسر شيء ما . لقد انتهت المغامرة ، ويستعيد الزمن رخاوته اليومية . والتفت ، فاذا بذلك الشكل الغنائي الجميل ، وراء ظهري ، يستغرق كلياً في الماضي . انه يتناقص ، وبتقلص إذ يميل ، حتى ان النهاية الآن

لا تشكل إلا كلاً واحداً مع البداءة . وأفكر وانا أتابع بعيني هذه النقطة الذهبية انني سأقبل – حتى ولو تعرضت للموت او لفقدان ثروة او صديق – ان أعيش ثانية كل شيء ، في الظروف نفسها ، من البدء الى النهاية . ولكن مغامرة ما لا تُعاد من جديد ولا تستطيل .

أجل ، هذا ما كنت أريده – وهذا للأسف ما لا ازال أريده . اني اشعر بسعادة كبيرة حين تغني زنجية : فأية ذرى لن ابلغهـــا إذا كانت « حياتي الخاصة » تكوّن مادة الغناء .

ان « الفكرة » ما تزال هنا ، الشيء الذي لا يسمّى . انها تنتظر ، في سكون . وهي تبدو الآن ، وكأنها تقول :

« ماذا ؟ « أهذا » ما كنت تريد ؟ الحق ان هذا هو ما لم تحصل عليه قط (أذكر انك كنت تخدع نفسك بالكلمات ، كنت تطلق اسم المغامرة على برق للسفر خُلّب ، وعلى غراميات الفتيات ، وعلى المنازعات ، وعلى الزجاجيات الملونة) وهذا ما لم تحصل عليه أبداً – ولا اي شخص آخر غيرك . »

ولكن لماذا ؟ « لماذا ؟ »

ظهر السبت

لم يرني العصامي داخلاً قاعة المطالعة . كان جالساً في أقصى الطاولة الداخلية وكان واضعاً امامه كتاباً ولكنه لم يكن يقرأ . كان ينظر باسماً الى جاره الأيمن ، وهو طالب قذر يقصد دار الكتب غالباً . وقد تركه الآخر يتأمله لحظة ، ثم مدّ له لسانه فجأة وهو يكشّر تكشيرة فظيعة . واحمرّ العصامي ، وأسرع يُغرق انفه في كتابه ويستغرق في قراءته .

وعدت الى الافكار التي راودتني بالأمس . وكنت جافاً تماماً : كان لديّ سواء ألاّ تكون قد حدثت لي مغامرات . وانما كان يأخذني الفضول لمعرفة ما « اذا لم يكن ممكناً » ان تحدث مغامرات .

وهذا ما فكرت به : لكي يصبح أتفه حدث مغامرة ، فيجب ويكفي ان يأخذ المرء بـ « سرده » وهذا ما يخدع الناس : إن الانسان هو دائماً سارد حكايات ، هو يعيش محاطاً بقصصه وقصص الآخرين ، وهو يرى عبرها كل ما يحدث له ؛ ويسعى لأن يعيش حياته كما لو أنه يحكيها .

ولكن لا بد من ان نختار : بين ان يعيش او ان يحكي . فأنا مثلاً حين كنت في هامبورغ مع « ايرنا » هذه التي كنت أحذرها والتي كانت تخافني ، كنت اعيش حياة غريبة.ولكني كنت في داخلها ، ولم أكن افكر فيها . وذات مساء ، في مقهى صغير بسان باولي ، تركتني قاصدة المغاسل . وبقيت وحدي ، وكان ثمة فونوغراف يغني « السماء الزرقاء » فأخذت أروي لنفسي ما حدث منذ إبحاري . وقلت لنفسي : « في المساء الثالث ، دخلت مرقصاً يُدعى «لاغروت بلو » ، فلاحظت امرأة طويلة نصف ثملة . وهـذه المرأة ، هي التي انتظرها في هذه اللحظة ، وأنا اسمع « السماء الزرقاء » ، وهي التي ستعود لتجلس الى يميني وتحيط عنقي بذراعيها . » وآنذاك ، أحسست بعنف انه كانت لي مغامرة . ولكن « ايرنا » عادت ، وجلست قربي ،وأحاطت عنقي بذراعيها ، فاحتقرتها من غير ان اعرف السبب حقاً . وانا الآن افهم : ذلك انه ينبغي العيش من جديد ، وان انطباع المغامرة قد تلاشى .

حين يعيش المرء ، لا يحدث شيء . كل ما في الأمر ان الديكورات تتغير وان الناس يدخلون ويخرجون . ليس ثمة بداءات قط . ان الايام تضاف الى الايام بلا وقع ولا سبب ، فهي عملية جمع رتيب لا ينتهي . وبين الفينة والفينة نرسم مجموعاً جزئياً ، فنقول : هذه ثلاثة اعوام سافرت فيها ، ثلاثة اعوام وانا في بوفيل . كذلك ليس ثمة من نهاية : ان المرء لا يغادر قط امرأة وصديقاً ومدينة مرة واحدة . ثم ان كل شيء متشابه: شنغهاي وموسكو ومدينة الجزائر. فبعد خمسة عشر يوماً ، يصبح كل شي متماثلاً . وتأتي لحظات – نادرة – يضع فيها المرء النقاط على الحروف ، فيلاحظ انه التصق بامرأة ، وغرق في حكاية قذرة . ولا يستغرق ذلك اكثر من لمع البرق . ثم يُستأنف العرض من

جديد ، ويعود المرء الى القيام بجمع الساعات والايام: الاثنين ، الثلاثاء ، الاربعاء . نيسان ، ايار ، حزيران . ١٩٢٤ ، ١٩٢٥ ، ١٩٢٦ .

هذا ، هو ان يعيش الانسان . أما حين يروي الحياة ، فان كل شيء يتغير ، غير انه تغير لا يلحظه احد : والدليل انه يتحدث عن قصص حقيقية . كما لو انه كان ممكناً ان تكون هناك قصص حقيقية ؛ ان الاحداث تقع في اتجاه ، ونحن نرويها في اتجاه معاكس . ويبدو علينا اننا نبدأ منذ البداءة : « حدث ذلك ذات مساء جميل من خريف ١٩٢٢ . وكنت آنذاك خادم كاتب عدل في مارمون . » والواقع اننا نكون قد بدأنا من النهاية . انها هنـــا ، غير مرئية وحاضرة ، وهي التي تمنح هذه الكلمات القليلة أبهة البداءة وقيمتها . « كنت أتنزّه ، وكنت قد خرجت من القرية من غير ان أتنبه ، وكنت أفكر في متاعبي المالية . » ان هذه العبارة ، اذا أُخذت على ظاهرها ببساطة ، تعني ان الرجل كان مستغرقاً ، ضجراً ، على بعد مئة ميل من المغامرة ، وهو بالضبط في ذلك النوع من المزاج الذي يدع للأحداث ان تمر من غير ان يراها . ولكن النهاية موجودة هناك ، وهي تغيّر كل شيء . ان الرجل ، بالنسبة إلينا ، قد أصبح بطل القصة . وضجره ومتاعبه المالية هي أثمن من ضجرنا ومتاعبنا ، انها مذهّبة تماماً بنور العواطف القادمة . وتمضي القصة بالمقلوب : لقد كفّت اللحظات عن ان تتراكم بعضها فوق البعض ، وهي مخطوفة خطفاً سريعاً بنهاية القصة التي تجذبها ، وكل واحدة تجذب بدورها اللحظة التي تسبقها : « كان الليـل هابطاً ، وكان الشارع مقفراً . » إن العبارة ملقاةٌ بإهمال ، وهي تبدو زائدة ؛ ولكننا لا ندع انفسنا تنخدع بها ، ونضعها جانباً : انها إرشاد سندرك قيمته فيما بعد . وإن لدينا الشعور بأن البطل قد عاش جميع تفاصيل هذه الليلة كأنها إرهاصات ، كأنها وعود ، او انه كان يعيش من التفاصيل ما كان وعوداً فحسب ، أعمى وأصمّ بالنسبة لكل ما لا يُرهص بالمغامرة . اننا ننسى ان المستقبل لم يكن بعدُ هناك ؛ ولقد كان الشخص يتنزّه في ليل بلا طلائع ، ليلٍ كان يمنحه ثرواته الرتيبة ممتزجة ، ولم يكن يختار .

لقد اردت ان تتتابع لحظات حياتي وتنتظم كلحظات حياة يتذكرها المرء . وكان هذا يعادل محاولة القبض على الزمن من ذنبه .

الاحد

كنت قد نسيت هذا الصباح ان اليوم يوم احد . ولقد خرجت ومضيت في الشوارع على مألوف العادة . وكنت قد حملت « اوجين غرانديه » . ثم شعرت فجأة ، بينما كنت ادفع حاجز الحديقة العامة ، ان شيئاً ما يومىء إليّ . كانت الحديقة مقفرة وعارية . ولكن ... كيف أعبّر ؟ لم يكن لها مظهرها العاديّ ، بل كانت تبتسم لي . وقد ظللت لحظة مستنداً الى الحاجز ، ثم فهمت فجأة ان اليوم كان يوم احد . وكان قائماً هناك على الشجر وعلى الاعشاب ، كبسمة خفيفة . وكان ذلك لا يمكن وصفه ، وكان يقتضي المرء ان يلفظ بسرعة : « انها حديقة عامة ، في الشتاء ، صباح يوم احد » .

وتركت الحاجز ، وانفتلت نحو البيوت والشوارع البورجوازية وقلت بصوت منخفض : « انه يوم الاحد » .

إنه يوم الاحد : فقد كان خلف احواض السفن ، على طول البحر ، بالقرب من محطة البضائع ، وحول المدينة كلها ، اكواخ فارغة وآلات جامدة في الظلام . وكان في جميع البيوت رجال يحلقون ذقونهم خلف نوافذهم ؛ ان رؤوسهم مقلوبة ، وهم يحدّقون احياناً في مراياهم وأحياناً اخرى في السماء الباردة ليعرفوا ان كانوا سينعمون بطقس جميل. وتفتح المواخير ابوابها لزبائنها الاولين ، من القرويين والجنود . وفي الكنائس ، على ضوء الشموع ، يشرب رجل الخمر امام نساء راكعات . في جميع الضواحي ، بين جدران المصانع التي لا تنتهي ، أخذت صفوف طويلة سوداء في السير ، متقدمة ببطء نحو وسط المدينة . وقد اتخذت الشوارع لاستقبالهم مظهرها الذي تتخذه في ايام الاضطراب : فقد اسدلت جميع المخازن ، باستثناء مخازن شارع «تورنوبريد»

ستائرها الحديدية . ولن تلبث الاعمدة السوداء ان تغشى في صمت هذه الشوارع التي تتمدد ميتة : فيأتي اولاً عمال سكك تورفيل ونساؤهم الذين يعملون في مصابن سان – سامفورين ، ثم صغار بورجوازيي جوكستوبوفيل ، ثم عمال مصانع بينو للغزل والنسيج ، ثم جميع حرَفيّي حي سان – ماكسانس ؛ اما رجال تياراش فسيكونون آخر الواصلين بترام الساعة الحادية عشرة . ولن يلبث جمع ايام الآحاد ان يولد بين المخازن والابواب المغلقة .

وتدقّ ساعةُ النصف بعد التاسعة فأبدأ المسير : ان بوسع المرء ان يرى في بوفيل ، في مثل هذه الساعة من يوم الاحد ، منظراً هاماً ، علـى ألاّ يصل متأخراً اكثر مما ينبغي عن ساعة الخروج من القداس الكبير .

ان شارع جوزفن – سولاري الصغير ميّت ، ومنه تنبعث رائحة كهف. ولكن ضجة ضخمة تملأه ، ضجة مد وجزر ، كجميع ايام الأحد . وأنعطف في شارع بريزيدان – شامار الذي تتألف بيوته من ثلاثة طوابق ذات شبابيك طويلة بيضاء . ان شارع كتّاب العدل هذا مأخوذٌ كلياً بصخب يوم الاحد الهائل . وتزداد الضجة في ممر « جيبيه » وانا اتعرف عليها : انها ضجة يُحدثها البشر . ثم يحدث فجأة، الى اليسار،ما يشبه انفجار ضوء وأصداء.لقد وصلت: هو ذا شارع تورنوبريد ، وليس لي إلا ان آخذ مكاني بين امثالي ، وسأرى السادة النبلاء يتبادلون التحية بالقبعات .

منذ ستين سنة فحسب ، لم يكن احد ليجرؤ علـى التنبؤ بمصير شارع تورنوبريد العجائبي ، هذا الشارع الذي يطلق عليه سكان بوفيل اليوم اسم « البرادو الصغير » . ولقد رأيت خارطة ترجع الى عام ١٨٤٧ لم يكن هـذا الشارع حتى ماثلاً فيها. ولا بد انه كان آنذاك زقاقاً منتناً أسود ذا ساقية تجحف بمجراها بين البلاط رؤوس السمك وأمعاءه . ولكن « المجلس القومي » اعلن في آخر عام ١٨٧٣ ان من المصلحة العامة بناء كنيسة على تلة مونتمارتر . وبعد أشهر قليلة ، حدث تجلٍ لامرأة مختار بوفيل : لقد جاءت سيدتها القديسة سيسيل تقدم لها نصائح . أكان من المحتمل ان تتوحل النخبة كل يوم احد

لتقصد كنيسة سان – رونيه او كنيسة سان – كلوديان من اجل ان تحضر القدّاس مع الباعة ؟ ألم يسبق « للجمعية الوطنية » ان ضربت المثل ؟ ان بوفيل تتمتع الآن ، بفضل حماية السماء ، بمركز اقتصادي من الطراز الاول ؛ أليس من الملائم بناء كنيسة حمداً للرب ؟

وقُبلت هذه الرؤى : فعقد المجلس البلدي جلسة تاريخية ، وقبل الأسقف ان يجمع التبرعات . وبقي اختيار المكان . وكان رأي أُسر التجار ومتعهدي المراكب ان يُقام البناء على قمة « التلة الخضراء » ، حيث كانت تقيم هذه الأسر ، « لتسهر القديسة سانت – سيسيل على بوفيل ، كما يسهر « قلب يسوع المقدس » على باريس » . وغضب سادة جادة « ماريتيم » الجدد : إنهم على استعداد لاعطاء كل ما يلزم ، شريطة ان تبنى الكنيسة في ساحة مارينيان؛ فهم إن كانوا يدفعون للكنيسة ، فانما يقصدون الافادة منها ؛ وهم لم يغضبوا لإشعار هذه البورجوازية المتغطرسة التي كانت تعاملهم على انهم حديثو النعمة – لم يغضبوا لإشعارها بقوتهم ، واقترح الاسقف تسوية : فبنيت الكنيسة في منتصف الطريق بين « التلة الخضراء » وجادة « ماريتيم » في ساحة « هال – او – مورو » التي عُمّدت ساحه « سانت – سيسيل – دولامير . » وهذا البناء الضخم الذي انتهى عام ١٨٨٦ ، كلّف اربعة عشر مليوناً على الاقل .

ولا بد ان شارع تورنوبريد الواسع ، على قذارته وسوء سمعته ، أعيد بناؤه من جديد ، ودُفع سكانه بقوة وراء ساحة سانت سيسيل ؛ وأصبح « البرادو الصغير » – ولا سيما صباح الاحد – ملتقى الأنيقين والأعيان. وفتحت المخازن واحداً فواحداً على ممر النخبة . وهي تبقى مفتوحة اثنين الفصح، وطوال ليلة الميلاد ، وكل يوم احد حتى الظهر . والى جانب «جوليان» المشهور بمعجّناته الحارّة ، يعرض « فولون » بائع الحلوى مصنوعاته العظيمة الخاصة من حلوى « البوتي فور » ذات الشكل المخروطيّ بالزبدة البنفسجية التي تعلوها بنفسجة من السكر . وفي واجهة مكتبة « دوباتي »

تُرى آخر منشورات « بلون » ، وبعض المؤلفات التكنيكية ، من مثل نظرية عن « السفينة » او دراسة عن « الأشرعة » ، او تاريخ كبير مصوّر لمدينة بوفيل ، ومطبوعات فاخرة معروضة بأناقة مثل « كونيغسمارك » المجلّد بجلد أزرق ، و « كتاب اولادي » لبول دومير ، المجلد بجلد اصفر مع زهور أرجوانية . وهناك غيسلين « خياطة رفيعة ، موديلات باريسية » الذي يفصل بياجو بائع الزهور عن باكين بائع الأثريات . ويحتل المزين غوستاف ، الذي يستعمل اربعة فنيين ، الطابق الأول من بناية جديدة مطلية بالأصفر .

منذ عامين ، كان حانوت صغير جريء ، يقوم عند زاوية ممر « مولين — جيمو » وشارع تورنوبريد ، ما يزال يعرض اعلاناً عن « تو — بو — نيه » المبيد للحشرات . وكان الحانوت قد ازدهر ، اذ كانوا ينادون على السمك في ساحة سان سيبيل ، وكان قد بلغ آنذاك مئة سنة من عمره . وكان نادراً ما يغسلون زجاج واجهته : من اجل هذا ، كان لا بد من بذل الجهد لكي يميّز المرء ، عبر الغبار والبخار ، جمعاً من الاشخاص الشمعية الصغيرة التي أُلبست ثياباً قصيرة ذات لون ناريّ ، تمثل جرذاناً وفئراناً . وكانت هذه الحيوانات تغادر سفينة حربية وهي تستند الى القصب ؛ وما تكاد تمسّ الارض حتى تقبل فلاحة ترتدي ثياباً أنيقة ، ولكنها قد اسودّت من الأقذار ، فتحملها على الهرب حين تلقي عليها مبيد الحشرات . وقد كنت أحب هذا الحانوت كثيراً ، وكان له منظر وقح وعنيد ، وكان يذكّر في قحة بحقوق الدود والقذارة ، على بعد خطوتين من اغلى كنائس فرنسا كلفة .

ولقد ماتت العقاقيرية العجوز في العام الماضي وباع حفيدها البيت . وقد كان كافياً هدم بعض الجدران : فاذا هي الآن قاعة صغيرة للمحاضرات باسم « لابونبونير » وقد اعطى فيها هنري بوردو ، في العام الماضي ، حديثاً عن تسلق الجبال .

وفي شارع تورنوبريد ، ينبغي على المرء ألا يكون عجلاً : إن الأُسر تمشي ببطء . ويربح المرء احياناً صفاً من الصفوف حين تدخل أسرة برمتها

حانوت فولون او بياجوا . ولكن ينبغي له في فترات اخرى ان يقف حين تلتقي أسرتان تنتمي احداهما الى الصف الصاعد ، والاخرى الى الصف الهابط ، فتتشابكان بالايدي تشابكاً صلباً. وأتقدّم بخطى صغيرة ، فأشرف على الصفّين برأسي وأرى قبعات ، بحراً من القبعات . واكثرها سوداء قاسية . وبين الفينة والفينة تُرى احداها وهي تطير بطرف ذراع كاشفةً التماع صلعة رقيقاً ، وبعد لحظات ، تحطّ على الرأس ، في طيران ثقيل . وفي الرقم ١٦ من شارع تورنوبريد ، علّق « اوربان » بائع القبعات ، الاخصائي في قبعة « الكيبي » ، قبعة كبيرة لأسقف ، كأنها الرمز ، تتدلى طررها الذهبية على بعد مترين من الأرض .

ويتوقّف الجمع : واذا بفريق يتجمّع تحت الطرر تماماً . وينتظر جاري ، من غير نفاد صبر ، متدلي الذراعين : وأنا اعتقد جيداً ان هذا العجوز القصير المتقع الخرّع كالبورسلين ، انما هو « كوفييه » ، رئيس غرفة التجارة . ويبدو مخوّفاً جداً لفرط اعتصامه بالصمت.وهو يسكن في قمة « التلة الخضراء» بيتاً كبيراً قرميدي السقف ، تظلّ نوافذه مشرعة ابداً . ثم ينتهي الأمر : فقد انفرط الجمع وعاد الى السير . وتشكّل جمع آخر ، ولكنه احتل مكاناً اصغر : فما كاد يتشكّل حتى اندفع الى واجهة غيسين . على ان الصفّ لم يتوقّف ، وانما هو ينحرف انحرافاً يسيراً ، ونُلِمّ بسنة اشخاص متماسكي الأيدي : « صباح الخير ، يا سيدي ، صباح الخير يا سيدي العزيز ، كيف الحال ، ولكن تغطّ جيداً يا سيدي ، فانك ستُصاب بالبرد ، شكراً يا سيدتي ، ان الطقس ليس حاراً . يا عزيزتي . أقدّم لك الدكتور لوفرنسوا ، انا سعيدة جداً يا دكتور بالتعرّف اليك ، ان زوجي يحدثني دائماً عن الدكتور لوفرنسوا الذي عالجه معالجة ممتازة ، ولكن تغطّ جيداً يا دكتور ، فانك قد تصاب بأذى في هذا البرد . ولكن الدكتور يشفى بسرعة ، أسفاً يا سيدتي ، انما الاطباء هم اقل الناس عناية بأنفسهم . ان الدكتور موسيقيّ مرموق. اوه ، يا دكتور ، لم اكن أعرف ذلك ، هل تعزف على الكمان ؟ ان الدكتور ذو موهبة غنية » .

اكيد" ان العجوز القصير الواقف جانباً هو « كوفييه » ، ان هناك في نساء الجمع واحدة ، هي السمراء ، تأكله بعينيها ، فيما هي تبتدم جهة الدكتور ويبدو انها تفكر : « هوذا السيد كوفييه لا يتنازل لرؤية شيء : ان هؤلاء اناس من جادة « ماريتيم » ، فهم ليسوا من علية القوم . فمنذ العهد الذي اجيء فيه الى هذا الشارع لأرى تبادل التحية بالقبعات يوم الأحد ، تعلـّمت ان اميّز اناس الجادة ، من اناس « التلة » . فحين يرتدي شخص" معطفاً جديداً ، ولبادة طرية ، وقيصاً باهراً ، ويتخذ المظاهر المختلفة ، فليس ثمة مجال للانخداع بشأنه : انه واحد من جادة ماريتيم . اما رجال « التلة الخضراء » فيتميـّزون بما لا ادريه مما يوحي بالشفقة والهبوط . ان لهم كتفين ضيقتين وهيئة قحة على وجوه بالية . وأنا اراهن ان هذا السيد الكبير الذي يمسك بيد غلام ، انما هو من « التلة » . ان وجهه رمادي تماماً وربطة عنقه معقودة كأنها الخيط .

ويقترب الرجل السمين منا ، فينظر محدّقاً بالسيد كوفييه . ولكنه قبل ان يلتقي به ، يلفت رأسه ويأخذ في مزاح ابوي" مع صبيه الصغير . ويقوم ببضع خطى اخرى ، منحنياً فوق ابنه ، وعيناه غارقتان في عينيه ، فلا يبدو الا" أباً : ثم يلتفت فجأة نحونا ، فيلقي على العجوز القصير نظرة حية ، ويرسم تحية واسعة وجافة بدورة من ذراعه . ولم يكشف الصغير عن نفسه ؛ رغم حريته : فتلك قضية بين الأشخاص الكبار .

وعند زاوية شارع « باس-دو - في » يصطدم صفـّنا بصف" من المؤمنين يخرجون من القداس ، فيتصادم عشرة اشخاص ويتبادلون التحية وهم يدو"مون ، ولكن" حركات القبعات تمضي اسرع من ان تستطيع تفصيلها : وفوق هذا الجمع الضخم الشاحب ، تنتصب كنيسة سانت سيسيل كتلتها الشيطانية البيضاء : بياض طبشوري على سماء معتمة ؛ وخلف هذه الجدران الساطعة ، تـُمسك بين جوانبها قليلاً" من سواد الليل . ونعود الى السير ، وقد تغيـّر النظام بعض الشيء . وكان السيد كوفييه قد دُفع حتى غدا ورائي . والتصقت بجنبي الأيسر امرأة ترتدي ثوباً كحلياً ، وهي قادمة من القداس . انها تطرف بعينيها ، وهي مبهورة

بعض الشيء بالعودة الى نور الصباح. وهذا السيد الذي يمشي أمامها وله رقبة هزيلة جداً، هو زوجها.

وكان على الرصيف الآخر رجل يمسك امرأته من ذراعها، وقد همس لها ببضع كلمات في أذنها وأخذ يبتسم. وسرعان ما جرّدت سحنتها المائعة من كل تعبير وخطت بضع خطى عمياء. ان هذه العلامات لا تخدع: فلا شك في انهما سيحيّيان. وبالفعل، لم تمض لحظة حتى قذف السيد يده في الهواء، حتى اذا اصبحت اصابعه على حدود لبّادته، تردّدت لحظة قبل ان تحطّ على القبّعة. وفيما كان يرفعها بعذوبة، وهو يخفض رأسه قليلاً ليساعد على نزعها، قامت زوجته بقفزة قصيرة وهي ترسم على وجهها بسمة نضرة. وتجاوزهما طيف وهو ينحني: ولكن بسمتيهما التوأمين لم تمّحيا على الفور، بل ظلتا بضع لحظات على شفتيهما، في شيء من الارتعاش. وحين التقى السيد والسيدة بي، كانا قد استعادا جمودهما، ولكن بقيت لها هيئة مرح حول الفم.

وانتهى الأمر: ان الجمع اقلّ كثافة، وحركات القبعات اصبحت نادرة وواجهات المخازن تبدو اقلّ جاذبيّة؛ انني في اقصى شارع تورنوبريد. اترانيسأعبر الشارع وأصعد علىالرصيف الآخر؟ احسبانني اكتشفت،فحسبي ما رأيته من هذه الصلعات الوردية، وهذه السحن الدقيقة، المحوّة، المتميّزة. سأعبر ساحة مارينيان. واذ كنت انزع نفسي بحيطة من الصفّ انبثق بالقرب مني رأس سيد حقيقي من قبعة سوداء. انه زوج السيدة ذات الثوب الكحلي. آه، يا لجمال صلعة الوجه الطويل، المزروعة بشعر قصير قاس، ويا للشارب الاميركي الجميل الذي انبثّت فيه خيوط فضيّة. ولا سيما البسمة، البسمة الرائعة المدروسة. وهناك نظارة ايضاً، في مكانٍ ما من الأنف.

وكان يلتفت الى زوجته ويقول لها:

— انه رسّام جديد في المصنع. وأنا أتساءل عمّا عساه يفعل هنا. انه صبي صغير طيب، خجول، وهو يسلّيني.

وكان الرسام الشاب الذي اعاد قبعته الى رأسه، ازاء زجاج اللحام جوليان، ما يزال متورداً، خافض العينين عنيد الهيئة، يحتفظ بجميع مظاهر الشهوة العنيفة انه بلا شك يوم الأحد الاول الذي يجرؤ فيه على عبور شارع تورنوبريد وهو يبدو كمن يتناول للمرة الاولى. فقد شبك يديه خلف ظهره وأدار وجهه نحو الواجهة بهيئة حشمة مثيرة تماماً؛ وهو ينظر من غير ان يرى الى اربعة امعاء لامعة تتفتح على تابلها من البقدونس.

وخرجت امرأة من حانوت اللحام فأمسكت بذراعه. انها امرأته، وهي نضرة صبية بالرغم من جلدها المتآكل. وهي تستطيع ان تتمشى في اطراف شارع تورنوبريد، ولن يعتبرها احد سيدة؛ فان لمعان عينيها الوقح وهيئتها العاقلة الرصينة تخونانها. ان السيدات الحقيقيات لا يعرفن ثمن الأشياء، وهن يحببن الاعمال الجنونية الجميلة؛ وعيونهن هي زهور جميلة طاهرة، زهور متفتحة قبل الأوان.

وحين آذنت الساعة الواحدة وصلت الى مطعم فيزليز. ان المسنين هناك، على مألوف العادة. وقد بدأ اثنان منهم في تناول الطعام. وهناك اربعة يلعبون الورق وهم يتناولون المقبّل. اما الآخرون فواقفون ينظرون الى لعبهم بينما يُعدّ لهم الطعام. ان اكبرهم؛ وهو ذو لحية طويلة، وكيل صرافة؛ وهناك آخر، مفوض متقاعد في «التسجيل» البحري. انهم يأكلون ويشربون كما لو انهم في العشرين؛ وهم يأكلون الكرنب يوم الأحد. اما آخر الواصلين، فينادون الآخرين الذين بدأوا طعامهم.

– واذن؟ انه دائماً الكرنب الربّاني؟

ويجلسون وهم يتنهّدون رضى.

– صغيرتي ماريبيت، نصف قدح بيرة، وصحن كرنب.

وماريبيت هذه فتاة نشيطة. وفيما كنت اجلس على طاولة، في الداخل، أخذ عجوز محمرّ الوجه يسعل من الغضب بينما كانت تصبّ له قدح فرموت، وقال وهو يسعل:

– عجباً ! صبّي المزيد منه .

ولكنها غضبت بدورها : فانها لم تكن قد انتهت من الصبّ :

– ولكن دعني اصبّ ، من الذي يقول لك شيئاً ؟ انك تشبه الشخص الذي يُزعج نفسه قبل ان يتحدث اليه احد .

فأخذ الآخرون يضحكون .

– لقد أصبت الهدف ؟

وحين اتجه وكيل الصرافة للجلوس ، اخذ ماريبيت من كتفها :

– اليوم هو الأحد يا ماريبيت . فهل تذهبين الى السينما بعد الظهر مع صديقك الصغير ؟

– ... آه ، نعم ، انه يوم انطوانيت . اما بشأن الصديق الصغير ، فأنا الذي انحمّل النهار .

وجلس وكيل الصرافة ، تجاه عجوز حليق الذقن ، ذي مظهر شقيّ . ولم يلبث العجوز الحليق ان بدأ قصة حيّة . ولم يكن وكيل الصرافة يصغي اليه : بل كان يكشّر ويشدّ على لحيته . انهما لا يصغيان الى بعضهما ابداً .

وأتعرّف على جاريّ . انه تاجر صغير من الجوار بصحبة زوجته ؛ ويوم الأحد ، تأخذ خادمتها اذنها ، فيقصدان هما المطعم ، ويجلسان دائماً الى الطاولة نفسها . ان الزوج يأكل قطعة وردية من لحم البقر ، وهو ينظر اليها عن كثب وينخر بين الفينة والفينة . اما الزوجة فتحدث حركات بطيئة في صحنها . انها شقراء قوية في الأربعين من عمرها ذات خدين احمرين قطنيّين ، ولها نهدان جميلان قاسيان تحت قميصها من الساتان . وهي تشرق ، كالرجال ، زجاجة خمرها الاحمر في كل وجبة .

سأقرأ « اوجيني غرانديه » ؛ وليس السبب اني اصيب في قراءتها متعة ، وانما لا بدّ من أعمل شيئاً ما . وأفتح الكتاب اتفاقاً : فاذا الأم والابنة تتحدّثان عن حبّ اوجيني الوليد :

« وقبّلت اوجيني يدها وهي تقول :

– كم انت طيبة يا أمي الحبيبة ؟

وجعلت هذه الكلمات وجه الأم الذي أذبلته آلام طويلة يشعّ إشعاعاً .

وسألت اوجيني :

– هل تجدينه مناسباً ؟

فلم تجب الأم غرانديه بغير بسمة ، ثم قالت ، بعد لحظة صمت ، بصوت منخفض :

– اتراك قد احببته ؟ ان ذلك سيكون سيئاً .

قالت اوجيني : – سيئاً ، لماذا ؟ انه يروق لك ، ويروق لنانون ، فلماذا لا يروق لي ؟ هيّا يا ماما ، لنهيىء مائدة غدائه .

وألقت بما بين يديها من عمل ، وكذلك فعلت امها وهي تقول لها :

– انك مجنونة !

ولكن لذّ لها ان تبرّر جنون ابنتها بان تشاطرها اياه .

ونادت اوجيني نانون :

– نعم ، ماذا تريدين ايضاً يا آنسة ؟

– نانون ، أيكون عندك قشدة ، عند الظهر ؟

فأجابت الخادم العجوز :

– عند الظهر ، نعم .

– حسناً ، إمزجيها بكثير من القهوة ، فقد سمعت من تحدّث السيد ديغراسين ان القهوة توضع بكثرة في باريس . فأكثري منها .

– ومن اين تريدين ان آتي بها ؟

– اشتريها .

– واذا التقى بي السيّد ؟

– انه في حقوله ... »

كان جاري وزوجته قد بقيا صامتين منذ وصولي . ولكن صوت الزوج انتزعني فجأة من قراءتي ، اذ قال بلهجة غامضة مرحة :

ــ قولي ، هل رأيت ؟

فانتفضت المرأة ونظرت اليه ، خارجةً من حلم . وظلّ يأكل ويشرب ، ثم استطرد باللهجة الخبيثة نفسها :

ــ ها ! ها !

وساد صمت ، وعادت المرأة فسقطت في حلمها . ثم ارتعشت فجأة وسألت :

ــ ماذا تقول ؟

ــ سوزان بالأمس .

قالت المرأة : ــ آه نعم ! لقد ذهبت لمقابلة فكتور .

ــ ما الذي كنت قد قلته لك ؟

ودفعت المرأة صحنها بهيئة من فقد صبره :

ــ انه طعام رديء .

وكانت اطراف صحنها ملأى بأكرٍ من اللحم الرمادي الذي لفظته .

وتابع الزوج فكرته :

ــ تلك المرأة القصيرة هناك ...

وصمت وهو يبتسم بغموض . وكان وكيل الصرافة تجاهنا يلامس ذراع ماريبيت وهو يلهث قليلاً . وبعد لحظة :

ــ سبق ان قلت لك ذلك ، منذ ايام .

ــ ما الذي قلته لي ؟

ــ انها ستذهب لمقابلة فيكتور .

ثم سأل فجأة بلهجة مذعورة :

ــ ماذا هناك ؟ الا تحبين هذا ؟

ــ إنه طعام رديء .

فقال في اهمية :

– ليس الأمر بعدُ كما كان في عهد هيكار . أتعرفين أين هو ، هيكار ؟
– أليس هو في دومريمي ؟
– بلى ، بلى ؛ من قال لك ذلك ؟
– انت ، قلته لي يوم الأحد .
وأكلت كسرة خبز كانت ملقاةً على خوان الورق . ثم قالت وهي تُملّس بيدها الورق على حافة الطاولة ، مترددة :
– أتعرف انك مخطىء ؟ ان سوزان اكبُر ...
فأجاب في شرود :
– هذا ممكن ، ممكن جداً يا صغيرتي :
وبحث بعينيه عن ماربيت ، ثم اومأ لها .
– ان الطقس حار .
واستندت ماربيت بألفة على حافة الطاولة . فقالت المرأة وهي تئن :
– اوه ! نعم ، الطقس حارّ . ان المرء ليختنق هنا ، ثم ان لحم البقر رديء ، وسأبلغ المعلّم ذلك ، لقد تغيرت الحال . افتحي قليلاً كوّة الباب ، يا صغيرتي ماربيت .
واستعاد الزوج هيئته المرحة :
– ولكن ألم تريْ عينيها ؟
– ولكن متى يا عزيزي ؟
فقلّدها بنفاد صبر :
– ولكن متى يا عزيزي؟ انت لا تتغيرين : في الصيف ، حين يهطل الثلج .
– تقصد أمس ؟ آه ، حسناً !
وضحك ، ونظر الى البعيد ، ثم قال بسرعة ، في شيء من الجهد :
– عينا قطّة تغوّط في الرماد .
وبدا من شدة الرضى بحيث نسي ما كان يودّ ان يقول . وأخذها المرح بدورها ، من غير فكرة مسبّقة :

ـ ها ! ها ! يا لك من خبيث كبير !

ووجهت الى كتفه ضربات صغيرة :

ـ يا لك من خبيث كبير ! يا لك من خبيث كبير !

فردّد في مزيد من الثقة :

ـ ... قطة تغوّط في الرماد .

ولكنها كفّت عن الضحك :

ـ كلا ، انها حقاً رصينة .

وانحنى فهمس في أذنها حكاية طويلة . ونظرت لحظة فاغرة الفم ، متوترة الوجه ، جذلة ، كمن يوشك ان ينفجر ضاحكاً ، ثم ارتدّت فجأة الى خلف وخمشت يديه قائلة :

ـ هذا غير صحيح ، هذا غير صحيح .

وقال بلهجة متعقّلة رصينة :

ـ أصغي إليّ يا صغيرتي ، ما دام قد قالها : فلو لم يكن ذلك صحيحاً ، فلماذا تراه قد قالها ؟

ـ لا ، لا .

ـ ولكن ما دام قد قالها : إسمعي ، إفرضي ...

فأخذت تضحك :

ـ أضحك لأنني فكرت في ربنه .

ـ نعم .

وضحك هو ايضاً . واستطردت بصوت منخفض ينم عن الأهمية :

ـ إنه اذن لاحظ الأمر يوم الثلاثاء .

ـ بل يوم الخميس .

ـ كلا ، بل الثلاثاء ، انت تعلم بسبب ...

ورسمت في الجو شكلاً اهليلجياً ، ثم ساد الصمت . وغمس الزوج كسرة خبز في مرقه ، وغيّرت ماريييت الصحون وحملت لها الحلوى . عما قليل ،

سآخذ انا ايضاً قطعة حلوى . وفجأة أرسلت المرأة وهي في وضع حالم ، وعلى شفتيها بسمة اعتزاز لا تخلو من دهشة ، صوتاً ممطوطاً :

– اوه ، كلا ، انت تعلم !

وكان في صوتها قدر كبير من الشهوانية ، حتى انه انفعل ولامس رقبتها بيده السمينة . وتمتمت وهي تبتسم ، وفمها ممتلىء :

– كفى يا شارل ، اصمت ، انك تثيرني يا حبيبي .

وحاولت ان استأنف قراءتي :

« – ومن اين تريدين ان آتي بها ؟

– اشتريها .

– واذا التقى بي السيد ؟ »

ولكني ظللت اسمع المرأة تقول :

– اسمعي يا مارت ، انني سأضحكها : سأروي لها ...

ثم سكت جاري وزوجته . وأعطتهما ماربيت ، بعد الحلوى ، خوخاً ، فانشغلت المرأة كل الانشغال بأن اخذت تبيض النوى ، برشاقة ، في ملعقتها. وكان الزوج ، وعينه في السقف ، يوقّع على الطاولة لحناً عسكرياً . فكأن من يراهما يعتقد ان حالتهما الطبيعية هي الصمت ، وان الكلام حمّى صغيرة تنتابهما احياناً .

« – ومن اين تريدين ان آتي بها ؟

« – اشتريها . »

وأغلقت الكتاب ، ومضيت لأتنزه .

وحين خرجت من مطعم فيزاليز ، كانت الساعة تقارب الثالثة ؛ وكنت أحسّ بعد الظهر في كل جسمي المثقل . لا بعد ظهري انا : وانما بعد ظهرهم هم ، ذلك الذي سيعيشه مئة الف من سكان بوفيل بطريقة مشتركة . انهم في هذه الساعة نفسها ، بعد غداء الأحد اللذيذ الطويل ، ينهضون عن الطاولة ، وقد مات شيء ما في نظرهم . إن يوم الأحد قد أتلف شبابه الخفيف . ويجب هضم

الفروج والحلوى ، وارتداء الثياب للخروج .

وكان جرس سينما الدورادو يُصدي في الهواء الطلق . انها ضجة يوم الأحد المألوفة ، هذا الجرس في وضح النهار . وكان اكثر من مئة شخص واقفين في الصف ، بإزاء الجدار الطويل الاخضر . وكانوا ينتظرون بنهم ساعة الظلمات اللذيذة ، ساعة الاسترخاء والاستسلام ، الساعة التي تلتمع فيها الشاشة كأنها حصاة بيضاء تحت الماء ، ثم تحكي وتحلُمُ لهم . وانها لرغبة غير مجدية : ان شيئاً ما فيهم سيظل منقبضاً ؛ انهم خائفون اكثر مما ينبغي ان يُفسد يوم اجدهم . وسيصابون ، عما قليل ، بالخيبة ، كما يحدث كل احد : سيكون الفيلم سخيفاً ، او سيدخّن جارهم الغليون ويبصق بين ركبتيه ، او سيكون لوسيان مزعجاً جداً ، إذ انه لن يملك كلمة لطيفة يقولها ، او ان وجعهم بين الأضلاع سيعاودهم اليوم ، اليوم بالذات ، حين قرروا ان يقصدوا السينما . وستنبعث في القاعة المظلمة ، عما قليل ، ألوان صغيرة من الغضب الاصم المتنامي .

ووصلت سيري في شارع بريسان الهادىء وكانت الشمس قد بدّدت السحب وصفا الجو . وخرجت أسرةٌ من مقصورة « لافاغ » وكانت الفتاة تزرّر قفازيها على الرصيف ، وكانت في حدود الثلاثين من عمرها . أما الأم ، فقد كانت مزروعة على الدرجة الاولى من السلّم ، تنظر امامها باستقامة ، وهي تتنفس تنفساً عريضاً ، بهيئة مطمئنة . ولم اكن ارى من الاب إلا الظهر الهائل . كان منحنياً على القفل ، يُغلق الباب بالمفتاح . إن البيت سيبقى خالياً مظلماً حتى عودتهم . وفي البيوت المجاورة ، المغلقة المقفرة ، كان الاثاث والارض الخشبية قد بدآ يطقطقان على مهل . وكان السكان ، قبل ان يخرجوا ، قد اطفأوا النار في موقد غرفة الطعام . ولحق الأب بالمرأتين ، وأخذت الأسرة في السير ، من غير كلام . اين تراهم ذاهبين ؟ ان الناس يقصدون يوم الأحد المقبرة الضخمة ، او يزورون أقارب لهم ، او انهم يقصدون « لاغيتيه » للتنزه ، اذا كانوا احراراً تماماً . وكنت حراً : وقد واصلت سيري في شارع

بريسان الذي يفضي الى متنزّه « لاغيتيه » .

وكانت السماء ذات زرقة شاحبة : بعض دخــان ، وبعد طير البلشون ؛ وبين الفينة والفينة تنحرف سحابة فتمر أمام الشمس . وكنت أرى في البعيد سياج الاسمنت الابيض الذي يعدو عــلى طول متنزه « لاغيتيه » وكان البحر يلتمع عبر الفتحات . وسلكت الاسرة ، الى اليمين ، شارع «امونية – هيلار» الذي يصعد الى « التلة الخضراء » . وقد رأيتهم يصعدون بخطى بطيئة ، فيشكلون ثلاث لطخات سوداء عــلى النّاع الاسفلت . وانعطفت الى اليسار ، فدلفت في الجمع الذي كان يسير على حافة البحر .

وكان الجمع اكثر اختلاطاً من الصباح . وكان يبدو ان جميع هؤلاء الناس لم يملكوا القوة للمحافظة على ذلك التدرج الاجتماعي الجميل الذي كانوا ، قبل الغداء ، فخورين به كل الفخر. كان التجار والموظفون يسيرون جنباً الى جنب؛ وكانوا يدّعون لأنفسهم ان يلامسهم بالمرافق ، بل ان يصدمهم ويدفعهم، عمالٌ صغار ذوو سِحَن بائسة . وهكذا كانت الارستوقراطيات ، والنخب، والفرق المهنية ، قد ذابت في هذا الجمع الدافىء . وكان يبقى ثمّة أناس شبه متوحّدين ، قد كفّوا عن ان يمثّلوا .

مستنقع نور في البعيد ، ذلك هو البحر في حالة الجزر . وكان بعض صخور مزدهرة تثقب برؤوسها هذا السطح المنير . وعلى الرمل كانت قوارب صيد منبطحة ، غير بعيد عن المكعّبات الحجرية الدبقة التي قُذفت في غير انتظام على الرصيف لتحميه من الامواج ، وكانت تدع فيما بينها ثقوباً مليئة بالصخب. وعنــد مدخل المرفأ ، كانت مجرفة للرمل تلقي ظلّها على السماء التي بيضتها الشمس . انها تهدر كل مساء ، حتى منتصف الليل ، وتجرف ألواناً مختلفة من الاشياء . اما يوم الأحد ، فان العمال يتنزهون على الارض، وليس ثمة إلا حارس على الشاطىء : وهكذا تصمت المجرفة .

كانت الشمس صافية وشفافة الضوء : خمرة بيضاء . وكان نورها لا يكاد يلامس الأجسام . ولا يمنحهــا ظلالاً ولا بروزاً : فكانت الوجوه والأيدي

تحدث لطخات ذهبية شاحبة. كان جميع أولئك الرجال في معاطفهم يبدون وهم يعومون ببطء على بضع بوصات من الارض. وبين الفينة والفينة، كانت الريح تدفع الينا أشباحاً ترتجف كأنها الماء؛ وكانت الوجوه تنطفيء لحظة وتصبح طبشورية.

ذلك كان يوم الأحد؛ كان الجمع محشوراً بين السياج ومداخل المقاصير، يتدفق موجات صغيرة، ليذهب فيضيع في ألف مجرى خلف فندق شركة الترانساطلنطيك. وما اكثر الاولاد! اولاد في العربات، وبين الأذرع، وبالأيدي، وهم يسيرون مثنى وثلاث، امام ذويهم، بهيئة متكيفة الوقار: كنت قد رأيت جميع هذه الوجوه، قبل ذلك بساعات، في ظاهر من الانتصار، في شباب صباح احد. اما الآن، فهي تسيل شمساً، ولا تعبّر بعدُ إلا عن السكون والارتخاء، وعن لون من العناد.

قليل من الحركة: صحيح.ان ثمة بعدُ تلويحات بالقبعات، ولكنها خالية من فخامة الصباح ومن مرحه العصبي. كان الناس يستسلمون للتقهقر قليلاً، مرفوعي الرأس، بعيدي النظر، متروكين للريح التي كانت تدفعهم نافخةً معاطفهم. وتنبعث بين الفينة والفينة ضحكة جافة، سرعان ما تُخنق؛ صيحة ام، جانو، جانو، هل تريد أن. ثم يعود الصمت. رائحة تبغ أشقر خفيفة: انهم المستخدمون الذين يدخنون. سلامبو، عائشة، سكاير يوم الاحد. وقد حسبتني اقرأ، على بعض الوجوه الاكثر استسلاماً، شيئاً من الأسى: ولكن لا، ان هؤلاء الاشخاص لم يكونوا حزينين ولا مرحين: وانما كانوا يستريحون. وكانت عيونهم الثابتة والمفتوحة على سعتها تعكس البحر والسماء، في غير ما حركة. انهم سيعودون عما قليل الى بيوتهم، فيشربون فنجان شاي، مع أفراد العائلة، على طاولة غرفة الطعام. اما الآن، فانهم كانوا يريدون ان يعيشوا بأقل كلفة ممكنة، وان يقتصدوا الحركات، والكلمات، والافكار، ان يسبحوا متمدّدين على ظهورهم: انهم لم يكونوا يملكون الا يوماً واحداً ليمحوا تجعّداتهم، ومظهر ايديهم المفلطحة، والثنيات

المرة التي يخلّفها جهد الاسبوع . يوم واحد . كانوا يشعرون بالدقائق تسيل من بين أصابعهم ، أتراهم سيتاح لهم الوقت لكي يجمعوا من الشباب ما فيه الكفاية حتى ينطلقوا من جديد صباح الاثنين ؟ كانوا يتنفسون بملء رئتهم لأن هواء البحر يُحيي : ان انفاسهم وحدها ، انفاسهم المنتظمة العميقة الشبيهة بأنفاس النائمين ، كانت ما تزال شاهدة على حياتهم . وكنت أمشي بخطى ذئبية ، ولم اكن ادري ما الذي افعله بجسمي القاسي الرطب ، وسط هذا الجمع القاتم الذي كان يستريح .

وكان لون البحر قد اصبح بلون الحجر الارتوازي ، وكانت ترتفع ببطء ، وستكون عالية عند هبوط الليل ؛ وسيكون متنزه « لاغيتيه » هذه الليلة أقفر من جادة فيكتور – نوار . وسوف تلتمع في المقدمة ، والى اليسار ، نارٌ حمراء في الممر الضيق .

كانت الشمس تهبط رويداً على البحر ، وكانت تحرق بمرورها نافذة مقصورة نورماندية . ورفعت امرأة مبهورة يدها الى عينيها بحركة متعبة وحركت رأسها وقالت بضحكة مترددة :

– غاستون ، إن هذا يبهرني .

فقال زوجها : – هيه ؟ انها شمس صغيرة لطيفة ، قد لا تدفىء ، ولكنها مع ذلك تبعث على اللذة .

وقالت وهي تلتفت الى البحر :

– كنت احسب اننا سنراها .

فقال الرجل : – لا حظ لنا بذلك ، فهي في الشمس .

ولا بدّ أنهما كانا يتكلمان عن جزيرة « كايبوت » التي كان المفروض ان يُرى رأسها الجنوبي بين المجرفة ورصيف المرفأ .

ورقّ الضوء . وكان شيء ما ، في هذه الساعة القلقة ، يؤذن بالمساء . لقد أصبح لهذا الحد ماضٍ . وكانت المقاصير والدرابزون الرمادي تبدو وكأنها ذكريات قريبة العهد جداً . وكانت الوجوه تفقد فراغها واحداً فواحداً ،

وأصبح عدد منها رقيقاً تقريباً .

وكان ثمة امرأة حامل تستند الى شاب أشقر ذي هيئة وحشية . وقد قالت :

ـ هناك ، هناك ، انظر .

ـ ماذا ؟

ـ هناك ، هناك ، زمّج الماء .

فهز كتفيه : لم يكن ثمة من زمّج . وكانت السماء قد اصبحت نقية تقريباً، وردية بعض الشيء ، في الأفق .

ـ لقد سمعتها . أصغ إليها ، إنها تزقزق .

فأجاب : ـ انما ذلك شيء قد صرّ .

والتمع مصباح غاز . وظننت ان مُشعل المصابيح قد مر . ان الاولاد يترصّدونه ، ذلك انه كان يعطي اشارة العودة . ولكن لم يكن ذلك إلا انعكاسة الشمس الاخيرة . صحيح ان السماء كانت ما تزال مشرقة ، ولكن الارض كانت تسبح في الظل . وكان الجمع يتبدّد ، وكانت زمجرة البحر تُسمع بوضوح . ورفعت امرأة شابة ، مستندة بكلتا يديها الى الدرابزون ، وجهها الأزرق الذي خططتـه بالأسود حُمرة الشفتين ، رفعت وجهها نحـو السماء . وتساءلت لحظة عما اذا كنت لن أحب الناس . ولكنه كان ، بعد كل حساب، أحدَهم هم ، لا أحدي .

وكان النور الاول الذي أضاء ، هو نور منارة كايبوت ، وتوقف صبي صغير بقربي وتمتم بلهجة انتشاء : « اوه ! المنارة ! »

وشعرت بقلبي إذا ذاك مليئاً بإحساس مغامرةٍ عميق .

• • •

وانعطفت الى اليسار ، ومن شـارع « فواليبه » بلغت « لوبوتي براد » . كان الستار الحديدي مسدلاً على الواجهات . وكان شارع « تورنوبريد » مشرقاً ، ولكنه مقفر ، وهو قد فقد مجده الصباحي القصير ؛ فليس ثمة مـا

بمئزره بعدُ في هذه الساعة ، عن الشوارع المجاورة . وهبّت ريحٌ قوية بما فيه الكفاية . وسمعت قبعة الأسقف المصفّحة تصر .

انا وحيد ، وقد عاد معظم الناس الى بيوتهم ، انهم يقرأون صحيفة المساء وهم يستمعون الى الراديو . وقد خلّف الأحد الذي انتهى مذاق رمادٍ عندهم ، وبدأ فكرهم يلتفت الى يوم الاثنين . ولكن ليس لي انا احدٌ او اثنين : هناك ايام تتدافع في غير انتظام ، ثم فجأة ، التماعات كهذه الالتماعة .

لم يتغير شيء ، ومع ذلك فكل شيء موجود على نحو آخر . انني لا استطيع ان أصوّر ؛ إن الامر ، « كالغثيان » ، وهو مع ذلك عكسه تماماً : إن مغامرة تحدث لي اخيراً ، وحين أتساءل ، أرى « انه يحدث لي اني أنا وأني هنا ؛ انا الذي » اشقّ الليل ، واني لسعيد كبطل رواية .

إن شيئاً ما سيقع : ففي ظلام شارع « باس – دو – في » ينتظرني شيء ما ، وهناك ، عند زاوية هذا الشارع الهادىء ستبتدأ حياتي . إنني أراني أتقدم ، بإحساس من حتميه القدر . ان في زاوية الشارع نوعاً من النصب الابيض ؛ وقد كان يبدو ، من بعيد ، اسود تماماً ، وهو لدى كل خطوة ، يميل اكثر فأكثر الى البياض . ان هذا الجسم المظلم الذي يتضح رويداً رويداً يخلف لديّ انطباعاً خارقاً : فحين يصبح مضيئاً كل الاضاءة ، ابيض تماماً ، سأتوقف بقربه تماماً ، وآنذاك تبدأ المغامرة . انها قريبة جداً الآن ، هذه المنارة البيضاء التي تخرج من الظلام ، حتى أني أصبت بالخوف : وفكرت لحظة في ان أعود ادراجي . ولكن ليس ممكناً إحباط السحر . وأتقدم ، وأمدّ يدي ، وألمس النصب .

هو ذا شارع « باس – دو – في » وكتلة كنيسة سانت سيسيل الماثلة القابعة في الظل والتي يلتمع زجاج واجهاتها . وتصرّ القبعة المصفحة . لست ادرى ان كان العالم هو الذي ضيّق حدوده فجأة او إن كنت انا الذي يضيع بين الأصوات والأشكال وحدة قويةً الى هذا الحد : إنني لا استطيع حتى ان أتصوّر ان شيئاً مما يحيط بي هو غير ما هو .

وأتوقّف لحظة، وأنتظر، وأحسّ بأن قلبي يخفق، وأقلّب بعينيّ الساحة المقفرة، فلا أرى شيئاً. لقد هبّت ريح قوية بما فيه الكفاية. ولقد اخطأت، ان شارع «باس - دو - في» لم يكن الا محطة: و «الشيء» انما ينتظرني في جوف ساحة «دوكوتون».

لست مستعجلاً لاستئناف السير. ويخيّل اليّ اني لمست ذروة سعادتي. ما الذي لم ابذله في مرسيليا وشنغهاي ومكناس لأربح احساساً مليئاً الى هذا الحدّ، كهذا الاحساس؟ انني اليوم لا انتظر بعدُ شيئاً، وانا اعود الى بيتي، في نهاية احد فارغ: انه هنا.

وأمضي من جديد. وتحمل لي الريح صرخة صفارة. انني وحيد، ولكني أسير كفرقة تهبط نحو مدينة. ان هناك اللحظة سفناً تصدي بالموسيقى في البحر، وأنواراً تُضاء في جميع مدن اوروبا، وشيوعيين ونازيين يطلقون النار في شوارع برلين، وعاطلين عن العمل يضربون ارض نيويورك المبلطة، ونساءً بالقرب من مراياهن، في غرفة دافئة، يضعن «الريمل» على جفونهنّ. وانا هنا، في هذا الشارع المقفر، وكل طلقة نار تنطلق من نافذة في «نوكولن»، وكل حشرجة دامية تصعد من جرحى يُحملون، وكل حركة دقيقة تأتيها نساء يتبرّجن، تجيب على كل خطوة من خطواتي، وعلى كل خفقة من خفقات قلبي.

وامام زقاق «جيليه» لم اعرف بعدُ ما ينبغي لي ان افعل. اتراهم لا ينتظرونني في جوف الزقاق؟ ولكن هناك ايضاً، في ساحة دوكوتون، بأقصى شارع تورنوبريد، شيئاً ما يحتاج اليّ ليولد. انني ممتلئ ضيقاً: فان ادنى حركة تُلزمني. ولا استطيع ان احدس بما يريدونه مني. ولا بدّ مع ذلك من الاختيار: اني اضحيّ بزقاق «جيليه»، وسأجهل دائماً ما كان يخبئه لي.

ساحة دوكوتون خالية. اتراني قد اخطأت؟ يخيّل اليّ اني لن اتحمّل ذلك. اصحيح انه لن يحدث شيء؟ انني اقترب من اضواء مقهى «مابلي». انني مضطرب فاقد الاتجاه، ولا ادري ان كنت سأدخل: انني ألقي نظرة

عبر الواجهات الكبيرة المبخّرة .

القاعة غاصّة . والهواء ازرق بسبب دخان السجائر والبخار الذي تصعده الثياب الرطبة . امينة الصندوق على صندوقها . اني اعرفها جيداً : انها حمراء الشعر مثلي ، وفي بطنها مرض . انها تفسُد قليلاً قليلاً تحت تنّورتها ببسمة كئيبة ، شبيهة برائحة البنفسج التي تصعدها احياناً الاجسام وهي في حالة التحلّل . وتسري في جسمي رعشة من الرأس حتى القدمين : انها ... انها هي التي تنتظرني . كانت هناك ناصبة نصفها الأعلى الجامد فوق الصندوق ، وكانت تبتسم . ان شيئاً ما من جوف هذا المقهى يرتدّ الى خلف على لحظات هذا الأحد المتناثرة ، فيصهرها فيما بينها ، ويعطيها معنى : لقد عبرت هذا النهار كله لأصل الى هنا ، جبهتي ملتصقة بهذه الواجهة ، لأتأمّل هذا الوجه الدقيق الذي يتفتح على ستار مخملي احمر . لقد توقّف كل شيء ، لقد توقفت حياتي : ان هذه الواجهة الكبيرة ، وهذا الهواء الثقيل ، الأزرق كأنه الماء ، وهذه النبتة السمينة في قعر الماء ، وانا نفسي ، اننا جميعاً نشكّل كلاً جامداً ممتلئاً : واني لسعيد .

وحين ألفيتني ثانيةً في جادة « لارودوت » لم يكن باقياً لديّ بعدُ الاّ أسفٌ مرير . وكنت اقول : « شعور المغامرة ذاك ، ربما لم يكن ثمة شيء في العالم احرص عليه اكثر منه . ولكنه يجيء حين يشاء ، ويذهب بسرعة عجيبة ، وكم اجدني جافاً حين يذهب ! ولكن أتراه يقوم بهذه الزيارات القصيرة الساخرة ليدلّل لي اني اضعت حياتي ؟ »

وخلفي ، في المدينة ، في الشوارع الكبيرة المستقيمة ، بأضواء مصابيحها الباردة ، كان حادث اجتماعي هائل يحتضر : انه نهاية الأحد .

الاثنين

كيف استطعت ان اكتب ، امس ، هذه العبارة الضخمة اللامعقولة :

« كنت وحيداً ، ولكني كنت أسير كفرقة تهبط الى مدينة » .

لا حاجة بي الى صنع العبارات . انني اكتب لأوضّح بعض الملابسات . يجب الاحتراز من الأدب . ينبغي للمرء ان يكتب كما يقوده قلمه ، من غير ان يبحث عن الكلمات .

والحق ان ما ينفّرني هو اني كنت مساء امس جزل الانشاء . حين كنت في العشرين من عمري . كنت أثمل ، ثم اشرح اني رجل على شاكلة ديكارت . وكنت احس جيداً اني كنت انتفخ بطولة ، وكنت استسلم لذلك ، كان هذا يروق لي . غير اني في اليوم التالي ، كان ينتابني مثل الاشمئزاز الذي احسه كما لو انني استيقظ في سرير مليء بالقيء . انني لا أقيء حين أثمل ، ولكن الأمر يعادل اكثر من ذلك . بالأمس لم يكن لي حتى عذر السُكر ، لقد تحمّست كالأبله . انني محتاج الى تنظيف نفسي بافكار مجرّدة ، شفافة كالماء .

وشعور المغامرة ذاك ، غير صادر حتماً عن الاحداث : ولقد قام على ذلك الدليل . وانما هو صادر بالاحرى عن الطريقة التي بها تتسلسل اللحظات . ها هي القضية ، اني افكر بما يحدث : يشعر المرء فجأة بأن الزمن يجري ، وان كل لحظة تؤدي الى لحظة اخرى ، وهذه الى ثالثة ، وهكذا دواليك ، ان كل لحظة تتلاشى ، ولا جدوى من محاولة إمساكها الخ ، الخ ... واذ ذاك ، نعزو هذه الخاصيّة للأحداث التي تبدو لنا « في » اللحظات ، ان ما يخصّ الشكل ، يُعزى الى المضمون . وبالاجمال ، يتحدثون طويلاً عن جريان الزمن هذا العظيم ، ولكنه لا يُرى ابداً . اننا نرى امرأة ، فنفكر بأنها ستصبح عجوزاً ، غير اننا لا « نراها » تشيخ . ولكن يخيّل الينا احياناً اننا نراها تشيخ ، واننا نحسّنا نشيخ معها : ذلك هو شعور المغامرة .

ان هذا يُسمى ، اذا لم أخطيء التذكّر ، لامقلوبيّة الزمن ، وشعور المغامرة يعادل بكل بساطة الشعور بلامقلوبية الزمن . ولكن لماذا لا نملكه دائماً ؟ هل مردّ ذلك ان الزمن ليس دائماً ممتنعاً عن القلب ؟ ان هناك لحظات يُحس المرء فيها ان بوسعه ان يفعل ما يريد ، ان يذهب الى امام او يتراجع الى خلف ،

وأن هذا لا أهمية له ، وهناك لحظات اخرى يقول المرء فيها ان الحلقات قد ضاقت ، وليست القضية ، في تلك الحالة ، ان يفوّت عليه الأمر ، لأنه لن يستطيع بعدُ ان يعيده من جديد .

كانت آني تردّ إلى الزمن كلّ ما كان يستطيعه. فحين كانت في جيبوتي، وكنت انا في عدن ، وحين كنت اقصدها لأربع وعشرين ساعة، كانت تتفنّن في مضاعفة سوء الفهم بيننا، حتى لا يبقى بعد على ذهابي الاّ ستون دقيقة تماماً. ستون دقيقة ، الوقت اللازم لإشعار المرء بأن الثواني تمرّ واحدة واحدة . وانا اذكر احدى تلك الامسيات العظيمة . كان عليّ ان ارحل عند منتصف الليل ، وكنا قد قصدنا داراً للسينما في الهواء الطلق ، وكانت هي على مثل يأسي ، ولكنها كانت تمثّل اللعبة . وعند الساعة الحادية عشرة ، حين بدأ الفيلم الكبير ، تناولت يدي فشدّت عليها بين يديها ، من غير ان تنبس بكلمة . وأحسستني مغموراً بفرحة جافية ، فأدركت ، من غير ان انظر الى ساعتي ، انها كانت الساعة الحادية عشرة . ومنذ تلك اللحظة ، بدأنا نحسّ الدقائق تجري . وكنا سنفترق في تلك المرة ، لمدة ثلاثة اشهر . وذات لحظة ، عُرضت على الشاشة صورة بيضاء تماماً ، فرقّ الظلام ، ورأيت انّ آني كانت تبكي ، ثم تركت يدي عند منتصف الليل ، بعد ان شدّتها بعنف ، ونهضت فمضيت من غير ان اقول لها كلمة واحدة . وكان ذلك عملاً موفقاً كل التوفيق .

الساعة السابعة مساءً

يوم عمل . ولم يكن رديئاً جداً ، لقد كتبت ست صفحات ، في شيء من المتعة . لا سيما وانها كانت تأملات مجرّدة عن عهد بول الاول . ولقد بقيت ، بعد إدمان الأمس ، مزرراً طوال النهار . كان ينبغي الا اطلب العون من قلبي ولكني كنت احسّني في متعة كبيرة وانا افكّك نوابض الاوتوقراطية الروسية. غير ان رولبون هذا يضايقني . انه يبدو شديد الغموض في اصغر الامور .

ما الذي تراه استطاع ان يفعله في اوكرانيا بشهر آب عام ١٨٠٤ ؟ انه يتحدث عن رحلته بعبارات محجبّة :

« ان الأجيال القادمة ستحكم ما اذا كانت جهودي ، التي لا يستطيع النجاح ان يكافئها ، لم تكن تستحق خيراً من انكار وحشي وألوان من الإذلال كان لا بد من تحملها بصمت ، حين كنت أملك في صدري ما أخرس به الهازئين وألقيهم في الخوف » .

لقد انخدعت به مرة : كان يبدو مليئاً بالتكتّمات المدعية حول موضوع رحلة قصيرة كان قد قام بها الى بوفيل عام ١٧٩٠ . ولقد أضعت شهراً في التحقق من اعماله وحركاته . وتبيّن في آخر المطاف انه قد جعل ابنة احد مزارعيه تحمل منه . أليس هو بكل بساطة ممثلاً هزلياً دجالاً ؟

اني أحسّني مليئاً بالحقد على هذا المختال الصغير الكذاب ، وربما كان ذلك حزناً مصحوباً بالغضب : كان يسحرني ان يكذب على الآخرين ، ولكني كنت اود لو انه استثناني من ذلك . كنت احسب اننا سنتفاهم من فوق رؤوس جميع هؤلاء الاموات ، وان الأمر سينتهي به الى كشف الحقيقة لي !! ولكنه لم يقل شيئاً ، لم يقل شيئاً على الإطلاق ، لم يقل اكثر مما قال للاسكندر او للويس الثامن عشر الذي كان يخدعه . يهمني كثيراً ان يكون رولبون شخصاً معتبراً . انه خبيث بلا شك : فمن ليس كذلك ؟ ولكن أكان خبثه كبيراً ام صغيراً ؟ انني لا احترم التحريات التاريخية بما فيه الكفاية لكي اضيع وقتي مع انسان ميت لو كان على قيد الحياة لما تنازلت للمس يده . ما الذي اعرفه منه ؟ ليس بالامكان ان يحلم المرء بحياة اجمل من حياته : ولكن أهو الذي صنعها ؟ ليت رسائله لم تكن مدّعية الى هذا الحد .. آه ! كان ينبغي معرفة نظره ، فربما كانت له طريقة نظيفة لإمالة رأسه على كتفه ، او لنصب سبابته الطويلة ، في هيئة خبيثة ، بجانب انفه ، او لإظهار عنف موجز بين كذبتين مهذبتين ، ثم ما يلبث ان يختنق ذلك العنف . ولكنه قد مات : ولم يبق منه الا « دراسة عن الستراتيجية » و « تأملات حول الفضيلة »

لئن أرخيت لنفسي العنان ، لنجحت في تصوّره : انه فيما وراء سخريته اللامعة التي سببّت كثيراً من الضحايا ، انسان بسيط ، ساذج تقريباً . انه يفكر قليلاً ، ولكنه اوتي كياسة عميقة تمكنه في كل مناسبة من فعل ما ينبغي فعله بالضبط . ان خبثه طاهر تلقائي ، سخي كل السخاء ، في مثل اخلاص حبه للفضيلة . وهو بعد ان يخون اصدقاءه والمحسنين اليه ، يرتدّ الى الأحداث بجد ليستخرج منها العبرة الأخلاقية . انه لم يفكر قط ان له ادنى حق على الآخرين ، وليس للآخرين ادنى حق عليه : فالهبات التي تمنحها اياه الحياة ، انما يعتبرها مجانية وغير مبررة . انه يتعلّق بكل شيء تعلقاً شديداً ، ولكنه ينفصل عن كل شيء بسهولة . ورسائله وآثاره لم يكتبها هو نفسه قط : وانما كلف الكاتب العام بتأليفها .

ولكن لو كانت القضية ان ابلغ ما بلغته الآن ، لكان احرى بي ان اكتب رواية عن المركيز دورولبون .

الساعة الحادية عشرة ليلاً

تناولت العشاء في مطعم « رانديفو دي شامينو » . ولما كانت صاحبته موجودة ، فقد كان لا بد لي من مضاجعتها ، ولكن ذلك كان بدافع التأدّب . انها تثير اشمئزازي قليلاً ، فهي مفرطة البياض ، ثم ان رائحتها تشبه رائحة الطفل الوليد . وقد كانت تشد رأسي الى صدرها في فيض من العاطفة المهووسة وهي تحسب انها تحسن صنعاً . اما انا . فقد كنت ألتقطّ فرجها بشرود تحت الغطاء ، ثم تخدّرت ذراعي . وكنت افكر بالسيد دورولبون : ما الذي يمنعني ، بعد كل حساب ، من ان اكتب رواية طويلة عن حياته ؟ وتركت ذراعي تمرّ على خاصرة صاحبة المطعم ، فرأيت فجأة حديقة صغيرة ذات اشجار واطئة عريضة تتدلّ منها اوراق ضخمة يغطيها الشعر . وكان ثمة نمل يعدو في كل مكان ، وحرُ شٌ وسوس . وكان ثمة ايضاً حيوانات افظع : كانت اجسامها

مصنوعة من قطعة خبز محمّص كذلك الذي يوضع تحت الحمام، وكانت تمشي جانباً بأرجل عقربية. وكانت الاوراق العريضة مسوّدة لكثرة ما عليها من حشرات. ومن خلف شجر الصبّار، كانت فيلادا [1] الحديقة العامة تشير باصابعها الى فرجها. وقد صحت: «ان هذه الحديقة تصعد رائحة فيء».

قالت صاحبة المطعم:

– لم اكن اريد ان اوقظك، ولكن كان لي تحت أليتيّ ثنية قماش، ثم يجب عليّ ان اهبط الى تحت من اجل زبائن قطار باريس.

ثلاثاء المرفع

جلدتُ موريس باريس. كنا ثلاثة جنود. وكان في منتصف وجه احدنا ثقب. واقترب موريس باريس فقال لنا: «هذا حسن!» وأعطى كلاً منا باقة من البنفسج. وقال الجندي ذو الرأس المثقوب: «لا ادري اين اضعها» فقال له موريس باريس: «يجب ان تضعها وسط الثقب الذي في رأسك». فأجاب الجندي: «بل سأضعها لك في استك». وقلبنا موريس باريس ونزعنا عنه لباس عورته. وكان هذا اللباس ثوب كاردينال احمر. ورفعنا الثوب فأخذ موريس باريس يصيح: «انتبهوا! ان لي سروالاً ذا سر» ولكننا جلدناه حتى الدم، ورسمنا على مؤخرته، ببراعم البنفسج، رأس ديروليد» [2].

انني منذ حين اتذكّر احلامي اكثر مما ينبغي. والحق انه لا بد انني اتقلّب كثيراً في اثناء نومي، لانني اجد في كل صباح لحافي على الارض. ان اليوم هو ثلاثاء المرفع، ولكن ذلك لا يعني شيئاً هاماً في بوفيل، فانه لا يكاد يتنكّر

---

(١) كاهنة ونبية من جرمانيا: في عهد فيسباسيان: والمقصود منه تمثالها طبعاً (المترجم)

(٢) شاعر وسياسي فرنسي (١٨٤٦ – ١٩١٤) رئيس جامعة الوطنيين الاحرار مؤلف «اغاني الجندي» (المترجم)

في المدينة كلها اكثر من مئة شخص .

واذ كنت اهبط السلّم ، نادتني صاحبة الفندق :

– ان لك رسالة .

رسالة : كانت آخر رسالة تلقيتها ، من أمين محفوظات مكتبة روان في شهر أيار الماضي . وقادتني صاحبة الفندق الى مكتبها ، وبسطت لي ظرفاً طويلاً أصفر منتفخاً ، انها رسالة من آني . ها هي خمسة اعوام تنقضي من غير ان اتلقى شيئاً منها . وكانت الرسالة قد ذهبت تبحث عني في منزلي بباريس ، وهي تحمل طابع اول شباط . وخرجت وانا امسك المغلّف بين اصابعي ، ولا اجرؤ على فضّه ، ان آني لم تغيّر ورق رسائلها ، واني اتساءل عما اذا كانت لا تزال تشتريه من مكتبة بيكاديللي الصغيرة . وأعتقد انها قد حافظت ايضاً على تسريحة شعرها ، وعلى خصلاتها الطويلة الثقيلة التي لم تكن تريد قصّها ، ولا بد انها تصارع في صبر امام المرايا لتنقذ وجهها : ليس ذلك بداعي التأنق ولا خوفاً من الشيخوخة ، وانما هي تريد ان تبقى كما هي ، كما هي تماماً . ولعل هذا هو ما كنت اوثره فيها ، هذه الأمانة القوية القاسية لأدنى ملمح في وجهها .

وكانت حروف العنوان الصلبة المكتوبة بالحبر البنفسجي (انها لم تغير حبرها كذلك) ما تزال تلمع قليلاً .

« السيد انطوان روكنتان » .

كم احب ان اقرأ اسمي على هذه المغلّفات ! فلقد عثرتُ من جديد على احدى تلك البسمات وسط الضباب ، وتمثّلت عينيها ، ورأسها المائل : كانت تجيء ، اذ اكون جالساً ، فتنزرع امامي وهي تبتسم . وكانت تشرف علي بقامتها ، وتمسكني من كتفي وتهزّني بذراعين ممدودتين .

كان المغلّف ثقيلاً ، فلا بد انه كان يحتوي على ست صفحات على الأقل . وكانت اصابع بوابة منزلي القديم تعلو بخطّها الذبابي على تلك الكتابة الجميلة :

« فندق برنتانيا – بوفيل »

ولم تكن هذه الأحرف الصغيرة تلتمع .

وحين فضضت الرسالة ، أحسستني ، من زوال الوهم ، أصغر ستة أعوام:

« لست أدري كيف تصنع آني لتنفخ مغلفاتها على هذا النحو : فليس في داخلها شيء أبداً » .

هذه العبارة ، قلتها مئة مرة في ربيع ١٩٢٤ وأنا اجهد ، كاليوم ، لأستخرج من بطانة المغلف قصاصة ورق مربعة . ان البطانة روعة : خضراء معتمة مع نجوم ذهبية ، فكأنها قماشة ثقيلة منشاة . فهي وحدها تزن ثلاثة ارباع المغلف.

وقد كتبت آني بالرصاص :

« سأعرج على باريس بعد ايام ، تعال لرؤيتي في فندق اسبانيا يوم ٢٠ شباط . ارجوك . « يجب » ان أراك . آني »

وكنت في مكناس وطنجة ، حين اعود الى غرفتي مساء ، أجد أحياناً كلمة على سريري : « أريد ان أراك على الفور » فكنت أهرع فتفتح لي آني ، مرفوعة الحاجبين ، في هيئة دهشة : ليس لدبها بعد ُ ما تقوله لي ، وقد كانت تلومني قليلاً لأني قد جئت . سوف اذهب ، فلعلها سترفض ان تستقبلني ، او ربما قالوا لي في مكتب الفندق : « لم ينزل عندنا احد بهذا الاسم » . ولا أعتقد انها ستفعل ذلك . غير انها قد تكتب لي ، بعد ثمانية ايام ، أنها غيرت رأيها وأن اللقاء سيكون في مرة أخرى .

إن الناس في اعمالهم ، وانه لثلاثاء مرفع مسطح ، هذا الذي يؤذن . إن رائحة الخشب الرطب تنبعث من شارع « الموتيليه » كما يحدث حين يوشك المطر ان يهطل . انني لا أحب هذه النهارات العجيبة : فان دور السينما تقدم حفلات صباحية ، وأولاد المدارس في عطلة ؛ وفي الشارع هيئة عيد غامضة لا تني تجتذب الانتباه ، ثم تتلاشى بمجرد ان ينتبه لها المرء .

لا شك في أني سأرى آني من جديد ، ولكني لا استطيع القول ان هذه الفكرة تفرحني . فانا منذ تلقيت رسالتها ، أحستني عاطلاً عن العمل . ومن حسن الحظ ان الوقت ظهر ؛ لست جائعاً ، ولكني سآكل ، إزجاءً للوقت .

وأدخل مطعم « كميل » ، في شارع « الاورلوجيه » .

إنه « علبة » محكمة الإغلاق ؛ وهم يقدّمون فيه الكرنب والفاصولياء طوال الليل ، ويقصده الاشخاص لتناول العشاء بعد خروجهم من المسرح ؛ ويُرسل رقباء المدينة اليه السياح الذين يصلون ليلاً وهم جائعون . وفي المطعم ثماني طاولات من الرخام ، ومقعد جلدي يمتد على طول الجدران . وهناك مرآتان أكلتهما لطخات حمراء . وواجهات النافذتين والباب هي من الزجاج المحجّر ، ويقوم المشرب والصندوق في تجويفة من الجدار . وهناك ايضاً حجرة جانبية لم أدخلها قط ؛ وهي مخصصة للأزواج .

– أعطني بيضاً مقلياً بلحم الخنزير .

إن الخادم ، وهي فتاة ضخمة ذات خدين احمرين ، لا تستطيع الامتناع عن الضحك حين تتحدث الى رجل .

– ليس لي الحق . هل تريد بيضاً مقلياً بالبطاطا ؟ ان لحم الخنزير محجورٌ عليه ، ولا يستطيع ان يقصه إلا صاحب المطعم .

فطلبت صحناً من الفاصولياء . إن صاحب المطعم يدعى كميل وهو رجل قاس .

ومضت الخادم . انني وحيد في هذه الحجرة القديمة المعتمة . وإن في محفظتي رسالةً من آني ، يمنعني خجل مزيف من ان أعيد قراءتها . وأحاول ان أتذكر العبارات واحدة واحدة .

« عزيزي انطوان » .

وأبتسم : لا ، بكل تأكيد ، إن آني بكل تأكيد لم تكتب « عزيزي انطوان » منذ ستة اعوام – وكنا قد افترقنا باتفاق مشترك – قررت ان اسافر الى طوكيو ، وكتبت لها بضع كلمات . ولم يكن بوسعي بعدُ ان أدعوها « حبيبتي الغالية » فبدأت بكل براءة « عزيزتي آني » فأجابتني :

– « انني معجبة بسهولتك في الكلام ، انا لم أكن ولست قط عزيزتك آني . وأرجوك ان تعتقد انت انك لست عزيزي انطوان . فاذا كنت لا تعرف ان

تدعوني ، فلا تدعْني ، هذا افضل . »

وأتناول رسالتها من محفظتي . إنها لم تكتب « عزيزي انطوان » . وكذلك، فليس في اسفل الرسالة عبـارة التأدّب : « يجب ان أراك . آني » . لا شيء مما يجعلني أتحقّق من عواطفها . ولا استطيع ان اشكو من ذلك : فاني أتعرف هنا الى شغفها بما هو « كامل » . كانت تريد دائماً ان تحقّق «لحظات كاملة» . فاذا لم يكن الظرف ملائماً ، كفّت عن أن تهتمّ بشيء ، وكانت الحياة تختفي من عينيها ، وكانت تعيش بكسل ، وعليها هيئـة فتاة كبيرة في سن العقوق . او انها كانت تختلق اسباب النزاع معي :

ـ انك تتمخّط كالبورجوازي، بكل أُبهة، وتسعل في منديلك بكل رضى.

وكان ينبغي ألا أُجيب ، كان ينبغي ان انتظر : وقد كانت ترتعش فجأة، لدى إشارة لم أُدركها ، وتقسّي ملامحها المسترخية الجميلة وتبدأ عملها النمليّ . كان لها سحرٌ جذاب لا يُقهر ؛ وكانت تتمتم مغنّية بين أسنانها وهي تنظر في كل ناحية ، ثم كانت تنتحب باسمة ، فتُقبل عليّ تهزّني من كتفيّ ، وتظهر وكأنها تعطي أوامرها الى كل الأشياء التي تحيط بها. وكانت تشرح لي، بصوت منخفض وسريع ، ما كانت تنتظره مني .

« اسمع ، انك راغب في ان تبذل جهداً ، أليس كذلك ؟ لقد كنت شديد الحماقة ، في المرة الماضية، أترى كم يمكن هذه اللحظة ان تكون جميلة ؟ انظر الى السماء ، انظر الى لون الشمس على السجادة . كل ما فعلته اني ارتديت ثوبي الاخضر ، ولم اصبغ شفتيّ بعد بالحمرة ، انني ممتقعة جداً . ارجع الى الخلف ، واذهب فاجلس في الظلّ ؛ هل انت فاهمٌ ما ينبغي لك ان تفعل ؟ حسناً ، تفضل ؟ ما احمقك ! حدّثني » .

وكنت أحسّ ان نجاح العملية كان بين يديّ : كان للحظة معنى غامض كان يجب توضيحه وإنجازه ؛ يجب ان يُعمل بعض الحركات ، ويُقال بعض الكلمات : وكنت مرهقاً تحت عبء مسؤوليتي ؛ كنت أوسّع عيني ولا أرى شيئاً ، وكنت أتخبّط وسط طقوس كانت آني تخترعها لتوّها وكنت أمزقها

بذراعيّ الكبيرتين كأنها خيوط عنكبوت. وفي تلك اللحظات، كانت تحقد عليّ. بكل تأكيد، سأذهب لرؤيتها، اني احترمها وما زلت أحبها من كل قلبي. وأتمنى لو ان احداً غيرها قد أوتي حظاً كبيراً وبراعة اكبر في لعبة اللحظات الكاملة.

كانت تقول: «ان شعرك الفظيع يفسد كل شيء. ما تريد ان يُصنع برجل احمر الشعر؟»

وكانت تبتسم. وقد فقدتُ اولاً ذكرى عينيها، ثم ذكرى جسمها الطويل واحتفظت اطول مدة ممكنة ببسمتها، ثم فقدتها ايضاً، منذ ثلاثة اعوام. ولكنها عادت الساعة فجأة، حين كنت اتناول الرسالة من يد صاحبة الفندق؛ وقد حسبتني أرى آني وهي تبتسم. وما زلت أحاول ان أتذكرها: إن بي حاجةً لأن أحس كل الحنان الذي توحيه لي آني؛ وهو هنا، هذا الحنان، انه قريب جداً، وهو لا يطلب إلا ان يولد. ولكنّ البسمة لا تعود ابداً: انتهى الأمر. وأنا أبقى فارغاً جافياً.

ودخل رجل يرتعش برداً:

— سادتي، سيداتي، مساء الخير.

وجلس من غير ان ينزع معطفه المخضر. وأخذ يفرك يديه الطويلتين فيما بينهما وهو يشبك اصابعه.

— ماذا أقدّم لك؟

فانتفض، وفي عينيه القلق:

— ايه؟ اعطني قدح «بِر» بالماء.

فلم تتحرك الخادم. وكان وجهها في المرآة، يبدو وكأنه نائم. صحيح ان عينيها مفتوحتان، ولكنهما ليستا إلا شقّين. انها هكذا، فهي لا تستعجل في خدمة الزبائن، وهي تأخذ دائماً لحظةً لتحلُم بطلباتهم. ولا بد انها تفكر بالزجاجة التي ستأخذها من فوق المشرب، وبرقعة الورق البيضاء وعليها حروف حمراء، وبالمشروب الكثيف الأسود الذي ستصبّه: فذلك شبيه بما

لو كانت تشرب هي نفسها .

وأدس رسالة آني في محفظتي : لقد اعطتني ما كانت تستطيعه ؛ انني لا استطيع ان أرتد الى المرأة التي أخذتها بيديها وطوتها ووضعتها في الظرف . ولكن هل من الممكن التفكير بأحد في صيغة الماضي ؟ اننا طوال تبادلنا الحب لم نسمح لأدنى لحظة من لحظاتنا ، ولا لأيسر همومنا ان تنفصل عنا وتظل في الخلف : الاصوات ، والروائح ، وألوان النهار ، وحتى الافكار التي لم نتصارح بها ، كنا نحمل كل شيء ، وكان كل شيء يبقى حياً متيقظاً : ونحن لم نكف عن التمتع بها وعن التألم منها في الحاضر . يستوي في ذلك كل ذكرى ، وحب عنيف لا يلين ، حب بلا ظلال ، ولا تراجع ، ولا ملجأ . ثلاثة اعوام حاضرة معاً . من اجل هذا افترقنا : فاننا فقدنا القوة على تحمّل ذلك العبء . ثم فجأة ، حين تركتني آني ، انهارت الأعوام الثلاثة مرة واحدة ، ودفعة واحدة ، في الماضي . ولم يحدث حتى ان تألمت . وكنت أحسّني فارغاً . ثم عاد الزمن يجري ، وكبُر الفراغ . وبعد ذلك ، في سايغون ، حيث عزمت على العودة الى فرنسا ، تلاشى كل ما كان ما يزال باقياً — من الوجوه الاجنبية والامكنة والارصفة على شواطىء الانهار . وهكذا ، ليس ماضيّ بعد إلا ثقباً هائلاً . اما حاضري ، فهو هذه الخادم ذات الثوب الاسود التي تحلم بالقرب من المشرب ، وهذا الرجل القصير . إن كل ما اعرفه من حياتي ، يخيّل إليّ أني تعلمته في الكتب . ان قصور بيناريس ، وسطيحة الملك « ليبرو » ومعابد جاوة بسلالمها الكبيرة المحطمة ، انعكست ذات لحظة في عيني ، ولكنها بقيت هناك ، في أماكنها . والترام الذي يمر بالقرب من فندق برنتانيا لا يحمل مساءً على زجاج نوافذه انعكاس لافتة النيون ؛ انه يلتهب لحظة ويبتعد بزجاج أسود .

وهذا الرجل لا يكف عن النظر إليّ : انه يضجرني . انه يتظاهر بالاهمية المناسبة لقامته . وتعزم الخادم اخيراً على خدمته . وترفع بكسل ذراعها الكبيرة السوداء فتتناول الزجاجة وتحملها مع قدح .

– تفضل يا سيدي .

فقال بتلطف : – السيد أشيل .

وصبَّت من غير ان تجيب ، وفجأة بسحب بخفة إصبعه من انفه ويضع كلتا يديه مبسوطتين على الطاولة . وكان قد ألقى برأسه الى الخلف ، وأخذت عيناه تبرقان . وقال بصوت بارد :

– يا للفتاة المسكينة !

وتنتفض الخادم ، وأنتفض انا ايضاً : ان لــه تعبيراً غير قابل للتعريف ، ربما كان دهشة ، كما لو ان آخر قد تكلم . إننا ، نحن الثلاثــة ، متزعجون . وكانت الخادم هي أول من تنبه : إنها لا تملك خيالاً . وقد حدجت السيد أشيل في فضول : إنها تعرف جيداً انه تكفيها يدٌ واحدةٌ لتنتزعه من مكانــه وتلقي به خارجاً .

– ولماذا اكون ، يا ترى ، فتاة مسكينة ؟

فتردد ونظر اليها محتاراً ثم ضحك . وتجعد وجهه بألف ثنية ، وقام بحركات خفيفة من قبضته :

– لقد ازعجها ذلك . ولكن الناس يقولون هــذا هكذا . يقولون : فتاة مسكينة . من غير قصد .

ولكنها أولته ظهرها ومضت الى خلف المشرب : لقــد جُرحت حقاً . وضحك مرة أخرى :

– ها ! ها ! لم أكن اقدّر ذلك ؟ لقد غضبتْ ، لقد غضبت !

قال ذلك وهو يتوجّه إليّ .

ولوى رأسي : ويرفع قدحه قليلاً ، ولكنه لا يفكر بأن يشرب : انه يطرف بعينيه بهيئة مأخوذة وخائفة ؛ فكأنه يجهد في ان يتذكر شيئاً . وكانت الخادم قد جلست الى الصندوق ، وتناولت الصوف وعادكل شيء الى الصمت ، ولكنه لم يكن بعدُ الصمت نفسه . هذا هو المطر : إنه يصفق الزجاج المحجر صفقاً خفيفاً ! ولئن كان ما يزال في الشارع صبيةٌ متنكرون ، فلا شك في

انه سيجعل اقنعتهم الكرتونية طرية ملطخة .

وأضاءت الخادم المصابيح : صحيح ان الساعة لم تكد تتجاوز الثانية، ولكن السماء سوداء تماماً ، وهي لا ترى رؤية كافية تمكنها من ان تخيط . ضوء رقيق ، إن الناس في البيوت ، ولا شك في انهم هم ايضاً قد أضاءوا ، انهم يقرأون ، وينظرون الى السماء من النافـذة . ان الامر ، بالنسبة إليهم ، شيء آخر . لقد شاخوا بطريقة أخرى . انهم يعيشون وسط الهبات والهدايا ، وكل قطعة من أثاثهم تذكار . ساعات ، اوسمة ، صور ، أصداف ، مثقلات ورق ، حواجز خشبية ، شالات. ان لهم خزائن ملأى بالزجاجات والأقمشة والثياب القديمة والصحف ؛ لقد احتفظوا بكل شيء. ان الماضي بذخ من بذخ المالكين.

فأين تراني سأحتفظ بماضيّ ؟ ان المرء لا يضع ماضيه في جيبه ، وإنما ينبغي ان يكون له بيت ليضعه فيه . إنني لا أملك غير جسمي ؛ ولا يستطيع رجل وحيد ، بجسمه وحده ، ان يوقف الذكريات ؛ فهي تمرّ به عرضاً . ولا ينبغي لي ان أشكو : فأنا لم أرد إلا ان اكون حراً .

وتململ الرجل القصير وتنهد، وقد تراكم في معطفه ، ولكنه كان ينتصب بين الفينة والفينة ويتخذ مظهر التعالي . هو ايضاً ، ليس له ماض . واذا بحث أحدنا جيداً ، فسوف يجد بلا شك ، لدى أقرباء كفوا عن معاشرته ، صورة تمثله في عرس ، وهو يضع باقة مكسورة ، ويرتدي قميصاً ذا صدرة ، وقـد نبت له شارب شاب قاس . أما انا ، فأعتقد انه لم يبق مني حتى هذا .

ها هو ذا ما يزال ينظر إليّ . وهو سيحدثني هذه المرة، فأحسني متصلباً. ليس ما بيننا ودّاً : كل ما هنالك اننا متشابهان . انه وحيد مثلي ، ولكنه أشدّ مني إيغالاً في الوحدة . ولا بدّ انه ينتظر « غثيانه » او شيئاً من هذا القبيل . وإذن ، فان هناك الآن اشخاصاً « يتعرفونني » ويفكرون، بعد ان يحدجوني: « ان هذا منّا » . حسناً ؟ ما الذي يريده ؟ لا بدّ انه مدركٌ ان احدنا لايستطيع ان يصنع شيئاً للآخر . ان العائلات قائمة في بيوتها ، وسط ذكرياتها . أما نحن، فحطامان بلا ذاكرة . ولئن نهض فجأة، ووجّه لي الكلام . فسأثب في الهواء .

وانفتح الباب في صخب : انه الدكتور روجيه .

– مرحباً بالجميع .

ودخل شرساً ، شاكاً ، وساقاه الطويلتان تصطكّان قليلان وتكادان لا تحملان قامته. انني غالباً ما أراه يوم الأحد في مطعم فيزاليز ،ولكنه لايعرفني. وهو في جسمه يشبه معلّمي جوانفيل القدامى: أذرع كالسيقان ، دورة الصدر تساوي مئة وعشرة ، وهم لا يتماسكون على اقدامهم وقوفاً .

– جان ، صغيرتي جان .

ونطنط حتى المشجب ليعلّق به قبعته اللبدية . وطوت الخادم شغلها وأقبلت بلا عجلة ، متناومة ، لتستخرج الطبيب من مشمعه .

– ماذا تأخذ ، يا دكتور ؟

فتأملها بجد . هو ذا ما أدعوه وجه رجل جميلاً . ان الحياة والمشاعر العنيفة قد استهلكته وحفرته . ولكن الطبيب قد فهم الحياة وهيمن على مشاعره وقال بصوت عميق :

– لا أدري على الاطلاق ما الذي أريده .

وتداعى للسقوط على مقعده قبالتي : ومسح جبينه ؛ إنه يحس الراحة والرضى اذ لا يكون واقفاً على ساقيه . وان عينيه تخيفان ، عيناه كبيرتان سوداوان ، متعجرفان.

– سأطلب ... سأطلب – قدحاً من الكالفادوس [١] ، يا ابنتي .

وجعلت الخادم تتأمل هذه السحنة المخدّدة الهائلة ، من غير أن تأتي حركة. انها عالمة. ورفع الرجل القصير رأسه وهو يبتسم بسمة متحررة. وكان صحيحاً: ان هذا الانسان الضخم قد حرّرنا . لقد كان هنا شيء فظيع يوشك ان يأخذنا. وتنفّست بقوة : إننا الآن بشرٌ تجاه بشر .

– متى يأتي خمري ؟

فانتفضت الخادم ومضت . وبسط هو ذراعيه الضخمتين وأخذ الطاولة

(١) خمر التفاح .

من حافتها . ان السيد أشيل فرحٌ غاية الفرح ، وقد كان يودّ جذب انتباه الطبيب . ولكنه عبثاً قد ارجع ساقيه وقفز على المقعد ، فهو من الضآلة بحيث يحدث ضجة .

وحملت الخادم الكالفادوس ، وبحركة من رأسها دلّت الطبيب على جاره . وأدار الدكتور روجيه قامته ببطء : انه لا يستطيع ان يحرك رقبته ، وصاح :

– عجباً ! هذا انت ايها القذر ؟ ألم تمت ؟

وتوجّه الى الخادم :

– هل تقبلون ذلك عندكم ؟

ونظر الى الرجل القصير بعينيه المتوحشتين . نظرة مستقيمة تضع الأمور في نصابها . وتابع موضحاً :

– انه مجنون قديم .

ولم يبذل أي جهد ليُظهر انه يمزح . انه يعلم ان المجنون القديم لن يغضب ، وانه سيبتسم . وهذا ما حدث : فقد ابتسم الآخر في مذلّة . مجنون قديم : انه يسترخي ، ويُحسّه محتمياً من نفسه بالذات ، ولن يحدث له شيء اليوم . والأعجب من ذلك ، هو انني انا نفسي قد استعدت اطمئناني . مجنون قديم : هكذا كان اذن ، ولم يكن غير هذا .

وضحك الطبيب ، ورماني بنظرة واعدة متواطئة : لا شك في ان ذلك بسببي – ثم اني ارتدي قميصاً نظيفاً – انه يريد ان يشاركني بمزاحه . ولم أُجب على تمهيداته : واذ ذاك ، جرّب عليّ ، من غير ان يكفّ عن الضحك ، نار حدقتيه الهائلة . وجعلنا نتبادل النظر في صمت بضع لحظات ، كان يحدجني وهو يصطنع النظر الحسير ، كان يصنّفني . في فئة المجانين ؟ ام في فئة السوقة ؟

ومع ذلك ، فهو الذي صرف بصره : تهيّبٌ يسير امام شخص وحيد ، لا اهمية اجتماعية له ، وذلك امر لا يستحق التحدث عنه ؛ انه يُنسى على الفور ، ولفّ سيكارة وأشعلها ، ثم ظلّ جامداً بعينين ثابتتين قاسيتين ، على غرار الشيوخ .

التجاعيد الجميلة ، انه يملكها جميعاً : خطوط الجبين المعترضة ، ارجل الاوز ، والثنيات المريرة لكل جهة من الفم ، بصرف النظر عن الحبال الصفراء التي تتدلى تحت ذقنه هوذا رجل محظوظ : ان ما يراه ، ولو من ابعد مكان ، يقول لنفسه انه لا بد ان يكون قد تألم ، وانه واحد من الذين عاشوا . والحق انه يستحق وجهه ، لانه لم يستخف لحظة بطريقة الحفاظ على ماضيه واستعماله : كل ما هنالك انه حشاه ، واتخذ منه تجربة لاستعمال النساء والشبان .

أن السيد اشيل سعيد كما لا بد انه لم يكنه منذ وقت طويل . انه يتثاءب اعجاباً ، وهو يشرب قدحه من « البر » بجرعات صغيرة بنفخ لها خدبه ، لقد عرف الطبيب حقا كيف يأخذه ! ان الطبيب ليس هو الشخص الذي ينسحر بمجنون قديم الى درجة ان تحدث نوبته ، ان ما يحتاجونه ضربة مفاجئة وبضع كلمات كأنها السوط . ان للطبيب تجربته ، فهو محترف للتجارب : ان الاطباء والكهنة والقضاة والضباط يعرفون الانسان كما لو انهم صنعوه .

احس الخجل من اجل السيد اشيل . اننا من طينة واحدة ، وينبغي لنا ان نتحد ضدهم . ولكنه تخلى عني وانحاز الى جانبهم : وهو يؤمن ايماناً مخلصاً بها ، « بالتجربة » . لا بتجربته ، ولا بتجربتي . وانما بتجربة الدكتور روجيه ، كان السيد اشيل يشعر الساعة بأنه عجيب ، وكان لديه احساس بأنه وحيد ، اما الآن فهو يعلم ان ثمة آخرين في مثل وضعه ، آخرين كثيرين : فلقد التقى بهم الدكتور روجيه ، وسيكون بوسعه ان يروي للسيد اشيل قصة كل منهم ويقول له كيف انتهت . كل ما في الأمر ان السيد اشيل « حالة » تتلخص في سهولة ببضع افكار عامة .

كم اود ان اقول له انهم يخدعونه ، وانه لعبة بيد الهامين . محترفو تجربة ؟ لقد قضوا حياتهم في الكسل المخدر والسبات ، ولقد تزوجوا على عجل ، بدافع من نفاد الصبر ، وصنعوا اطفالاً بالاتفاق . لقد التقوا الناس الآخرين في المقاهي ، وفي حفلات الأعراس ، وفي حفلات الدفن . وبين

الفينة والفينة ، كان يأخذهم الاندفاع ، فيتخبّطون من غير ان يفهموا ما يحدث لهم . ان كل ما حدث حولهم ابتدأ وانتهى خارج نطاق نظرهم ، اشكالٌ طويلة غامضة ، وأحداثٌ آتية من بعيد قد لامستهم بسرعة ، وحين ارادوا ان ينظروا ، كان كل شيء قد انتهى ، وبعد ذلك ، حين بلغوا الاربعين ، عمّدوا صنوف عنادهم الصغيرة وبضعة امثال باسم تجربة ، وبدأوا يجعلون انفسهم آلات توزيع اوتوماتيكية : درهمان في الشق الأيسر ، وها هي حكايات مغلّفة بورق فضّي ، ودرهمان في الشق الأيمن ، وها هي نصائح ثمينة تلتصق بالأسنان كالكراميل المائع . وسيكون بوسعي انا ايضاً ، في هذا الصدد ، ان أدعى للدخول الى بيوت الناس ، بحيث يقولون فيما بينهم انني رحّالة كبير ازاء « الخالد » . اجل ، ان المسلمين يمرّون راكعين ، وتستعمل القابلات القانونيات الهندوكيات ، عوضاً عن نبات الارغوتين ، الزجاج المسحوق في روث البقر ، وفي بورنيو ، حين تصاب الفتاة بالطمث ، تقضي ثلاثة ايام وثلاث ليال عل سطح بيتها . وقد رأيت في فينيسيا عمليات دفن في « الغوندول » ، وحضرتُ في إشبيلية اعياد « الاسبوع المقدس » ، كما شاهدت « آلام المسيح » لاوبر امبرغو . وبالطبع ، ليس ذلك كله الا « عينة » هزيلة عن معلوماتي : فبوسعي ان انقلب فوق كرسي وأبدأ في لهجة تسلية :

« اتعرفين جيهلافا ، يا سيدتي العزيزة ؟ انها مدينة صغيرة عجيبة من مدن مورافيا مكثت فيها عام ١٩٢٤ » ...

وعند نهاية قصتي يتولى الكلام رئيس المحكمة الذي رأى حالات كثيرة :

« كم هذا صحيح ، يا سيدي العزيز . وكم هو انساني : لقد رأيت حالة مشابهة في بدء حياتي القضائية . كان ذلك عام ١٨٠٢ ، وكنت قاضياً مناوباً في ليموج » ...

غير انهم بالغوا بازعاجي بهذا في شبابي . بالرغم من انني لم اكن من اسرة محترفين . ولكن هناك ايضاً هواة . انهم امناء السر ، والموظفون ، والتجار ، ولولئك الذين يصغون الى الآخرين في المقهى : انهم يُحسّون أنفسهم منتفخين ،

حين يقاربون الأربعين من العمر ، بتجربة لا يستسيغون ان يُسيلوها في الخارج . ومن حسن الحظ انهم قد صنعوا اولاداً ، فهم يجبرونهم على ان يستهلكوها عن كثب . انهم يودّون ان نصدّق ان ماضيهم لم يضع ، وان ذكرياتهم قد تركّزت وتحوّلت بعذوبة الى « حكمة » . فيا للماضي المناسب ! ماضي جيب ، كتاب صغير مذهّب ، مليء بالحكم الجميلة . « صدّقوني ، انني احدّثكم عن تجربة ، وكل ما اعرفه قد قبسته من الحياة » . اترى «الحياة» قد حملت عبء التفكير عنهم ؟ انهم يشرحون الجديد بالقديم — وقد شرحوا القديم بأحداث اشدّ قدماً ، على غرار اولئك المؤرخين الذين يجعلون من لينين روبسبيراً روسياً ، ومن روبسبير كرمويلاً فرنسياً : فهم في آخر المطاف لم يفهموا شيئاً على الإطلاق ... اننا نكتشف وراء أهميتهم كسلاً شرساً : فهم يرون مظاهر تترى امامهم ، فيتثاءبون ، ويفكرون بأن لا شيء جديداً تحت السماوات . « مجنون قديم » — وكان الدكتور روجيه يفكر بغموض في مجانين آخرين لا يذكر احداً منهم بصورة خاصة . والآن ، لن يستطيع شيء مما سيفعله السيد اشيل ان يفاجئنا : « ما دام » مجنوناً قديماً !

انه ليس مجنوناً قديماً : بل هو خائف . ممّ عساه يكون خائفاً ؟ ان من يريد ان يفهم شيئاً ، يقف تجاهه وحده ، من غير عون ، وماضي العالم كله لا يملك ان يقدّم اية خدمة . ثم يختفي الشيء ، وما فُهم منه يختفي معه .

اما الأفكار العامة فهي اكثر اغراءً ومخادعة . ثم ان المحترفين وحتى الهواة ينتهي بهم الامر الى ان يكونوا على حق . ان حكمتهم توصي باثارة اقل ما يمكن من الضجة ، وبالعيش اقل ما يمكن ، وبالتداعي للنسيان . وأفضل حكاياتهم حكايات الطائشين الشاذّين الذين نالوا عقابهم . اجل : ان الامر يجري هكذا ، وليس ثمة من يقول العكس ، ربما لم يكن السيد اشيل مرتاح الضمير جداً ، وربما يقول لنفسه انه ما كان يبلغ هذا المبلغ لو انه استمع الى نصائح ابيه واخته الكبرى . ويحق للطبيب ان يتكلم : فانه لم يخسر حياته ولم يفوّتها ، لقد عرف ان يكون مفيداً . وهو ينتصب ، هادئاً وقادراً ، فوق هذا

الحطام ، انه صخرة .

كان الدكتور روجيه قد شرب قدح الكالفادوس . وكان جسمه الكبير متكوّماً ، وجفناه مسترخيين بتثاقل . وللمرة الاولى ، ارى وجهه من غير العينين : فكأنه قناع كرتوني ، كتلك الأقنعة التي تباع اليوم في الحوانيت ، ان الخدّيه لوناً وردياً مربعاً ... وبدت لي الحقيقة فجأة : ان هذا الرجل سيموت عما قريب . وهو يعرف ذلك بالتأكيد ، وحسْبُه ان يكون قد نظر الى نفسه في مرآة : فهو يزداد كل يوم شبهاً بالجثة التي سيكونها. بهذا تتلخص تجربتهم ، ولهذا السبب قلت لنفسي غالباً ان رائحة الموت تنبعث منها : فذلك هو دفاعهم الأخير . ان الطبيب يودّ كثيراً ان يصدّق الأمر ، يودّ لو يقنع الواقع الذي لا يُحتمل : من انه وحيد ، بلا خبرة ، ولا ماض ، وأنّ له عقلاً يتدبّق ، وجسماً ينحلّ . من اجل هذا تراه قد بنى جيداً هذيانه التعويضي الصغير ، ورتّبه جيداً ، وغلّفه جيداً : فهو يقول لنفسه انه يتقدّم . ان له فجوات في الفكر ، لحظات تدور الأمور فيها دوراناً فارغاً في رأسه ؟ ذلك انّ حكمه كفّ عن ان يمتاز بعجلة عهد الشباب . انه لا يفهم بعد ما يقرأ في الكتب ؟ ذلك انه قد اصبح الآن شديد البعد عن الكتب . انه لا يستطيع بعد ان يقوم بعمل الحب ؟ ولكنه قام به . فأنّ يكون المرء قد قام بعمل الحب ، أفضل كثيراً من ان يستمر في القيام به : انه بالارتداد الى خلف يحكم ويقارن ويفكّر. ولكي يستطيع ان يتحمّل رؤية هذا الوجه المربع ، وجه الجثة ، في المرايا ، فانه يجهد للاعتقاد بان دروس التجربة قد نُقشت فيه .

ويدير الطبيب رأسه قليلاً ، وينفتح جفناه ، فينظر اليّ بعينين ورّدهما النعاس . وأبتسم له . انني أودّ لو تكشف له هذه البسمة كل ما يحاول ان يخفيه عن نفسه : ان هذا هو ما سوف يوقظه ، اذا استطاع ان يقول لنفسه : « هو ذا انسان « يعرف » اني سأموت ! » ولكن جفنيه يُسبلان من جديد : انه ينام . وأخرج ، تاركاً السيد أشيل يسهر على نومه .

لقد انقطع المطر ، وأصبح الهواء عذباً ، وكانت السماء تُقلّب في هدوء

صوراً جميلة سوداء : وكان ذلك اكثر من كاف لصنع إطار لحظة كاملة ، لقد كان جديراً بآني ، لكي تعكس هذه الصور ، ان تولـّد في قلبينا بحيرات صغيرة معتمة . اما انا . فلا أُحسن انتهاز الفرصة : انني امضي تائهاً ، خالياً وساكناً ، تحت هذه السماء التي لا تُستعمل .

الاربعاء

« يجب الا اخاف »

الخميس

كتبت اربع صفحات . وبعد ذلك ، فترة طويلة من السعادة . ينبغي الا ابالغ في التفكير بقيمة « التاريخ » فأن ذلك يوشك ان ينفـّرني منه . يجب الا انشر ان السيد دوروليون يمثـّل ، في الساعة التي هو فيها ، التبرير الوحيد لوجودي .

سألقى آني بعد ثمانية ايام .

الجمعة

كان الضباب من الكثافة ، في جادة « لاروتوند » ، بحيث حسبت من الحكمة ان احاذي جدران « الكازيرن » ، وكانت اضواء السيارات الى يميني تطرد امامها نوراً ميتلاً ، وكان مستحيلاً ان يعرف المرء ايان كان ينتهي الرصيف . وكان حولي اشخاص ، وكنت اسمع وقع اقدامهم ، واحياناً ، طنين كلامهم : ولكني لم اكن ارى احداً . وذات مرة ، تشكـّل على مستوى كتفي وجه امرأة ، ولكن الضباب ما لبث ان ابتلعه ، ومرة اخرى ، لامسني آخر وهو يلهث بشدّة . ولم اكن ادري اين انا ذاهب ، فقد كنت شديد

الاستغراق : كان ينبغي التقدم بحذر ، وجسّ الارض بطرف القدم ، بل ومدّ اليدين الى امام . والحق اني لم اكن اصيب أية متعة بهذا التمرين . ومع ذلك ، فاني لم اكن افكر بالعودة الى غرفتي ، فقد كنت مأخوذاً . واخيراً ، لمحت في البعيد بعد نصف ساعة تخاراً ازرق . واذ توجهت اليه ، بلغت طرف شعاع كبير ، عرفت فيه مقهى مابلي الذي كان يخرق بأصواته الضباب .

ان لمقهى مابلي اثني عشر مصباحاً كهربائياً ، ولكن لم يكن مضاءً منها الا اثنان ، احدهما فوق الصندوق ، والآخر في السقف . ودفعني الخادم الوحيد الى زاوية مظلمة .

- ليس من هنا يا سيدي ، فانا انظّف .

وكان يرتدي سترة ، بلا صدرة ولا ياقة منشاة ، مع قميص ابيض مخطّط بالبنفسجي . وكان يتثاءب وينظر اليّ بهيئة عابسة وهو يمر أصابعه في شعره .

- فنجان قهوة مع « الكرواسان » .

وفرك عينيه من غير ان يجيب ، وابتعد . وكانت العتمة تحيط بي حتى عينيّ ، ظلمة مثلوجة قذرة . ان المدفأة لم تكن مضاءة ، بلا شك .

ولم اكن وحدي . كانت امرأة ذات بشرة شمعية جالسةً قبالتي ، تتحرك يداها بلا انقطاع ، تارة لتلامسا قميصها ، وتارة لتسويّا قبّعتها السوداء على رأسها . وكانت بصحبة رجل طويل اشقر كان يأكل خبز « البريوش » من غير ان ينبس بحرف.وبدا لي الصمت ثقيلاً .وكانت بي رغبة لأشعل غليوني ، ولكن كان يزعجني ان اجذب انتباههما بفرقعة عود ثقاب .

جرس تلفون . وتوقفت اليدان : وظلتا معلقتين بالقميص . وتباطأ الخادم في الاجابة ، وظلّ يكنس على مهل ، قبل ان يقرر اخيراً الذهاب لرفع السمّاعة . « آلو ؟ السيد جورج ؟ مرحباً ، يا سيد جورج ... نعم ، يا سيد جورج .. المعلّم ليس هنا ... نعم ، لا بد انه قد هبط ... آه ، في مثل هذا الطقس الضبابيّ ... عادته ان يهبط حوالي الثامنة .. نعم ، يا سيد جورج ،

سأنقل اليه الرسالة . مع السلامة ، يا سيد جورج ! »

كان الضباب يثقل على زجاج النوافذ كستار ثقيل من المخمل الرمادي . والتصق وجه بالزجاج ذات لحظة ثم اختفى .

وقالت المرأة بلهجة شاكية :

– إربط لي حذائي .

فقال الرجل من غير ان ينظر :

– انه غير منحل .

فغضبت ، وأخذت يداها تتلمسان قميصها ورقبتها كأنهما عنكبوتان كبيران .

– بلى ، بلى ، إربط لي حذائي .

فانحنى بهيئة مزعجة ولمس قدمها لمساً خفيفاً تحت الطاولة :

– لقد فعلت .

فابتسمت في رضى . ونادى الرجل الخادم :

– كم هو الحساب ؟

فقال الخادم : – كم قطعة « بريوش » اخذتما ؟

وكنت قد خفضت عيني حتى لا أبدو كمن يحدجهم . وبعد بضع ثوان ، سمعت بعض فرقعات ، ورأيت طرف تنورة ونعلين ملوثين بوحل جاف . وتبعهما نعلا الرجل ، وكانا براقين مدببين وتقدّما نحوي ، ثم تسمرا واستدارا نصف استدارة : كان يرتدي معطفه . وفي هذه اللحظة ، اخذت يد تهبط على التنورة ، تمت الى ذراع صلبة ، وترددت قليلاً ، وهي تحك التنورة .

وقال الرجل : – هل أنت على استعداد ؟

وانفتحت اليد وجاءت تلمس نجمة عريضة من الوحل على الحذاء الأيمن ، ثم اختفت .

قال الرجل : – اوف !

وكان قد تناول حقيبة قرب المشجب . وخرجا ، ورأيتهما يدلفان في الضباب .

وقال لي الخادم : وهو يحمل لي قهوتي :

– انهما فنانان ، وهما اللذان قدّما « نمرة » الاستراحة في سينما بالاس . إن المرأة تعصب عينيها وتقرأ الاسم الاول للمشاهدين وعمرهم . وهمـا ذاهبان اليوم ، لأنه يوم الجمعة ، وفيه يتغيّر البرنامج .

وذهب ليأتي بصحن من « الكرواسان » كان على الطاولة التي غادرهـا الفنـان .

– لا حاجة بي إليها .

لم تكن بي رغبة لآكل تلك القطع من « الكرواسان » .

– يجب ان أطفىء الكهرباء . مصباحان لزبون واحد ، في الساعة التاسعة صباحاً : إن المعلم سيناقشني الحساب .

وغمرت العتمة المقهى ؛ كان ضوء هزيل ، ملطخ بالرمادي والأسمر ، يسقط الآن من واجهات الزجاج العليا .

– أريد ان أرى السيد فاسكيل .

ولم أكن قد رأيت العجوز داخلة . وهبّت نفحة هواء مثلوج ، فارتعشت لهـا .

– لم يهبط السيد فاسكيل بعد .

فاستطردت تقول : – ان السيدة فلوران هي التي بعثتني ، انها متوعكة ، وهي لن تأتي اليوم .

والسيدة فلوران هي أمينة الصندوق ، ذات الشعر الاحمر .

وقالت العجوز : – إن هذا الطقس مزعج ، لا يناسب بطنها .

فاتخذ الخادم هيئة اهتمام وأجاب :

– إنه الضباب ، وهذا شبيه بشأن السيد فاسكيل ؛ ويدهشني انه لم يهبط . لقد طلبوه على التلفون . وهو عادة ، يهبط في الساعة الثامنة .

فنظرت العجوز آلياً الى السقف :

ـ انه فوق ؟

ـ نعم ، تلك غرفته .

فقالت العجوز بصوت ممطوط ، كما لو انها كانت تتحدث الى نفسها :

ـ لنفرض انه مات ...

فعبّر وجه الخادم عن غيظ شديد وقال :

ـ آه ! شكراً لك ، شكراً !

لنفرض انه مات... لقد ألمّت هذه الفكرة بذهني . وهذا حقاً نوع الافكار التي تراود المرء في هذا الطقس من الضباب .

وخرجت العجوز . وكان عليّ ان أحذو حذوها : فقد كان الطقس بارداً ومظلماً . وكان الضباب يتسرب من تحت الباب ، وكان يوشك ان يصعد ببطء ويغرق كل شيء . ولو كنت في « المكتبـة البلدية » لوجدت نوراً وناراً .

ومن جديد أقبل وجهٌ ينسحق على الزجاج ، وكان يكشّر . فقال الخـادم في غضب وهو يخرج راكضاً :

ـ انتظر قليلاً .

وامّحى الوجه ، فبقيت وحدي . وأنحيت عـلى نفسي باللائمة المريرة أني غادرت غرفتي . لا بد ان يكون الضباب قد غمرها الآن ، فاذا دخلتها ، فلا بد ان يأخذني الخوف .

وفرقع شيء ما في العتمة ، خلف الصندوق . وكان ذلك صادراً عن السلّم الخاص . أتراه المدير يهبط أخيراً ؟ لا ، إن احداً لم يظهر ، كانت الدرجات تفرقع من تلقاء نفسها . وكان السيد فاسكيل ما يزال نائماً . او ربما كان قـد مات فوق رأسي . عُثر عليه ميتاً في سريره ، ذات صباح ضبابي . ـ وفي عنوان اصغر : في المقهى ، كان الزبائن يشربون من غير ان يشعروا ...

ولكن ، أكان ما يزال في سريره ؟ أتراه لم يسقط ، جاذباً اللحاف معه ،

صادماً رأسه بالأرض الخشبية ؟

إنني اعرف السيد فاسكيل معرفة جيدة . وقد سأل أحياناً عن صحتي ، انه انسان سمين مرح ، ذو لحية مرتبة : فاذا مات ، فلا بد ان يكون السبب نوبة، وسيكون بلون الباذنجان ، ولسانه خارج فمه، ولحيته في الهواء ، ورقبته بنفسجية تحت الشعر المجعد .

كان السلم الخاص يضيع في الظلام . وكنت لا أكاد استطيع ان أميز الكرة من الدرابزين . ينبغي عبور هذا الظلام . وسوف يفرقع السلّم . وفوق، سأجد باب الغرفة ...

إن الجسم هناك ، فوق رأسي . اذا صعدت ، فسأدير مفتاح الضوء : وسألمس تلك البشرة الدافئة ، لأرى . ولم أستطع الاحتمال بعد ، فنهضت ، اذا فاجأني الخادم في السلّم ، فسأقول له اني سمعت ضجة .

وعاد الخادم فجأة ، وهو يلهث ، وصاح :

– نعم ، يا سيدي .

الأحمق ! وأقبل نحوي :

– فرنكان .

فقلت له : – سمعت ضجة فوق .

– إن الوقت ليس باكراً !

– نعم ، ولكني اعتقد ان هناك شيئاً ما : فكأنها حشرجات ، ثم إنها قد حدثت ضجة عميقة .

وفي تلك الحجرة المظلمة ، بهذا الضباب خلف الزجاج ، كان ذلك يبدو طبيعياً جداً . انني لن أنسى نظرة عينيه تلك .

وأضفت بمخاتلة : – عليك ان تصعد لترى .

قال : – أوه ، لا : أخشى ان يوبخني . كم هي الساعة ؟

– الساعة العاشرة .

– سأصعد اليه في العاشرة والنصف ، إن لم يهبط .

وقمت بخطوة نحو الباب .

ــ هل انت ذاهب ؟ ألا تبقى ؟

ــ لا .

ــ أكانت حشرجة حقيقية ؟

فقلت له وأنا أهمّ بالخروج :

ــ لا أدري ، ربما كان ذلك لأني كنت أفكر فيه .

وكان الضباب قد انحسر قليلاً ، وأسرعت في سلوك شارع « تورنوبريد » . كنت بحاجة الى اضوائه . ولكني أصبت بالخيبة : كان ثمة نورٌ بكل تأكيد ، وكان يسيل على زجاج الحوانيت . ولكنه لم يكن نوراً مرحاً : كان ابيض كل البياض بسبب الضباب ، وكان يسقط على كتفيك كماء « الدوش » .

كثير من الناس ، ولا سيما من النساء : خادمـات ووصيفات ومديرات ايضاً ، من هاتيك اللواتي يقلن : « انني اشتري بنفسي ، فهـذا أضمن » . وكنّ يشممن الواجهات قليلاً ، ثم ينتهي بهن الأمر الى الدخول .

وتوقفت امام بائع اللحوم جوليان . وكنت أرى بين الفينة والفينـة ، عبر المرآة ، يداً تومىء الى الارجل المحشوة بالكمأة والى الامعاء . وإذ ذاك ، كانت فتاة سمينة شقراء تنحني ، مبذولة الصدر ، وتأخذ بين اصابعها طرف اللحم الميت . وقد كان السيد فاسكيل ميتاً في غرفته ، على بعد خمس دقائق .

وبحثت فيما حولي عن مرتكز صلب ، عن حماية لي من أفكاري . ولكني لم أجد : رويداً رويداً ، كان الضباب قد تمزق ، ولكن شيئاً ما مغلقاً كان باقياً يتمطى في الشارع . ربما لم يكن تهديداً حقيقياً : فهو قد امحى ، شفافاً . ولكن هذا بالذات هو ما كان ينتهي باشاعة الخوف . وأسندت جبيني بالواجهة ولاحظت على « مايونيز » بيضة معدة على الطريقة الروسية قطرةً ذات لون احمر معتم : كان ذلك دماً . وكان هذا الاحمر على ذلك الاصفر يثير اشمئزازي .

وفجأة ، حدثت لي رؤية : لقد سقط احد الاشخاص ، وجهه الى أمام

ينزف في صحون الطعام . وكانت البيضة قد تدحرجت في الدم ، وانفصلت عنها قطعة البندورة التي كانت تكللها ، فسقطت حمراء على اللون الاحمر . وكان المايونيز قد سال قليلاً : فاذا هو بحيرة من القشدة الصفراء تقسم قناة الدم الى ذراعين .

« إن هذا غاية في البلادة ، فيجب ان أنتفض . انني ذاهب للعمل في دار الكتب » .

العمل ؟ كنت أعلم جيداً أنني لن أكتب سطراً واحداً . انه نهارٌ آخر يضيع ، ورأيت ، وأنا أعبر الحديقة العامة ، على المقعد الذي اعتدت ان أجلس عليه ، رداءً كبيراً ازرق جامداً . هذا الانسان لا يصاب بالبرد .

وحين دخلت غرفة المطالعة ، كان العصاميّ يهم بأن يغادرها . وارتمى عليّ :

ـ يجب ان اشكرك يا سيدي . إن صورك قد جعلتني أقضي ساعات لا تنسى .

وغمرتني لحظة أمل إذ رأيته : ربما كان من الأيسر قضاء هذا النهار ، حين نكون اثنين . ولكن ، مع العصامي لن نكون اثنين إلا في الظاهر .

وضرب بيده على مجلّد ، كان « تاريخ الأديان » .

ـ يا سيدي ، لم يكن ثمة من هو أكفأ من « نوسابيه » لمحاولة وضع هذا المؤلَّف التركيبي . أهذا صحيح ؟

كان الوهن بادياً عليه ، وكانت يداه ترتجفان . وقلت له :

ـ إن وجهك ينمّ عن التعب .

ـ آه ، أظن ذلك يا سيدي . ذلك انه حدث لي حادث كريه .

وكان الحارس قادماً نحونا : انه كورسيكي قصير غضوب ، ذو شاربين يشبهان شاربي ضارب طبل كبير . وهو يتنزّه ساعات طويلة بين الطاولات ، صافقاً نعليه . وهو في الشتاء يبصق في مناديل يجففها بعد ذلك على الموقد .

واقترب « العصامي » حتى كان فمه يزفر امام وجهي ، وقال لي بلهجة

مسارّة :
– لن أقول لك شيئاً امام هذا الرجل . اذا كنت تريد ، يا سيدي ؟...
– ماذا ؟
فاحمرّ وجهه ، وتمايل كشحاه بلطافة :
– سيدي ، آه يا سيدي : إنني أرتمي في الماء . هل تشرفني بتناول الغداء معي يوم الاربعاء ؟
– بكل رضى .
وكانت رغبتي في تناول الغداء معه تشبه رغبتي في شنق نفسي . وقال العصامي :
– أية سعادة تحققها لي !
ثم أضاف بسرعة :
– سآتي لاصطحابك من بيتك ، اذا كنت تريد .
واختفى ، ولا شك ان ذلك كان خوفاً من أن أغيّر رأيي إذا ترك لي الوقت الكافي لذلك .
كانت الساعة الحادية عشرة والنصف . وقد اشتغلت حتى الثانية إلا ربعاً ، وكان عملاً رديئاً : صحيح ان كتاباً كان تحت نظري ، ولكن ذهني كان ما يني يرجع الى مقهى مابلي . ترى ، أيكون السيد فاسكيل قد هبط الآن ؟ الحق انني لم أكن اؤمن كثيراً ، في أعماقي ، بموته ، وهـذا بالذات ما كان يزعجني ! كانت هذه فكرة عائمة لم أكن أستطيع ان اقتنع بها ولا ان أنجـو منها . وكان نعلا الكورسيكي يصطفقان على الارض الخشبية . وقد أتى مرات عديدة يتزرع أمامي ، وعليه هيئة من يريد التحدث إليّ . ولكنه كان يعدل . ويبتعـد .
وحوالي الساعة الواحدة ، خرج آخر المطالعين . ولم أكن جائعاً ، وكنت خاصـة لا أريد ان اذهب . وعملت فترة أخرى ثم انتفضت : كنت أحسّني مكفّناً بالصمت .

ورفعت رأسي : كنت وحيداً . ولا بد ان الكورسيكي قد هبط الى زوجته التي كانت بوابة المكتبة ، وكانت بي رغبة لسماع صوت قدميه . وكل ما سمعته صوت سقوط فحم في الموقد . وكان الضباب قد غشي القاعة : ليس الضباب الحقيقي ، الذي كان قد تبدد منذ وقت طويل – وانما الضباب الآخر ، ذلك الذي كانت الشوارع ما تزال ملأى به ، والذي كان يخرج من الجدران ، ومن الأرض المبلّطة . انه لون من لاكثافة الاشياء ، وكانت الكتب ما تزال هنا ، بالطبع ، مصفوفة وفق الأبجدية على الرفوف ، بظهورهـا السوداء او السمراء وطابعهـا ا ع . أ ف ٧٩٩٦ (استعمال للعموم – أدب فرنسي) او أ ع ، ع ط (استعمال للعموم ، علوم طبيعية) . ولـكن ... كيف أفسّر ؟ انها عادةً ، بقوتها وكثافتها ، مع الموقد ، والمصابيح الخضر ، والنوافذ الكبيرة ، والسلالم ، تسد المستقبل . وما دام المرء باقياً بين هذه الجدران ، فان ما سيحدث ينبغي ان يحدث الى يمين الموقد او يساره . حتى ولو كان عـلى القديس دنيس ان يدخل حاملاً رأسه بين يديه ، فيجب ان يدخل من اليمين ، وأن يمشي بين الرفوف المخصصة للأدب الفرنسي والطاولة المخصصة للقارئات . وإذا لم يمس الارض ، اذا عام على ارتفاع عشرين سنتيمتراً من الارض ، فان عنقـه الدامية ستكون على ارتفاع رف الكتب الثالث . وهكذا تُجدي هذه الاشياء ، على الاقل ، في تثبيت حدود ما هو محتمل الوقوع .

ولكنها اليوم لم تكن تثبت شيئاً على الاطلاق : بل كان يبدو ان وجودهـا بالذات موضع شك ، وانها كانت تعاني اكبر المشقة للانتقال من لحظة الى أخرى . وشددتُ بين يدي بقوة المجلد الذي كنت أقرأ فيه : ولكن أعنف المشاعر كانت قد ضعفت . ولم يكن شيء ليبدو حقيقياً ، وكنت أحسّني محاطاً بديكور كرتوني يمكن ان ينتزع فجأة من مكانه . كان العالم ينتظر ، وهـو يُمسك نفَسَه ، وهو يتصاغر – كان ينتظر نوبته ، « غثيانه » كما حدث للسيد أشيل ، في ذلك اليوم .

ونهضت ، لم يكن بوسعي بعد ان أتماسك وسط هـذه الاشياء التي لحقتها

الضعف والوهن : وقت لألقي نظرة من النافذة على رأس امبراز . وتمتمت : « كل شيء » يمكن ان يحدث ، « كل شيء » يمكن ان يحصل . بالطبع ، ليس نوع ما هو فظيع الذي اخترعه البشر ؛ إن امبراز لن يأخذ في الرقص على قاعدته : وانما سيكون شيئاً آخر .

ونظرت في ذعر الى هذه الكائنات غير الثابتة التي ربما انهارت بعد ساعة او بعد دقيقة : أجل، لقد كنت هنا، كنت أعيش وسط هذه الكتب الزاخرة بالمعارف ، التي كان بعضها يصوّر الاشكال التي لا تتغير للأجناس الحيوانية ، وكان بعضها الآخر يشرح أن كمية الطاقة تحتفظ بنفسها كلياً في العالم ؛ كنت هنا، واقفاً قرب نافذة كان لزجاجها علامة انعكاس محدّدة . ولكن ما أضعفها من حواجز ! انني أفترض ان العالم يتشابه من يوم لآخر ، بداعي الكسل . انه يبدو اليوم وكأنه يريد ان يتغيّر . وإذ ذاك يمكن ان يحدث « كل شيء » . « كل شيء » .

ليس لديّ وقت أضيعه : إن اصل هذا القلق يعود الى قصة مقهى مابلي . يجب ان أعود اليه ، وأن أرى السيد فاسكيل على قيد الحياة ، وأن ألمس عند الحاجة لحيته او يديه . وعند ذاك ، ربما أتحرر .

وتناولت معطفي على عجل ، وألقيته على كتفيّ من غير ان ارتديه ؛ انني أهرب. وفيما كنت أعبر الحديقة العامة ، وجدت في المكان نفسه الرجل ذا الرداء؛ وكان له وجه ممتقع هائل بين أذنين قرمزيتين من فرط البرد .

وكان مقهى مابلي يشع من بعيد : لا بدّ ان المصابيح الاثني عشر كانت مضاءة كلها . وحثثت خطوي: كان ينبغي ان أنتهي من الأمر . وألقيت أولاً بنظرة عاجلة من الفتحة الكبيرة المزجّجة ،كانت القاعة خالية . لم تكن أمينة الصندوق هناك ، ولا الخادم — ولا السيد فاسكيل .

وكان عليّ ان أبذل جهداً كبيراً لأدخل ، ولم أجلس . بل صحت : « غارسون ! » فلم يجب احد . كان ثمة فنجان فارغ على طاولة . وقطعة سكّر على الصحن .

ـ أليس هنا أحد ؟

كان ثمة معطف يتدلى من مشجب ، وكانت مجلات مركومة في صناديق كرتونية سوداء موضوعة على طاولة ذات عمود واحد . وأرهفت سمعي لأدنى صوت ، ممسكاً انفاسي . وفرقع السلّم الخاص فرقعة خفيفة . وفي الخارج ، صفارة باخرة . وخرجت متقهقراً ، من غير ان أغادر السلّم بعيني .

أعرف جيداً : ان الزبائن نادرون ، في الساعة الثانية بعد الظهر . كان السيد فاسكيل مريضاً ، ولا بد انه كان قد ارسل الخادم في مهمة ــ ربما للعودة بطبيب. نعم ، ولكن القضية اني كنت « بحاجة » لأن ارى السيد فاسكيل. وعند مدخل شارع تورنوبريد ، التفتّ ، وتأملت في اشمئزاز المقهى المشعّ الخالي . كانت الشبابيك مقفلة ، في الطابق الاول .

واستولى عليّ ذعرٌ حقيقي . ولم اكن ادري اين كنت اتجه بعد . وعدوت بمحاذاة احواض السفن ، وانعطفت الى الشوارع المقفرة في حيّ «بوفوازي» : كانت البيوت تنظر اليّ هارباً بعيونها الكئيبة . وكنت اردّد لنفسي في ضيق : اين اذهب ؟ اين اذهب ؟ يمكن ان يحدث «كل شيء» . وبين الفينة والفينة ، كنت اقوم بنصف استدارة فجائية ، خافق القلب : ما الذي كان يحدث في ظهري ؟ ربما كان ذلك سيبدأ خلفي ، حتى اذا التفتّ ، فجأة ، يكون الاوان قد فات . وما دام في مكنتي ان احدّق في الاشياء ، فلن يحدث شيء : وكنت انظر الى كل ما كنت استطيع النظر اليه ، من الطرق والبيوت وقناديل الغاز ، وكانت عيناي تنتقلان بسرعة من احداها الى الاخرى ، لتفاجئها وتوقفها وهي في إبّان تحوّلها . ولم تكن هيئتها طبيعية جداً ، ولكني كنت اقول لنفسي في قوة : ان هذا قنديل غاز ، وهذا نبع ، وكنت احاول ، بقوة بصري ، ان احيلها الى مظهرهما اليومي . وقد التقيت مرات عديدة بحانات في طريقي : «مقهى سكان بريتانيا» ، «حانة البحرية» . وكنت اقف ، وأتردّد امام ستائرها المصنوعة من التول الوردي: ربما لم تُمس، هذه «العُلب» المحكمة جداً، وربما كانت ما تزال تنطوي على اثارة من عالم الأمس ، معزولة ، منسيّة ،

ولكن كان ينبغي دفعُ الباب ، والدخول . ولم اكن اجرؤ ، فكنت امضي في سبيلي . وكانت ابواب البيوت خاصةً : تخيفني . كنت اخشى ان تنفتح من تلقاء نفسها . وانتهى بي الأمر الى السير وسط الشارع .

وأفضيت فجأة الى محطة « احواض الشمال » . قوارب صيد ، بخوت صغيرة ، ووضعت قدمي على حلقة حديدية محفورة في الحجر . هنا ، بعيداً عن البيوت ، بعيداً عن الابواب ، سيتاح لي ان اعرف لحظة راحة . وعلى الماء الهادىء المنقّط بحبوب سود ، كانت سدادة تعوم .

« و « تحت » الماء ؟ ألم تفكر بما عساه يكون « تحت » الماء ؟ »

حيوان ؟ بيت سلحفاة غارق الى منتصفه في الوحل ؟ ان اثني عشر زوجاً من الأرجل تفلح الوعاء على مهل . والحيوان يرتفع قليلاً ، بين الفينة والفينة . في جوف الماء . ودنوت ، مترصّداً حركة ما ، تموّجاً خفيفاً . وظلّت السدادة جامدة ، وسط الحبوب السود .

وفي تلك اللحظة ، سمعت اصواتاً . كان قد آن الاوان لذلك . واستدرت على نفسي ، وواصلت سيري .

وأدركت الرجلين اللذين كانا يتكلمان ، في شارع « كاستيغليون » . ولدى سماعها وقع اقدامي ، ارتعشا بعنف والتفتا معاً . ورأيت عيونهما القلقة تتجه نحوي ، ثم خلفي ، لترى اذا كان شيء آخر قادماً . لقد كانا اذن مثلي ، لقد كانا اذن خائفين ؟ وحين تجاوزتهما ، تبادلنا النظر : ولولا قليل ، لتبادلنا الكلام . ولكن الأنظار عبّرت فجأة عن الحذر · ان المرء في مثل هذا اليوم لا يتحدّث الى ايّ كان .

وألفيتني في شارع « بوليبه » ، وأنا ألهث . واذن ، فقد حكم القدر : انني سأعود الى « دار الكتب » وسأتناول رواية ، وأحاول ان اقرأ . واذ حاذيت حاجز الحديقة العامة ، لمحت الرجل ذا الرداء . كان ما يزال هناك ، في الحديقة المقفرة ، وكان انفه قد اصبح في مثل احمرار اذنيه .

وكنت اهمّ بدفع الحاجز ، ولكن تعبير وجهه سمّرني : كان يغض

عينيه ويقهقه نصف قهقهة ، بهيئة بليدة مسترخية . ولكنه كان في الوقت نفسه يحدّق في شيء امامه لم اكن استطيع رؤيته ، بنظرة قاسية جداً وكثيفة جداً ، حتّى انني التفتّ فجأة .

كان ثمة تجاهه ، فتاةٌ صغيرة في حوالي العاشرة من عمرها . فاغرة فها ، رافعةً احدى قدميها ، تتأمّله مبهورة وهي تشدّ بعصبية على منديل عنقها وتمدّ وجهها المدبّب الى امام .

وكان الرجل يبتسم لنفسه ، كمن يوشك ان يقوم بعمل مازح . وفجأة نهض واضعاً يديه في جيبي ردائه الذي كان يتدلى حتّى قدميه . وخطا خطوتين فانداحت عيناه . وحسبت انه سيسقط ، ولكنه ظلّ يبتسم بسمةً متناومة .

وفهمت فجأة : الرداء ! وكنت اود ان امنع ذلك . وكان حسبي ان اسعل ، او ان ادفع الحاجز . ولكني كنت مسحوراً ، بدوري ، بوجه الطفلة الصغيرة ، كانت ملامحها متمدّدة بالخوف ، ولا بد ان قلبها كان يخفق خفقاً مريعاً : غير انني قرأت على خُطم هذه الفأرة شيئاً ما قوياً وشرّيراً . لم يكن ذلك فضولاً ، بل كان الاحرى لوناً من الانتظار المطمئن . وأحسستني عاجزاً : كنت في الخارج ، عند حافة الحديقة ، عند حافة مأساتهما الصغيرة ، ولكنهما هما ، كانا مشدودين احدهما الى الآخر بقوة رغائبها الغامضة ، كانا يشكّلان زوجاً . وأمسكت انفاسي ، وكنت اريد ان ارى ما الذي سيرتسم على ذلك الوجه الذي بدأ يشيخ ، حين يعمد الرجل ، خلف ظهري ، الى ابعاد ذيول ردائه .

ولكن الصغيرة نفضت رأسها فجأة ، وأخذت تعدو ، متحرّرة . وكان الرجل ذو الرداء قد رآني : وكان هذا ما أوقفه . وقد ظلّ لحظة جامداً وسط الممرّ ، ثم مضى ، مستدير الظهر . وكان رداؤه يصطفق بربلة ساقه .

ودفعت الحاجز ، وأدركته بقفزة ، وصحت :

– إيه ! إسمع !

فأخذ يرتعش . وقلت له بتأدّب ، حين مررت به :

– إن خطراً شديداً يثقل على المدينة .

دخلت قاعة المطالعة ، وتناولت « لارشارتروز دوبارم » التي كانت موضوعة على طاولة . وكنت أحاول ان أستغرق في قراءتي ، وأن اجد ملجأ في ايطاليا المشرقة كما وصفها ستاندال . وكنت ابلغ ذلك بالتدريج ، وبهلسنات قصيرة ، ثم كنت أسقط ثانية في ذلك النهار المهدّد ، قبالة شيخ قصير كان يتنحنح ، وشاب كان يحلم وهو مستلقٍ على كرسيه .

وكانت الساعات تنقضي ، والواجهات تصبح سوداء . وكنا اربعة ، بالاضافة الى الكورسيكي الذي كان يسجّل على طاولته آخر مقتنيات المكتبة . كان هناك ذلك العجوز القصير ، والشاب الأشقر ، وامرأة شابة تعدّ شهادة الليسانس ، وأنا . وكان احدنا يرفع رأسه بين الفينة والفينة ، فيُلقي نظرة سريعة خدرة على الثلاثة الآخرين ، كما لو انه كان يخشاهم . وذات لحظة ، اخذ العجوز القصير يضحك : فرأيت المرأة الشابة ترتعش من رأسها الى قدميها . ولكني كنت قد تهجّأت بالمقلوب عنوان كتاب كان يقرأه : إنه رواية مرحة .

الساعة السابعة الا عشر دقائق . وفكرت فجأة ان دار الكتب كانت تغلق ابوابها في الساعة السابعة . سيُلقى بي مرة اخرى في المدينة . فأين عساني اذهب ؟ وما الذي سأفعله ؟

وكان العجوز قد انجز روايته ، ولكنه لم يكن ليذهب . كان يضرب الطاولة بأصابعه ضربات منتظمة جافة . وقال الكورسيكي :

– ايها السادة سنغلق الابواب عما قليل .

فانتفض الشاب ورماني بنظرة موجزة . وكانت المرأة الشابة قد التفتت الى الكورسيكي ، ثم اخذت كتابها من جديد ، وبدت وكأنها تغرق فيه .

وقال الكورسيكي ، بعد خمس دقائق :

– اننا نغلق .

فهزّ العجوز رأسه بهيئة مترددة . ودفعت المرأة الشابة كتابها ، ولكن من

غير ان تنهض .

ودُهش الكورسيكي . وقام بعدة خطوات مترددة ، ثم ادار مفتاحاً كهربائياً فانطفأت المصابيح على طاولات المطالعة ، وظل المصباح المركزي وحده مضاءً . وسأل العجوز على مهل :

– ينبغي ان نذهب ؟

ونهض الشاب متباطئاً ، على مضض . وقد انفق من الوقت اكثر من اي آخر ليرتدي معطفه . وحين خرجت ، كانت المرأة ما تزال جالسة ، وقد بسطت احدى يديها على كتابها .

وفي اسفل السلّم ، كان الباب يفغر فمه لليل ، وانفتل الشاب ، وكان في الطليعة ، فهبط السلّم على بطء ، واجتاز الممرّ ، وتلبّث لحظة عند العتبة ، ثم ارتمى في الليل واختفى .

وحين بلغت اسفل السلم ، رفعت رأسي ، وبعد لحظة ، غادر العجوز الصغير قاعة المطالعة ، وهو يزرّر معطفه . وحين هبط الدرجات الثلاث الاولى ، اندفعت غاطساً وانا مغمض عينيّ .

وأحسستُ على وجهي مداعبة صغيرة رطبة . وكان ثمة في البعيد من يصفر . ورفعت جفني : كانت السماء تمطر . مطر عذب هادىء . وكانت الساحة مضاءة ، بسكون ، بقناديلها الأربعة . ساحة ريفية تحت المطر . وكان الشاب يبتعد بخطى واسعة ، كان هو الذي يصفر : وأخذتني الرغبة ان اصيح بالآخرين اللذين لم يكونا قد عرفا بعد ، أن بوسعهما ان يخرجا بلا خوف ، وان الخطر قد زال .

وظهر العجوز القصير على العتبة . فحكّ خدّه بهيئة مرتبكة ، ثم ابتسم ابتسامة عريضة ، وفتح مظلّته .

صباح السبت

شمس فاتنة ، مع ضباب خفيف يَعِدُ بطقس جميل ذلك النهار . وقد

تناولت فطوري في مقهى مابلي .

وقد منحتني السيدة فلوران ، امينة الصندوق ، بسمة عذبة . وصحت من طاولتي :

– هل يكون السيد فاسكيل مريضاً ؟

– نعم ، يا سيدي ؛ انه « كريب » شديد . وهو مضطر الى ملازمة فراشه بضعة ايام . ولقد وصلت ابنته هذا الصباح من دنكرك . وستقيم هنا للعناية به .

انني سعيدٌ حقاً بأن ارى آني من جديد ، للمرة الاولى منذ تلقيت رسالتها . ما الذي فعلته منذ ستة اعوام ؟ اترانا سنتضايق حين نلتقي من جديد ؟ ان آني لا تعرف ما هو الضيق . سوف تتلقاني كما لو اني تركتها امس . المهم الا اتصرّف بحماقة ، الا ازعجها باديء ذي بدء . وان اتذكّر الا امدّ لها يدي ، حين تصل : انها تحتقر ذلك .

كم يوماً سنبقى معاً ؟ ربما عُدت الى بوفيل . يكفي ان تعيش فيها بضع ساعات ، ان تنام ليلة في فندق برنتانيا . وبعد ذلك ، سيختلف الموقف ، ولن اشعر بعد بالخوف .

بعد الظهر

حين قمت ، في العام الماضي ، بزيارتي الاولى لمتحف بوفيل ، استوقفتني صورة اوليفه بلافيني . أبسبب خطأ في النِسَب ؟ ام في المنظور ؟ ما كنت لأستطيع ان اثبت ، لكن شيئاً ما كان يزعجني : ان هذا النائب لم يكن مستقرّ الهيئة على قماشة لوحته .

وعدت بعد ذلك لأشاهده عدة مرات . ولكن ضيقي لم يكن ينقضي . لم اكن اريد الإقرار بأن بوردوران ، الحائز على جائزة روما وعلى ست مداليات اخرى ، قد ارتكب غلطة في الرسم .

ولكني تبينت الحقيقة ، بعد ظهر هذا اليوم ، وانا اقلّب صفحات مجموعة قديمة لصحيفة « ساتيريك بوفيلوا » ، وهي صحيفة شانتاج اتّهم صاحبها في

اثناء الحرب بالخيانة . وسرعان ما غادرت دار الكتب وذهبت اليوم بجولة في المتحف .

وعبرت عتمة الممر بسرعة . ولم تكن خطواتي لتحدث اية ضجة على البلاطات البيض والسود . وكان شعب "كامل" من الجص" يلوي حولي اذرعته ، وقد لمحت عبر فتحتين كبيرتين اواني مشقّقة وصحوناً وانساناً بقدمي تيس ، أزرق أصفر ، يقوم على قاعدة . كانت تلك قاعة « برنار باليسي » المخصصة للسيراميك وللفنون الصغرى . ولكن السيراميك لا يضحكني . كان ثمة سيد وسيدة يرتديان ثياب الحداد ويتأملان هذه الاشياء المطبوخة باحترام .

وفوق مدخل القاعة الكبرى — او قاعة بوردوران — رونيدا — كانوا قد علقوا ، منذ وقت بعيد بلا شك ، لوحة كبيرة لم اكن اعرفها . وكانت تحمل توقيع ريشار سيفيران ، وتُدعى « موت العازب » . وكانت اللوحة هبة" من الدولة .

كان العازب متمد"داً على سرير مدعوك ، عارياً حتى النطاق ، وقد اخضر صدره قليلاً ، كما يجدر بالأموات . وكانت الأغطية والشراشف المدعوكة تنمّ عن احتضار طويل . وابتسمت وانا اذكر السيد فاسكيل . انه لم يكن وحده ، فابنته كانت تعتني به . وعلى اللوحة ، كانت الخادم ذات الملامح الشريرة ، قد فتحت درج خزانة وأخذت تعد الدراهم . وكان باب مفتوح يتيح ، في الظل ، رؤية رجل ذي قبعة كان ينتظر ، وقد التصقت سيكارة بشفته السفلى . وبالقرب من الجدار ، كانت قطة تلعق حليباً بلا اكتراث .

لم يكن هذا الرجل قد عاش الا لنفسه . وعقاباً صارماً وجديراً به ، لم يجيء احد" فيغمض له عينيه ، وهو على سرير الموت . وكانت هذه اللوحة تعطيني انذاراً اخيراً : ان الاوان لم يفت بعد ، وقد كان بوسعي ان اعود على اعقابي . ولكن لأعرف جيداً هذا ، اذا تجاهلت ذلك الانذار : ان ثمة في القاعة الكبيرة التي سأدخلها اكثر من مئة وخمسين صورة معلقة على الجدران ، فاذا استثنينا بضعة شبان نُزعوا باكراً من أسرهم ، ومديرة ميتم ، فليس في الذين

مُثّلوا هناك واحد قد مات اعزب ، وليس فيهم من مات بلا اولاد او بلا وصية او بلا تناول الأسرار . ان هؤلاء الناس الذين كانوا على علاقة طيبة مع الرب ومع الناس ، في ذلك اليوم كما في الايام الاخرى ، قد دلفوا على مهل الى الموت ، ليذهبوا فيطالبوا بنصيب الحياة الابدية الذي كان يحقّ لهم .

ذلك انه كان يحق لهم كل شيء: الحياة والعمل والثروة والقيادة والاحترام واخيراً الخلود .

فرغتُ الى نفسي لحظة ، ثم دخلت . وكان ثمة حارس ينام قرب نافذة . وكان نور اشقر يسقط من الواجهات فيخلّف لطخات على اللوحات . لم يكن ثمة ما هو حيّ في هذه القاعة الكبيرة المستطيلة ، باستثناء قطة اخذها الخوف عند دخولي فهربت . ولكني احسست نظر مئة وخمسين زوجاً من العيون تحطّ عليّ .

ان جميع الذين كانوا ينتمون الى نخبة بوفيل بين ١٨٧٥ و ١٩١٠ كانوا هنا ، رجالاً ونساء . وقد رسمهم رونودا وبوردوران برقة وعناية .

لقد بنى الرجال كنيسة سانت — سيسيل — دولامبر . وأسسوا عام ١٨٨٢ اتحاد مجهزّي المراكب والتجار في « بوفيل » لكي « يجمعوا في ضُمَة قوية جميع ذوي الارادة الطيبة ، ويسهموا في الانعاش القومي ويحبطوا محاولات الاحزاب التخريبية » ... وقد جعلوا من بوفيل افضل مرفأ تجاري فرنسي تجهيزاً لتفريغ الفحم والخشب . كان عملهم تمديد المحطات وتوسيعها . وقد اعطوا « المحطة البحرية » كل الاتساع المطلوب ، وعمّقوا حتى ١٠,٧٠ امتار ماء الإرساء للجزر المنخفض . وذلك بواسطة عمليات متصلة لجرف الرمل . وفي عشرين عاماً ، ارتفعت حمولة سفن الصيد التي كانت ٥٠٠٠ برميل في عام ١٨٦٩ ، الى ١٨٠٠٠ برميل ، بفضل جهودهم . انهم لم يكونوا يتراجعون عن بذل اية تضحية لتسهيل نجاح افضل ممثلي الطبقة العاملة ، ولذلك انشأوا بمحض مبادرتهم مختلف مراكز التعليم التكنيكي والمهني التي ازدهرت تحت جناح رعايتهم . وهم قد حطّموا اضراب عمال المرافىء الشهير عام

١٨٩٨ ووهبوا الوطن اولادهم عام ١٩١٤ .

أما النساء، رفيقات هؤلاء المناضلين الكريمات، فقد أنشأن معظم المؤسسات الخيرية وملاجىء الفقراء ومشاغل البنات . ولكنهن كنّ ، قبل كل شيء ، زوجات وأمهات . وقد ربّين اولاداً جميلين ، وعلّمنهم واجباتهم وحقوقهم والدين ، واحترام التقاليد التي صنعت فرنسا .

وكان طابع الصور العام يميل الى الأسمر المعتم . وقد كانت الالوان الفاقعة مُبعدة ، بدافع من الاحتشام . ومع ذلك ، فان ثلج الشعر والسوالف في لوحات رونودا الذي كان يؤثر رسم الشيوخ ، كان يحسم الالوان على ارضيات سود؛ وكان يبدع في رسم الايدي . اما عند بوردوران الذي كانت طرائقه أقل وضوحاً ، فان الايدي كانت مهملة بعض الشيء ، خلافاً للياقات المنشّاة التي كانت تلمع كالمرمر الابيض .

كان الحر شديداً ، وكان الحارس يشخر على مهل . وألقيت نظرة دائرية على الجدران : فرأيت أيادي وعيوناً ؛ وهنا وهناك ، كانت لطخة ضوء تأكل وجهاً . وإذ كنت متجهاً نحو صورة اوليفه بلافيني ، استوقفني شيء ما : كان التاجر « باكوم » يُسقط عليّ من الرواق نظرة مشرقة .

كان واقفاً ، مميلاً رأسه بعض الشيء الى خلف ، ممسكاً بيده قبعة عالية وقفازين بإزاء بنطلونه الرمادي . ولم أتمالك ان اكنّ له بعض اعجاب : فانني لم اكن أرى فيه شيئاً وسطاً ، شيئاً يمكّن النقد منه : إن له قدمين صغيرتين ، ويدين دقيقتين ، وكتفي مصارع عريضتين ، وأناقة خفيّة ، مع إثارة من جموح الهوى . وكان يهب الزوّار ، في بشاشة ، نقاوة وجهه الذي لا تجعّد فيه ؛ بل ان ظل ابتسامة كان يرفّ على شفتيه . غير ان عينيه لم تكونا تبتسمان. وكان يوحي انه في حوالي الخمسين : كان نضراً وفتياً كما لو أنه في الثلاثين . كان جميلاً .

وعدلت عن رأيي ان فيه خطأ . ولكنه ، هو ، لم يتركني . فقد قرأت في عينيه حكماً هادئاً مصرّاً .

وفهمت آنذاك كل ما كان يفصلنا : إن ما يمكن ان أفكّره بصدده لم يكن ليدركه ، كان مجرد تحليل نفسي ، كذاك الذي يُصنع في الروايات . ولكن حكمه كان يخترقني كالسيف ويضع حتى حقي في الحياة موضع التساؤل . وقد كان هذا صحيحاً ، وكنت دائماً أدركه : لم يكن لي حق الحياة . لقد ظهرتُ اتفاقاً ، وكنت موجوداً كحجر ، كنبتة ، كجرثومة . كانت حياتي تنمو سعيدة ، وفي كل اتجاه . وكانت ترسل لي احيـاناً إشارات غامضة ، وأحياناً أخرى لم أكن أشعر إلا بطنين لا غاية له .

أما بالنسبة لهذا الرجل الجميل ، الخالي من النقائص ، الذي مات اليوم ، بالنسبة لجان باكوم ، ابن باكوم « الدفاع الوطني » ، فقد كان الأمر مختلفاً : إن خفقات قلبه وأصوات اعضائه كانت تجيئه بشكل حقوق صغيرة نقيّة فجائية. ولقد استعمل ، طوال ستين عاماً ، بلا ضعف ولا هوادة ، حق الحيـاة ، يا للعينين الرماديتين الرائعتين ! إنهما لم تعرفا أدنى شك . وكذلك باكوم ، إنه لم يخطىء قط .

لقد قام دائماً بواجبه ، واجبه كله ، واجبه كابن وكزوج وكأب وكقائد. وكان ايضاً قد طالب بحقوقه دون ما هوادة : حين كان صبياً ، طالب بحقه بأن يُربّى تربية جيدة ، في أسرة موحّدة ، حق وارث لاسم غـير ملطخ ، وارث لعمل مزدهر ؛ وكزوج ، طالب بحقه بأن يُعنى بـه ويحاط بالحب العطوف ؛ وكأب ، طالب بحقه بأن يُحترم ؛ وكقائد ، طالب بحقه بأن يطاع ، دون مـا همس . ذلك ان الحق ليس إلا المظهر الآخر للواجب . ولا بد ان نجاحه الهائل (إن اسرة باكوم هي اليوم أغنى أسرة في بوفيل) لم يدهشه قط. إنه لم يقل لنفسه قط انه كان سعيداً ؛ وحين كان يحقق إحدى رغباته ، كان ينصرف اليها في اعتدال ، قائلاً « اني استريح » . وهكذا كانت الرغبة تدخل هي ايضاً في صف الحق ، فتفقد تفاهتها الاعتدائية . وقد لاحظت أنه كان الى يساره ، فوق شعره الرمادي المزرق ، كتبٌ مصفوفةٌ عـلى رفٍّ وكان تجليدها جميلاً ، لقد كانت بالتأكيد من أمهات الكتب الكلاسيكية . ولا ريب

في ان باكوم كان يعيد ، مساء ، قبل ان ينام ، قراءة بضع صفحات من كتب « صديقه القديم مونتاني » او انشودة لهوراس في الاصل اللاتيني . ولا بد انه كان يقرأ ، أحياناً أخرى ، مؤلفاً معاصراً ، على سبيل الاطلاع . وعلى هذا النحو ، عرف « باريس » و « بورجيه » . وكان يضع الكتاب بعد فترة ويبتسم. فيصبح نظره ، وقد فقد تنبّهه ، شبه حالم . وكان يقول: « ما أبسط ان يؤدي المرء واجبه ، وما اصعب ذلك ! »

ولم يسبق له قط ان قام بارتداد آخر على نفسه : لقد كان قائداً .

وكان ثمة قواد آخرون معلّقين على الجدران : بل لم يكن ثمة غير ذلك . كان قائداً ، ذلك الشيخ الطويل المخضرّ اللون الجالس على أريكة . وكانت صدرته البيضاء تذكراً ناجحاً بشعره الفضي (في هذه الصورة المرسومة خصوصاً لغايات التسليح الحلقي ، والتي كانت الدقة فيها تبلغ حدّ الوسواس ، لم يكن الهمّ الفنيّ غائباً) وكان يضع يده الطويلة الدقيقة على رأس صبي صغير. وكان كباب مفتوح يستريح على ركبتيه اللتين كانتا محاطتين بغطاء. ولكن نظره كان يتيه في البعيد . كان يرى جميع هذه الاشياء التي لا يراها الشبان . وكان اسمه قد كتب على معيّنة من الخشب المذهب ، تحت صورته : وكان المفروض ان يُسمى باكوم او بارونين او شينيو . فانه لم يخطر لي ان أذهب فأرى : فبالنسبة لأقاربه ، ولهذا الصبي ، ولنفسه ، كان بكل بساطة الجد ؛ فاذا كان الآن يحكم بأن الساعة قد حانت ليُطلع حفيده على مدى واجباته المقبلة ، فانه سيتكلم عن نفسه بصيغة الغائب .

– عِد جدّك بأن تكون عاقلاً ، يا صغيري الحبيب ، وبأن تدرس جيداً في العام القادم . فربما غاب الجد ، في العام القادم .

لقد كان ، في مساء الحياة ، ينشر على كل انسان طيبته الرحيمة . ولو كان يراني انا بالذات – ولكني شفاف إزاء نظراته – لوجدت في عينيه الرحمة : سوف يفكر بأنه كان لي في الماضي جدود . ولم يكن يطلب شيئاً : إن المرء حين يبلغ هذه السن يفقد كل شهوته . لم يكن يطلب إلا ان يخفض الناس

صوتهم قليلاً حين يدخل ، وإلا ان تحمل البسمات ، حين يمر ، ظلاً من حنان واحترام ، وإلا ان تقول بنت زوجته احياناً : « إن أبي هائل ؛ انه أقوى منا جميعاً » ، وإلا ان يكون وحده القادر على تهدئة غضب حفيده بأن يضع له يديه على رأسه وأن يستطيع ان يقول له بعد ذلك : « ان الجد هو الذي يُحسن ان يؤاسي هذه الهموم الكبيرة » . وإلا ان يأتي ابنه ، بضع مرات في العام ، ليطلب نصائحه حول القضايا الدقيقة، وإلا ان يحسّ أخيراً أنه هادىء، مطمئن ، عاقل الى ابعد حدّ . ولقد كانت يد السيد العجوز تلامس ملامسة خصلات شعر حفيده : كان ذلك شبه بركة . ثمّ عساه كان يفكر ؟ بماضيه المشرّف الذي كان يمنحه حق التحدث بكل شيء وأن تكون له الكلمة الاخيرة في كل شيء . إنني لم اكن ذلك اليوم بعيداً بما فيه الكفاية: لقد كانت «التجربة» اكثر من دفاع ضد الموت ؛ كانت حقاً : حق الشيوخ .

والجنرال اوبرى ، المعلّق في الرواق ، بسيفه الكبير ، كان هو ايضاً قائداً . وكذلك الرئيس هيبير ، المتعلم المرهف ، صديق امبتراز . كان وجهه طويلاً ومتناسباً ذا ذقن لا ينتهي ، تنقّطه خصلة زغب صغيرة تحت الشفة السفلى : وكان يُبرز فكه قليلاً ، بحيث تبدو عليه هيئة من يحرص على التميّز ، او على اصدار اعتراض مبدئي ، كجشأة خفيفة . كان يحلم ، وكان يُمسك بريشة أوزة : هو ايضاً كان ، لعمري ، يستريح ، وكان ذلك بقرض الشعر . ولكن كانت له عين القادة النسرية .

والجنود ؟ كنت في وسط القاعة ، قبلة أنظار جميع هذه العيون الجادّة . انني لم أكن جداً ، ولا أباً ، حتى ولا زوجاً . ولم أكن أقترع ، وأكاد لا ادفع إلا بعض الضرائب : لم أكن استطيع ادعاء حقوق المكلّف ، ولا حقوق الناخب ، حتى ولا حق السرف المتواضع الذي تضفيه على المستخدم عشرون عاماً من الطاعة . وكانت حياتي قد بدأت تدهشني بصورة جادة. لم أكن مجرد مظهر .

وقلت لنفسي فجأة : « هيه ! انني انا الجندي ! » وأضحكني ذلك ،

بلا حقد .

ورد لي بسمة جميلة رجل خمسيني سمين . وكان رونودا قد رسمه في محبة ، ولكنه لم يضف عليه لمسات بالغة الحنان بالنسبة للأذنين الممتلئتين الدقيقتين ، ولا لليدين خاصة ، الطويلتين العصبيتين بأصابعهما المنفرجة : انهما يدا عالم او فنان حقيقيتان . وكان وجهه مجهولاً عندي : ولا بد أني غالباً ما مررت باللوحة من غير ان أنتبه اليه . واقتربت فقرأت : « ريمي باروتين ، مولود في بوفيل ، عام ١٨٤٩ ، أستاذ في مدرسة الطب بباريس » .

باروتين : لقد سبق للدكتور واكفيلد ان حدثني عنه :

« التقيت ذات مرة في حياتي رجلاً طويلاً . كان يدعى ريمي باروتين . وقد تابعت محاضراته خلال شتاء ١٨٠٤ (وأنت تعرف أني قضيت عامين في باريس لأدرس فن التوليد) وقد أفهمني ما هو القائد . وأقسم لك انه كان يملك تياراً يكهربنا حتى يصبح بإمكانه ان يقودنا طوعاً الى آخر الدنيا . وكان الى ذلك انساناً نبيلاً : كان يملك ثروة ضخمة يخصص قسماً كبيراً منها لمساعدة الطلاب الفقراء » .

هكذا أوحى لي امير العلم هذا ، اذ سمعت به للمرة الأولى ، ببعض المشاعر القوية ، وهأنذا الآن أمامه ، وهو يبتسم لي . وكم كان في بسمته من ذكاء وبشاشة ! وكان جسمه السمين يستريح باسترخاء في جوف اريكة جلدية كبيرة . لقد كان هذا العالم البعيد عن الغرور يوحي للناس فوراً بالاطمئنان والرضى . ولولا روحانية نظرته لمال الانسان الى اعتباره رجلاً أقرب الى السذاجة .

وليس المرء بحاجة الى وقت طويل ليدرك سر نفوذه : لقد كان محبوباً لأنه كان يفهم كل شيء ، وكان بامكان المرء ان يقول له كل شيء وبالاجمال كان يشبه ريتان بعض الشبه ، مع مزيد من التميز . كان من هؤلاء الذين يقولون :

« الاشتراكيون ؟ الحقيقة انني ، انا ، أذهب أبعد مما يذهبون ؟ » وحين

يتبعه المرء في هذا الدرب الخطر ، فانه لن يلبث طويلاً حتى يهجر ، وهو يرتعش ، الأسرة والوطن وحق التملك وأقدس القيم. بل إنه ليشك لحظة بحق النخبة البورجوازية في القيادة . وخطوة اخرى ، واذا بكل شيء فجأة يعود الى نصابه ، قائماً على أسس صلبة ، بصورة مدهشة. فاذا التفت بعد ذلك، لمح خلفه الاشتراكيين ، وقد ابتعدوا . وأصبحوا صغاراً ، وهم يلوّحون بمناديلهم صائحين : « إنتظرنا ! »

والحق اني كنت اعرف ، عن طريق واكفيلد ، أن « المعلّم » كان يحب ، كما يقول هو نفسه مبتسماً ، ان « يولّد الأرواح » . ولما كان قد بقي شاباً ، فانه كان يحب ان يحيط نفسه بالشباب : كان غالباً ما يستقبل شبان الأسر المرموقة الذين كانوا يتجهون الى قراءة الطب . وقد قصده واكفيلد غير مرة وتناول الطعام في منزله . وكان « المعلم » يدلف مع ضيوفه الى غرفة التدخين بعد الغداء ، فيعامل هؤلاء الطلاب معاملة الرجال ، بالرغم من انهم لا يكونون قد تجاوزوا بعدُ تدخين سيكاراتهم الاولى : فيقدم لهم السيكار . وكان يتمدد على ديوان ليتحدث طويلاً ، وعيناه نصف مغمضتين ، يحيط به جميع تلاميذه العطاش . وكان يبعث ذكريات ، ويروي حكايات يستخرج منها عبراً عميقة نافذة . واذا اتفق ان كان بين هؤلاء الشبان الذين ربّوا تربية صالحة ، شاب مشاكس معاند ، فان باروتين كان يوليه اهتماماً خاصاً . كان يدعوه للكلام ، ويستمع اليه باهتمام ، ويقدّم له أفكاراً وموضوعات للتأمل . وكان يأتي يومٌ بالضرورة ، يمتلىء فيه الشاب بالافكار السمحة ، ويثور للعداوة التي يلقاها من ذويه ، ويتعب من كونه يفكر وحده وضد الجميع ، فاذا هو يطلب من « المعلم » ان يستقبله على انفراد ، فيبوح له ، وهو يتمتم من فرط الخجل ، بأخفى أفكاره وآلامه وآماله . وكان باروتين يشدّه الى صدره ويقول له : «انني أفهمك . وقد فهمتك من اليوم الأول». وكانا يتحدثان ، ويمضي باروتين بعيداً ، ويمعن في البعد حتى يجد الشاب مشقة في متابعته . وبعد بضع

مقابلات على هذا النحو ، يمكن للمرء ان يلاحظ تقدماً محسوساً لدى الشاب المتمرد. إنه يتبصّر طريقه ، ويتعلم ان يعرف الصلات العميقة التي كانت تربطه بأسرته ومحيطه؛ ويفهم أخيراً دور النخبة الرائع. وينتهي الأمر بالنعجة الشاردة التي تبعت باروتين خطوة خطوة ، الى ان تجد نفسها ، بسحر ساحر ، وقد عادت الى « الحظيرة » ، واعية ، نادمة . لقد شفي من النفوس ، يقول واكفيلد منهياً حديثه ، أكثر مما شفيتُ من الاجسام ».

كان ريمي باروتين يبتسم لي ببشاشة . وكان حائراً ، يسعى الى ان يفهم وضعي لينعطف به على مهل ويعيدني الى الحظيرة . ولكني لم أكن أخافه : انني لم أكن نعجة . ونظرت الى جبينه الجميل الذي لا أثر فيه للتجعد ، وبطنه الصغير ، ويده المبسوطة على ركبته . وبادلته بسمته ثم تركته .

وكان جان باروتين ، اخوه ، رئيس جمعية S. A. B. يعتمد بكلتا يديه على حافة طاولة محملة بالأوراق ؛ وكان بوضعه كله يخبر الزائر بأن الجلسة كانت قد انتهت . كان نظره خارقاً ؛ كان كأنه مجرد ، وكان يلتمع بالحق الصافي . وكانت عيناه الباهرتان تلتهمان وجهه كله . وقد رأيت تحت هذا اللهب شفتين رقيقتين مشدودتين ، تشبهان شفتي صوفيّ . وقلت لنفسي « عجباً ، إنه ريمي باروتين . » والتفتّ الى «المعلم الكبير» : انني إذ أتفحصه، على ضوء هذا الشبه ، ارى فجأة على وجهه العذب ما لست أدريه من الجفاف والأسى ، من طابع الأسرة . وعدت الى جان باروتين .

كان لهذا الرجل بساطة الفكرة . ولم يكن باقياً منه سوى عظم ولحم ميت و « حق صاف » . وفكرت : حالة تملّك حقيقية . حين يستولي « الحق » على انسان ، فليس ثمة تعزيم يستطيع ان يطرده ؛ ولقد كرّس جان باروتين كل حياته للتفكير بـ « حقه » : لا شيء آخر . ولو كان بدلاً مني حين كنت أشعر بصداع خفيف كلما زرت متحفاً ، لشعر في صدغيه بحق الـسم في ان يُعنى به . وكان ينبغي ألا يُحمل أبداً على الإمعان في التفكير ، وألا يُلفت انتباهه الى وقائع غير سارة ، الى موته الممكن ، والى آلام الآخرين . ولا شك

في أنه قال لزوجته ، وهو على سرير الموت ، في تلك الساعة التي تواضع فيهــا الناس ، منذ سقراط ، على النطق ببعض الكلمات الرفيعة ، قال لزوجته ، كما قال احد اخوالي لزوجته التي كانت قد سهرت عليه اثنتي عشرة ليلة : « اني لا اشكرك انت ، يا تبريز ، فانت لم تقومي الا بواجبك » . وحين يبلغ رجل هذا المبلغ ، فيجب ان ترفع القبعة احتراماً له .

كانت عيناه اللتان حدقت فيهما بدهشة شديدة ، تومئان لي بالانصراف . ولكني لم أنصرف ، وكنت بكل تأكيد قليل الحذر . ولكوني قد تأملت طويلاً في مكتبة الاسكوريال صورة لفيليب الثاني ، كنت اعلم ان المرء حــين ينظر مواجهة الى وجه يتفجّر بالحق ، فان هذا التفجّر ينطفىء بعد لحظة ، ليخلّف أثراً من رماد : وهذا الأثر هو الذي كان يهمني . .

كان باروتين ينمّ عن مقاومة جميلة . ولكن نظره انطفأ فجأة ، وأصبحت اللوحة شاحبة . ما الذي كان باقياً ؟ عينان عمياوان ، والفم الدقيق الشبه بحيّة ميتة ووجنتان . وجنتا صبي شاحبتان مستديرتان : كانتا تتمددان على قماشة اللوحة . ولم يسبق لعمال جمعية S. A. B. ان لاحظوهما قط : فانهم لم يكونوا يبقون في مكتب باروتين وقتاً كافياً لذلك . لقد كانوا ، اذ يدخلون ، يلتقون هــذا النظر المربع كالجدار . وقد كان الحــدان ، من الخلف ، في منجى ، أبيضين رخوين . ترى ، كم كان على زوجته ان تنفق من الوقت لتلاحظهما ؟ عامين ؟ خمسة اعوام ؟ انني اتصور انها ذات يوم ، اذا كان زوجها نائماً الى جانبها ، وشعاع من القمر يلامس انفه ، او حين كان يهضم في مشقة ، عنــد الظهر القائظ ، مستلقياً فوق اريكة ، وعيناه نصف مغمضتين ، وبقعة شمس على ذقنه ، جرؤت على ان تنظر اليه مواجهة : فاذا بهذا اللحم كــله يبرز من غير حماية ، متورّماً ، رائــلاً ، فاجراً بغموض . ولا ريب في ان السيدة باروتين ، منذ ذلك اليوم ، قد تسلّمت القيادة .

خطوت بضع خطوات الى الخلف ، وشملت بنظرة واحدة جميع هــذه الشخصيات الكبيرة : باكوم ، الرئيس هيبير ، الاخوين باروتين ، الجنرال

اوبري كانوا قد اعتمروا جميعاً قبعات عالية ، وكانوا يلتقون، يوم الأحد ، في شارع تورنوبريد ؛ السيدة غراتيان ، زوجة المختار التي رأت القديسة سيسيل في نومها . فكانوا يوجهون لها تحيات احتفالية كبيرة ضاع سرّها .

كانوا قد رُسموا بدقة كبيرة ، ومع ذلك ، فان وجوههم كانت ، تحت الريشة ، قد جرّدت الضعف الخفيّ لوجوه الرجال . كانت طاعاتهم واضحة كالخزف ، حتى اشدّها ضعفاً : عبثاً كنت ألتمس فيها قرابة ما مع الشجر والحيوان ، مع افكار الأرض او الماء . كنت اعتقد جيداً انهم لم يُحسّوا بهذه الضرورة ، وهم على قيد الحياة . ولكنهم حين انتقلوا الى الخلود ، عهدوا بأنفسهم الى رسّام مشهور لكي يُحدث على وجوههم ، بصورة خفية ، تلك العمليات من الجرف والثقب والسقي التي غيّروا بها البحر والسهول حول مدينة بوفيل . وهكذا استعبدوا ، بمساعدة رونودا وبوردوران ، « الطبيعة » كلّها : خارج نفوسهم وداخلها . ان ما كانت هذه اللوحات المعتمة تهبه لأنظاري ، انما كان هو الانسان ، مفكَّراً به ثانية من قبل الانسان ، مع اجمل فتح حقّقه الانسان ، كزينة وحيدة : باقة « حقوق الانسان والمواطن » . انني معجب بحكم الانسان وسلطته ، من غير فكرة مبيّتة .

وكان سيد وسيدة قد دخلا . وكانا يرتديان السواد ويحاولان ان يتضاءلا ، وقد توقفا مأخوذيْن ، على عتبة الباب ، وحسر الرجل رأسه بآلية ، فقالت المرأة منفعلةً جداً :

– آه ، حسناً !

واستعاد الرجل برودته بأسرع منها ، وقال بلهجة احترام :

– انه عهدٌ برمّته .

فقالت المرأة : – نعم ، انه عهد جدّتي .

وخطوا بضع خطوات ، فالتقيا بنظر جان باروتين . وابثت السيدة فاغرة الفم . اما السيد ، فلم يكن معتزاً : كان يبدو بهيئة متواضعة ، ولا بدّ انه كان يعرف جيداً النظرات التي تبعث على الرهبة والجلسات المقصّرة . وقد جذب

زوجته من ذراعها على مهل وقال :

– انظري الى هذا .

كانت بسمة ريمي باروتين تعود دائماً بالراحة والرضى على المتواضعين ، واقتربت المرأة فقرأت في اجتهاد :

« صورة ريمي باروتين ، المولود في بوفيل ، عام ۱۸٤۹ ، استاذ في مدرسة الطب بباريس ، بريشة رونودا

قال زوجها : – باروتين ، من اكاديمية العلوم ، بريشة رونودا من « الانستيتو » . ان هذا من « التاريخ ! »

فهزّت السيدة رأسها ثم نظرت الى « المعلّم الكبير » ، وقالت :

– كم هو جميل ، وكم يبدو ذكياً !

فأتى الزوج حركةً واسعة ، وقال ببساطة :

– ان هؤلاء جميعاً هم الذين صنعوا بوفيل .

فقالت السيدة بلهجة عطوف :

– لقد احسنوا صنعاً بوضعهم جميعاً معاً ، هنا .

كنا ثلاثة جنود نقوم بعملية مناورة في هذه القاعة الواسعة . وكان الزوج يضحك احتراماً ، في صمت ، ثم رماني بنظرة قلقة وكفّ فجأة عن الضحك . وقد استدرت وذهبت انزرع تجاه صورة اوليفيه بلافيني . وغمرتني متعة عذبة : الواقع اني كنت على حق . كان ذلك عجيباً حقاً !

وكانت المرأة قد اقتربت مني ، فقالت ، وقد تشجعت فجأة :

– غاستون ، تعال !

فأقبل الزوج نحونا ، وتابعت المرأة :

– ان هناك شارعاً باسم هذا الرجل : اوليفيه بلافيني . اتعرفه ، ذلك الشارع الصغير الذي يتسلق « الرابية الخضراء » . قبل ان نصل الى جوكستابوفيل .

وأضافت بعد لحظة :

– انه لم يكن دمث الأخلاق .

– نعم . ولا بد انه كان يجد كثيراً من المحتجين الشرسين .

كانت العبارة موجهة الي . وقد نظر الي الرجل من زاوية عينه وأخذ يضحك في شيء من الصخب ، هذه المرة ، بهيئة متغطرسة متنطسة ، كما لو انه كان هو نفسه اوليفيه بلافيني .

لم يكن اوليفيه بلافيني يضحك . كان يصوب نحونا فكه المنقبض ، وكان حلقومه بارزاً .

وحدثت لحظة صمت وانتشاء ، ثم قالت السيدة :

– لكأني به يهم بأن يتحرك .

فأوضح الزوج بمراعاة :

– كان تاجراً كبيراً للقطن . ثم تعاطى السياسة ، وكان نائباً .

وكنت اعرف هذا . فمنذ عامين استشرت بشأنه « القاموس الصغير لرجال بوفيل الكبار » من وضع الاب موريليه . وقد نسخت المقال .

« بلافيني اوليفيه – مارتيال ، ابن السابق ، ولد ومات في بوفيل (١٨٤٩–١٩٠٨) درس الحقوق في باريس وحصل على درجة الليسانس عام ١٨٧٢ . وقد تأثر جداً بفتنة « الكومون » التي أجبرته ، ككثير من الباريسيين ، على اللجوء الى فرساي تحت حماية المجلس الوطني ، فأقسم ، وهو ما يزال في السن التي لا يحلم فيها الشبان الا باللذة ، «على ان يكرس حياته لإعادة النظام» وقد اوفى بعهده : فبمجرد عودته الى مدينتنا ، أسس « نادي النظام » الشهير الذي كان يجمع كل مساء ، لمدة سنوات طويلة ، اهم تجار بوفيل ومجهزيها . وهو النادي الارستوقراطي الذي قيل عنه ، على سبيل الفكاهة ، انه كان اكثر انغلاقاً من « الجوكي » ، احدث حتى عام ١٩٠٨ تأثيراً طيباً على مقدرات مرفأنا التجاري الكبير ، وقد تزوج اوليفيه بلافيني ، عام ١٨٨٠ ، ماري – لويز باكوم ، صغرى بنات التاجر شارل باكوم (أنظر هذا الاسم) وأسس ، عند موت هذا الأخير ، دار باكوم – بلافيني واولادهما . وبعد ذلك بقليل ،

التفت الى السياسة الفعّالة ورشّح نفسه للنيابة .

« وقد قال في خطاب له مشهور ، ان البلاد تعاني اخطر مرض : وهو ان الطبقة الموجّهة لا تريد ان تقود بعد . فمن الذي سيقود ، ايها السادة ، اذا كان اولئك الذين جعلتهم وراثتهم وتربيتهم وتجربتهم اجدر الناس بممارسة السلطة ينصرفون عنها بداعي التخلّي او التعب ؟ لقد سبق ان قلت غير مرة : ان القيادة ليست حقاً للنخبة ، بل هي واجبها الرئيسي . انني اتضرّع اليكم ايها السادة : لنعُدْ مبدأ السلطة الى نصابه ! »

وقد انتُخب في الثورة الاولى يوم ٤ تشرين الاول ١٨٨٥ ، واعيد انتخابه باستمرار منذ ذلك التاريخ . وقد ألقى بضعة خطب لامعة تميّز فيها بفصاحة قوية صلبة . وكان في باريس عام ١٨٩٨ حين انفجر الاضراب المريع ، فانتقل بسرعة الى بوفيل حيث اصبح محرّك المقاومة ، واتخذ مبادرة التفاوض مع المضربين . ولكن هذه المفاوضات التي أملتها روح مصالحة عريضة ، قُطعت بسبب وقيعة جوكستابوفيل . ومعلومٌ ان تدخّلاً سرياً قام به الجيش قد اعاد الهدوء الى النفوس .

وكان موت ابنه اوكتاف الذي دخل مدرسة البوليتكنيك وهو بعد فتيّ ، وكان يريد ان «يجعل منه قائداً» ضربةً هائلة أصابت اوليفيه بلافيني في الصميم. ولم ينهض بعد هذه الضربة ، فمات بعد ذلك بعامين في شباط ١٩٠٨ .

مجموعات خطب : « القوى المعنوية » (١٨٩٤ . نافد) « واجب العقاب » (١٩٠٠ . ألقيت جميع خطب هذه المجموعة بصدد قضية دريفوس . نافد) « ارادة » (١٩٠٢ . نافد) وقد جُمعت بعد موته خطبه الأخيرة مع بعض رسائل لأخصائه تحت عنوان Labor Improbus (دار بلون ١٩١٠) في علم الصور : ان له صورة ممتازة بريشة بوردوران في متحف بوفيل » .

صحيح انها صورة ممتازة . وقد كان اوليفيه بلافيني يحمل شارباً صغيراً اسود ، وكان وجهه الزيتوني يشبه قليلاً وجه موريس باريس . ولا شك ان الرجلين قد تعارفا . فقد كانا يجلسان على مقعد واحد . ولكن نائب بوفيل لم

يكن يملك لاإبالية رئيس « جامعة الوطنيين » . كان صلباً كالهراوة ، وكان ينبع من اللوحة كما ينبع شيطان من قمقمه . وكانت عيناه تقدحان شرراً : كان البؤبؤ اسود والقرنية محمرّة . وكان يقرص شفتيه الصغيرتين الريانتين ويشدّ يده اليمنى على صدره .

لكم أقلقتني ، هذه الصورة ! لقد كان بلافيني يبدو لي احياناً مفرط الطول ، وكان احياناً اخرى يبدو لي مفرط القصر . اما اليوم ، فاني اعرف ما كان امامي .

كنت قد علمت الحقيقة وانا اقلب جريدة « ساتيريك بوفيلوا » . وكان عدد يوم ٦ تشرين الثاني ١٩٠٥ مخصّصاً برمته لبلافيني . وقد مثّلوه على الغلاف صغيراً ، معلّقاً بعُرف الاب كومب ، مع هذه الفذلكة : « قمل الأسد » . وكان كل شيء يتضح منذ الصفحة الاولى : كان طول اوليفيه بلافيني متراً وثلاثة وخمسين . وكانوا يهزأون بقامته القصيرة وصوته الضفدعي الذي جعل مجلس النواب ، اكثر من مرة ، ينفجر ضاحكاً . وكانوا يتهمونه بأنه يضع اكعاباً من الكاوتشوك لنعليه وبالمقابل ،كانت السيدة بلافيني ،وهي من اسرة باكوم حصاناً . ويضيف المؤرخ قوله : « وهذا يعني ان ضعفه يساوي نصفها . »

متر وثلاثة وخمسون ! نعم : ان بوردوران كان ، بعناية فائقة ، قد احاطه بجميع تلك الاشياء التي لا تعرّضه للتصغير ، مقعد منخفض محشوّ ، اريكة واطئة ، رفّ ، طاولة فارسية صغيرة . على انه منحه القامة نفسها التي كان يملكها جاره جان باروتين ، وكانت للوحتين الأبعادُ نفسها . وكان ينتج من ذلك ان الطاولة الفارسية الصغيرة المرسومة في اللوحة الاولى ، كانت في مثل كبر الطاولة الهائلة المرسومة في الأخرى ، وان المقعد المنخفض المحشو كان بمحاذاة كتف باروتين . وكانت العين تقوم بالمقابلة بصورة غريزية : وكان هذا مصدر انزعاجي .

اما الآن ، فان بي رغبة للضحك : متر وثلاثة وخمسون ! لو اردت ان اتحدث الى بلافيني ، لوجب عليّ ان انحني او انطوي على الركبتين . ولم اكن

لأدهش بعدُ ان يرفع انفه في الهواء بمثل هذا التحدّي : ان قدّر الرجال الذين يملكون هذه القامة يُقرّر دائماً على بعد بضع بوصات فوق رؤوسهم .

يا لقوة الفنّ المعجبة ! لن نخلد شيء من هذا الرجل القصير ذي الصوت الثاقب ، الا وجه مهدّد ، وحركة رائعة وعينان داميتان تشبهان عينَي الثور . الطالب المذعور بسبب « الكومون » ، النائب القصير الهادر : هذا ما اخذه الموت . ولكن الذي خلد ، بفضل بوردوران ، هو رئيس « نادي النظام » وخطيب « القوى المعنوية » .

– اوه ! يا « لبيبو » الصغير المسكين !

كانت السيدة قد اطلقت صرخة مخنوقة : فقدكان تحت صورة اوكتاف بلافيني ، « ابن السابق » ، عبارة قصيرة خطتها يدٌ تقيّة :

« مات في مدرسة البوليتكنيك عام ١٩٠٤ »

– لقد مات ! شأنه في ذلك شأن الابن اروندبل . كان له مظهر الذكاء ، وكم شقّ ذلك على امه ، دون ريب ! والحقّ انهم يرهقونهم جداً في تلك المدارس الكبيرة . ان العقل يعمل ، حتى في اثناء النوم . اما انا ، فأحب كثيراً هذه القبعات ذات القرنين ، انها توحي بالاناقة.هل هي تُسمى « الكاسوار » ؟

– لا . ان قبعات « الكاسوار » يلبسها سكان سان – سير .

وتأملت بدوري طالب البوليتكنيك الذي مات صغيراً . والحق ان بشرته الشمسية وشاربه المفكّر يكفيان لإيقاف فكرة موت قريب . والواقع انه كان قد تنبأ بمصيره : فان نوعاً من الاستسلام يبدو في عينيه المشرقتين اللتين كانتا تنفذان الى البعيد . ولكنه في الوقت نفسه ، كان يرفع رأسه عالياً ، وكان بهذا الثوب العسكري يمثّل « الجيش الفرنسي » .

وردة مقطوعة ، طالب في البوليتكنيك قد مات : اي شيء ادعى الى الحزن ؟

وسرت على مهل في الرواق الطويل ، محيّياً من غير ان اقف الوجوه النبيلة التي كانت تخرج من الظلّ : السيد بوسوار ، رئيس المحكمة التجارية ، السيد

فابي رئيس مجلس ادارة مرفأ بوفيل المستقل، السيد بولانج، التاجر مع اسرته، السيد رانوكان، مختار بوفيل، السيد دولوسيان، المولود في بوفيل، سفير فرنسا في الولايات المتحدة وشاعر، مجهول في ثياب المحافظ، الام سانت ماري – لويز، مديرة الميتم الكبير، السيد والسيدة تبريزون، السيد ثيبوست – غورون، المدير العام لمجلس الحكماء، السيد بوبو المدير الرئيسي «للتسجيل البحري»، السادة بريون، مينيت، غرولو، لوفيفر، الدكتور بان وزوجته، بوردوران نفسه، مرسوماً بريشة ابنه بيار بوردوران. نظرات شفّافة باردة، ملامح دقيقة، افواه رقيقة، السيد بولانج كان ضخماً وصابراً، الام سانت – ماري – لويز ذات تقى بارع، السيد ثيبوست – غورون كان قاسياً على نفسه قسوته على الآخرين. اما السيدة تبريزون فقد كانت تقاوم مرضاً عميقاً من غير ان تهن. وكان فمها المتعب الى ابعد حدّ يعبّر عن عذابها تعبيراً كافياً. ولكن هذه المرأة التقية لم تقل قط «اني متألمة». وكانت تقاوم وتنتصر: كانت تشكّل جداول طعام وترئس جمعيات خيرية. وكانت احياناً، وهي في وسط عبارة من العبارات، تسبل جفنيها على مهل، فتغادر الحياة وجهها. ولم يكن هذا الاسترخاء يدوم اكثر من لحظة، فقد كانت السيدة تبريزون سرعان ما تفتح عينيها وتستأنف عبارتها. وكانوا يتمتمون في المشغل: «مسكينة السيدة تبريزون! انها لا تشكو ابداً».

كنت قد عبرت صالة بوردوران – رونودا بكل طولها. واستدرت، وداعاً ايتها الزنبقات الناعمة في معابدك المرسومة، وداعاً ايتها الزنبقات الجميلة، موضع فخرنا وسبب وجودنا، وداعاً ايها «القذرون».

الاثنين

انقطعت عن تأليف كتابي عن رولبون، انتهى الأمر، انني لا «أستطيع» بعدُ ان اكتبه. فما الذي سأصنعه بحياتي؟

كانت الساعة الثالثة. وكنت جالساً على طاولتي، وكنت قد وضعت على

جالبي رزمة الرسائل التي سرقتها في موسكو ، وكنت اكتب :

« اهتمّ البعض بنثر عدد من الاشاعات المؤذية . ولا بد ان السيد دوورلبون قد وقع في هذه المناورة ما دام قد كتب لحفيده ، بتاريخ ١٣ أيلول ، انه قد كتب وصيته » .

كان المركيز حاضراً : وبانتظار ان اسجّله نهائياً في الوجود التاريخي ، كنت اعيره حياتي . وكنت أُحسّ به حرارةً خفيفة في جوف معدتي .

وخطر لي فجأة اعتراضٌ لن يقصّر الناس في توجيهه اليّ : كان رولبون بعيداً عن ان يصارح بالحقيقة حفيده الذي كان يريد ان يستغله ، اذا فشلت قضيته ، كشاهد نفي بالقرب من بول الاول . فقد كان ممكناً جداً ان يكون قد اخترع قصة الوصية ليظهر بمظهر الساذج .

ولكن هذا اعتراضٌ تافه لا يثبت شيئاً . غير انه يكفي مع ذلك لإغراقي في حلم شرس . لقد تمثلت فجأة الخادم السمينة التي تعمل في مطعم « شي كميل » ، ورأس السيد اشيل الشارد ، والقاعة التي احسستني فيها منسياً ، متروكاً في الحاضر . وقلت لنفسي في ضجر :

« كيف استطيع ، انا الذي لم تكن لي قدرة حفظ ماضيّ بالذات ، ان اؤمل امكان انقاذ ماضي رجل آخر ؟ »

واخذت ريشتي وحاولت ان اعود الى العمل ، وكان لديّ ركامٌ كبير من هذه التأملات حول الماضي والحاضر والعالم . ولم اكن اطلب الا شيئاً واحداً : ان يتركوني أُنهي كتابي بهدوء .

ولكن حين وقع بصري على دفتر الورق الأبيض ، أُخذت بمظهره ، فبقيت ، وريشتي في الهواء ، أتأمل هذا الورق الباهر : كم كان قاسياً ولامعاً ، كم كان حاضراً ! لم يكن فيه شيء الا من الحاضر . ولم تكن الأحرف التي خططتها عليه قد جفّت بعد ، ومع ذلك فقد كفّت عن ان تخصّني .

« اهتمّ البعض بنثر الاشاعات المؤذية » ...

كنت قد فكّرت بهذه العبارة وتأملتها ، وقد كانت اولاً بعض نفسي .

أما الآن ، فقد حُفرت في الورق ، فهي تقف ككتلة ضدي . وانا لا أتعرّفها بعد . بل لم يكن بوسعي ان افكر بها ثانية . كانت هنا ، قبالتي . وعبثاً ما التمس فيها اشارة للمصدر الأصلي . إن بوسع كل انسان آخر ان يكتبها . ولكني ، انا ، لم أكن متأكداً أني كتبتها . والأحرف الآن ، لم تكن بعد لتلمع ، بل كانت جافة . كان هذا ايضاً قد اختفى : لم يكن باقياً بعد شيء من التماعها الموقت .

والقيت نظرة قلقة فيما حولي : حاضر ، ولا شيء غير الحاضر . أثاث خفيف وصلب . مليئة بحاضرها ، طاولة ، سرير ، خزانة ذات مرآة — وأنا نفسي . كانت طبيعة الحاضر الحقيقية تكشف عن نفسها : لقد كانت ما هو كائن ، وكل ما لم يكن حاضراً ، غير كائن . إن الماضي لم يكن كائناً . على الاطلاق . لا في الاشياء ، حتى ولا في فكري . صحيح أني ، منذ وقت طويل ، كنت قد فهمت ان ماضيّ قد فاتني . ولكني أظن ، حتى ذلك الحين ، انه انسحب بكل بساطة ، خارج متناولي . إن الماضي في نظري لم يكن إلا وضعاً في التقاعد : كان طريقة اخرى للوجود ، حالة من العطلة واللاعمل ؛ إن كل حدث ، حين ينتهي دوره ، يدلف من تلقاء نفسه الى علبة ويصبح حدثاً شرفياً : فما أشق ان يتخيّل المرء العدم ! أما الآن ، فقد كنت اعرف : إن الاشياء هي برمّتها ما تبدو عليه — و « خلفها » ... لا شيء .

واستغرقتني هذه الفكرة بضع دقائق أخرى ، ثم قمت بحركة كتفين عنيفة لأتحرر وجذبت نحوي دفتر الورق .

« ... انه قد كتب وصيته » .

وفجأة غمرني اشمئزاز هائل ، وسقطت الريشة من يدي وهي تبصق حبراً . ما الذي حدث ؟ هل كنت أحسّ « الغثيان » ؟ لا ، لم يكن الأمر كذلك ، فقد كان للغرفة هيئتها الحانية اليومية . وكانت الطاولة تكاد تبدو لي أنقل فقط ، وأسمك ، وقلم حبري أكثف . كل ما في الأمر ان السيد دوروليون قد مات للمرة الثانية .

لقد كان الساعة هنا ، فيّ ، هادئاً وحاراً ، وكنت أحسّه ، بين الفينة والفينة ، يتحرك. لقد كان حيّاً جداً، أكثر حياةً في نظري من « العصامي » او من صاحبة مقهى « راندبه‌فو دي شامينو». لا شك في انه كانت له أهواؤه. وكان يمكن ان يبقى بضعة ايام من غير ان يظهر ، ولكنه كان غالباً ، في اوقات جميلة خفية، يخرج أنفه ، كالكيوشي المختص بعلم قياس الرطوبة الجوية، فكنت ألمح وجهه الكامد وخدّيه الأزرقين . وحتى حين لم يكن يظهر ، كان يثقل على قلبي ، وكنت أحسّني ممتلئاً .

أما الآن ، فانه لم يكن باقياً منه شيء . كما لم يكن باقياً على هذه الآثار من الحبر الجاف ، أكثر من ذكرى الماعهـا القريب . كانت تلك غلطتي : إن الكلمات الوحيدة التي كان ينبغي ألاّ تقال ، نطقتُ بها : لقت قلت إن الماضي لم يكن موجوداً . ودفعة واحدة ، في غير صخب ، عاد السيد دوروليون الى عدَمه .

وتناولت رسائله في يديّ ، وجسستها في نوع من اليأس ، وقلت لنفسي :

« انه هو ، انه مع ذلك هو الذي رسم هذه العلامات ، واحدة واحدة . لقد استند الى هذا الورق ، ووضع إصبعه على الصفحات ليمنعها من ان تنقلب تحت ريشته » .

بعد فوات الأوان : هذه الكلمات لم يكن لها من معنى بعد . لم يكن ثمة ما هو موجود غير رزمة ورق اصفر كنت أشدّه بين يديّ. صحيح انه كان ثمة تلك القصة المعقّدة : حفيد دوروليون الذي اغتاله عام ١٨١٠ شرطـة القيصر ، وأوراقه المصادرة والمنقولة الى مركز « الاضبارات » السرية ، والمنقولة بعد مئة وعشر سنوات من قبل السوفيات الذين استولوا عـلى الحكم ، الى مكتبة الدولة حيث سرقتها عام ١٩٢٣ . ولكن ذلك لم يكن يبدو حقيقياً ، ولم أكن أحتفظ بأية ذكرى حقيقية من هذه السرقة التي ارتكبتها انا بالذات . ولتعليل وجود هذه الاوراق في غرفتي ، لم يكن صعباً العثور على مئة قصة أخرى أجدر بالتصديق : إنها كلها ، تجاه هذه الأوراق الخشنة ، ستبدو جوفاء خفيفة

كالفقاقيع. فبدلاً من أن أعتمد عليها ليتم الاتصال بيني وبين رولبون، سيكون من الافضل على الفور ان أتجه الى الطـاولات الدائرة . ان رولبون لم يكن موجوداً بعد . على الاطلاق . ولئن كان قد بقي منه بعض العظام ، فانها تكون موجودة لذاتها ، مستقلة كل الاستقلال ، وهي ليست بعـدُ إلا قليلاً من الفوسفات وكربونات الكلس مع أملاح وماء .

وقمت بمحاولة أخيرة ؛ فردّدت كلمات مدام دوجانلي التي كنت أتذكر بها المركيز عادةً : « وجهه الصغير المجعّد ، النظيف النقيّ ، المنقط بالجدري ، كان ينبض بخبث فريد يقفز الى العينين مهما بذل من جهد لإخفائه » .

وظهر لي وجهه بوداعة ، وأنفه المقرّن ، وخدّاه الأزرقان ، وبسمته . وكنت استطيع بيسر ان أرسم ملامحه ، وربما بسهولة اكثر من الماضي . غير ان ذلك لم يكن بعدُ إلا صورة فيّ ، تخيّلاً . وتنهدت ، وتداعيت للانقلاب الى وراء ، على مسند كرسيي ، يراودني شعور خيبة لا يُحتمل .

دقّت الساعة الرابعة. ها قد مرّت ساعة على وجودي هنا، متدلي الذراعين فوق كرسيي . لقد بدأ الظلام يهبط . وباستثناء ذلك لم يتغيّر شيء في هذه الغرفة: إن الورق الابيض ما زال على الطاولة، قرب قلم الحبر والمحبرة... ولكني لم اكتب بعدُ ابداً على الورقة المبدوءة . ولن أقصد بعـد أبداً دار الكتب ، سالكاً شارع « الموتوليه » وجـادة « لارودوت » ، لأطـالع فيها الاضبارات .

إن بي رغبة لأن أقفز على قدميّ وأخرج ، وأن أفعل أي شيء لأتشاغل ولكن اذا رفعت اصبعاً ، اذا لم أبق هادئاً كل الهدوء ، فأنا أعرف جيـداً ما سيحدث لي . انني « لا أريد » ان يحدث لي بعد . إن ذلك سيأتي دائماً قبل الأوان . اني لا أتحرك ؛ وأنا أقرأ بآلية ، على ورقة الدفتر ، المقطع الذي تركته غير ناجز :

« اهتم البعض بنشر الإشاعات المؤذية . ولا بد ان السيد دورولبون قد وقع

في هذه المناورة ، ما دام قد كتب لحفيده ، بتاريخ ١٣ ايلول ، أنه قد كتب وصيته » .

لقد انتهت قضية رولبون الكبرى ، كما تنتهي عاطفة كبرى مهووسة . فينبغي ايجاد شيء آخر . حين كنت في شانغهاي ، منذ بضعة اعوام ، خرجت ذات مرة فجأة من حلم ، وكنت في مكتب مرسييه ، فاستيقظت . ثم حلمت حلماً آخر ، كنت فيه اعيش في بلاط القياصرة ، في قصور بلغ من برودتها أن رواسب من الثلج كانت تتشكل في الشتاء ، فوق الأبواب . وأنا اليوم أستيقظ تجاه دفتر من الورق الأبيض . ان المشاعل ، والأعياد المثلجة ، والبزات الرسمية ، والاكتاف الجميلة الراعشة ، قد اختفت كلها . وقد بقي بدلاً منها « شيء » ما في الغرفة الدافئة ، شيء لا أريد ان أراه .

كان السيد دورولبون شريكي : كان بحاجة إليّ ليكون ، وكنت بحاجة إليه حتى لا أحسّ بكينونتي . كنت انا أقدّم المادة الخام ، هذه المادة التي كان عليّ ان أعيد بيعها ، والتي لم أكن أدري ماذا أصنع بها : الوجود ، «وجودي» . كانت مهمته هو ان يمثل . كان يقف قبالتي ، وكان قد استولى على حياتي لكي « يمثّل » لي حياته . ولم أكن ألاحظ بعدُ أني كنت موجوداً ، لم أكن موجوداً بعدُ فيّ أنا ، بل فيه ، كنت آكل ، وله كنت أتنفّس ، وكان لكل حركة من حركاتي معناها في الخارج ، هناك ، قبالتي تماماً ، فيه ؛ لم أكن أرى بعدُ يدي التي كانت ترسم الحروف على الورق حتى ولا الجملة التي كنت قد كتبتها — ولكن ، خلف ، فيما وراء الورقة ، كنت أرى المركيز الذي كان قد طالب بهذه الحركة التي كانت تمدّد الوجود وتثبّته . اني لم أكن إلا وسيلة لجعله يعيش ، فقد كان سبب وجودي ، وكان قد حررني من نفسي . فما الذي سأعمله الآن ؟

المهمّ ألاّ أتحرك ، « ألاّ أتحرك » ... آه !

إن حركة الكتفين هذه ، لم أستطع أن أمسكها ...

إن الشيء الذي كان ينتظر ، قد تنبّه ، فانقض عليّ ، وذاب فيّ ، فأنا

ممتلىء به . انه يتحرك . انها ملامساتٌ في كل مكان تذوب وتتلاشى . بعذوبة كبيرة . إن في في ماءٌ مزبداً ، وأنا أبتلعه فيسيل في حلقي ، وبداعبني — وها هوذا يولد من جديد في فمي . إن في في دائماً وأبداً بركـة صغيرة من المـاء المبيض — الخفي — يلامس لساني . وهذه البركة هي ايضاً أنا . وكذلك اللسان. والحق هو أنا .

إني أرى يدي التي تتفتح على الطاولة . إنها تعيش — وهي انا . إنها تنفتح ، وتتبسط الأصابع وتومىء . انها مقلوبة على ظهرها . وهي تُريني بطنها السمين. إنها تشبه حيواناً مقلوباً ، أصابعها هي أرجلُه . وأنا أتسلّى بتحريكها ، بسرعة كبيرة ، كأرجل سرطان وقع على ظهره . السرطان ميت : والارجل تتكوّم وترتد الى باطن اليد. وأنا أرى الأظافر — الشيء الوحيد الذي لا يحيا فيّ. ومرة اخرى ، تتقلب يدي ، وتتبسط على بطنها ، فهي توليني الآن ظهرها ، ظهرٌ فضيّ ، ملتمع بعض الشيء — فكأنه سمكة ، لولا الزغب الاحمر عنـد ملتقى الاصابع . إنني أحسّ يديّ . انهما هذان الحيوانان اللذان يتحركان في نهاية ذراعيّ . وتحكّ يدي احدى هاتين الرجلين ، بظفر رجل أخرى ؛ وأحسّ ثقلها على الطاولة التي ليست إيّاي . انه طويل ، طويل ، هذا الشعور بالثقل ، وهو لا ينقضي . وليس ثمة سبب لكي ينقضي . انه ، لطول وقته ، يُحتمل.. وأسحب يدي ، وأضعها في جيبي . ولكني أحسّ فوراً ، عبر القماش ، حرارة فخذي . وسرعان ما انشل يدي من جيبي . وأدعهـا تتدلى على مسند الكرسي . وهأنا الآن أحس ثقلها في طرف ذراعي . انها تثقل قليلاً ، مسترخية. انها كائنة . ولا ألحّ : انني حيثما وضعتها ، فانها ستستمر في الكينونة ، وسأستمر في الاحساس بأنها كائنة ؛ انني لا استطيع ان احذفهـا ، ولا ان أحذف بقية جسمي ، الحرارة الرطبة التي تلوّث قميصي ، ولا هذا الشحم الحار الذي يدور بكسل ، كما لو أنه يحرّك بالملعقة ، ولا جميع هذه الأحاسيس التي تتنزّه هنا في الداخل ، تروح وتجيء ، وتصعد من خاصرتي الى إبطي او تأسن ببطء ، من الصباح حتى المساء ، في ركنها المعتاد .

وأنهض متنفضاً : ليتني كنت استطيع الكف عن التفكير ، اذن لكان ذلك أفضل . ان الافكار هي أتفه شيء في الدنيا . أتفه من لحم الجسد . إنها تتمطى بلا انتهاء وتخلف مذاقاً عجيباً . ثم ان هناك الكلمات ، داخل الافكار ، الكلمات غير الناجزة ، الرسوم الانجازية للعبارة التي تعـود دائماً وأبداً : « يجب ان انتهي ... مات ... السيد دو رول ميت ... انا لست ... انني ... » كفى، كفى، وذلك لا ينتهي ابداً . وهذا أسوأ من الباقي لأنني أحسّني مسؤولاً ومتواطئاً . مثلاً ، هذا النوع من الاجترار المؤلم : « انني كائن » انما أنا الذي أغذّيه . انا . إن الجسم شيء يعيش وحـده بمجرد ان يبدأ . أما الفكرة « فأنا » الذي يكملها ، يدحرجها : انني كائن . وأنا افكر بأني كائن . اوه ، يا للأنبوب الحلزوني ، هذا الإحساس بالكينونة ـ أدحرجه ، بكل تمهل ... ليتني أستطيع الامتناع عن التفكير ! وأحاول ، فأنجح : ويخيّل إليّ ان رأسي يمتلىء دخاناً ... وها ان الأمر يعود من جديد : « دخان ... عدم التفكير ... لا أريد ان افكر ... أفكر بأنني لا أريد ان افكر . يجب ألا افكر بأني لااريد ان افكر. فهذا ايضاً تفكير » . أترانا لن ننتهي أبداً ؟

إن فكرتي هي « أنا » : من اجل هذا لا استطيع ان اتوقف . انني كائن لأني أفكر... ولا استطيع الامتناع عن التفكير. في هذه اللحظة بالذات ـ وهذا فظيع ـ اذا كنت كائناً ، فذلك « لأني » استفظع ان أكون. انا ، « انا »الذي أسحب نفسي من العدم الذي أنشده : فالكراهية ، والنفور من ان اوجـد ، هما طريقتان لأن « أوجد » نفسي ، لأن اغرق في الكينونة . إن الافكار تولد من خلفي كالدوار ، وانا أحسّها تولد خلف رأسي ... فاذا استسلمت ، فانها ستأتي الى قدّام ، بين عيني ـ وأنا أستسلم دائمـاً ، فتكبر الفـكرة وتكبر ، وها هي ذي هائلة تملأني برمّتي وتجدّد كينونتي .

إن لعابي مسكّر ، وجسمي دافىء ؛ انني أحسّني تفهاً . وهـذه مُديتي موضوعة على الطاولة . فلأفتحها . ولمَ لا ؟ إن في هذا تغيراً ، على أي حال. وأضع يدي على دفتر الورق وأطعن راحتي بالمدية طعنة جيدة . ولقد كانت

الحركة مفرطة العصبية ؛ ولذلك انزلقت الشفرة ، فكان الجرح سطحياً. ونزف الدم . وبعد ذلك ؟ ما الذي تغيّر ؟ ومع ذلك ، فأنا أنظر برضى ، على الورقة البيضاء ، عبر سطور كتبتها الساعة ، الى هذه البركـة الصغيرة من الدم التي كفّت أخيراً عن ان تكون انا . اربعة اسطر على ورقة بيضاء ، لطخة دم ، إن هذا هو ما يشكل ذكرى جميلة . وينبغي ان اكتب تحتها : «هذا اليوم، عدلت عن تأليف كتابي عن المركيز دو رولبون» .

هل تراني سأعنى بتضميد يدي ؟ إنني أتردد . وأنظر الى مسيل الدم الرتيب . هوذا يتجمّد. لقد انتهى الأمر. إن بشرتي تبدو صدئة حول الجرح. وتحت الجلد ، لا يبقى إلا إحساس صغير كالأحاسيس الاخرى ، وربما كان أتفه منها .

هذه هي الساعة تدق النصف بعد الرابعة . وأنهض ، فيلتصق قميصي البارد بلحمي . وأخرج . لماذا ؟ الحق اني افعل ذلك لأنه ليس ثمة من الاسباب مـا يدعو الى عدم فعله. حتّى ولو بقيت، حتّى ولو قبعت صامتاً في إحدى الزوايا، فانني لن أنسى نفسي . سأكون هناك ، وسأثقّل على الارض الخشبية . انني كائن .

وأبتاع صحيفة في هذه الاثناء. خبر هام. لقد عُثر على جسم لوسيان الصغيرة! رائحة حبر ، والورق يندعك بين أصابعي . لقد لاذ المجرم القذر بالفرار . والطفلة قد هُتكت . وقد عثر على جسمها ، وأصابعها متشنجة في الوحل . وأكوّم الجريدة بشكل كرة ، اصابعي متشنجة على الجريدة ؛ رائحة حبر ؛ يا إلهي ، إن الاشياء كائنة اليوم بشكل قوي . لقد هُتكت الصغيرة لوسيان. وخنقت . ما زال جسمها كائناً ، ولحمها مثخناً . «انها» غير كائنة بعد . يداها . انها غير كائنة بعد . البيوت . انني أمشي بين البيوت ، انني بين البيوت ، منتصباً على الارض المبلطة ؛ البلاط تحت قـدميّ كائن ، والبيوت تنغلق عليّ ، كما ينغلق الماء عليّ ، انني كائن . انني كائن ، موجود ، أفكر فانا اذن موجود ؛ انني كائن لأني أفكر ، لماذا تراني أفكر ؟ انني لا أريد أن

افكر بعد ، انني كائن لأني أفكر بأني لا اريد ان اكون، افكر بأني ... لأني.. أف ! وأهرب ، لقد هرب القدر ، جسمها المهتوك . لقد أحسّت بذلك اللحم الآخر الذي كان ينزلق في لحمها . انني ... هوذا ... مهتوكة . إن رغبة هنك عذبة دامية تأخذني من الخلف ، عذبة جداً ، خلف أذنيَّ ، والاذنان تهربان خلفي ، والشعر الاحمر ، انه احمر على رأسي ، عشبٌ مبلل ، عشب احمر ، أهذا انا بعد ؟ وهذه الجريدة ، أهي أنا بعد ؟ الإمساك بالجريدة كينونة ضد كينونة ، الاشياء تكون بعضها ضد بعض ، وأترك هــذه الجريدة . وينبثق البيت ، انه كائن ، وأسير امامي ، بمحاذاة الجدار ، بمحاذاة الجدار الطويل انا كائن ، امام الجدار ، خطوة ، الجدار كائن أمامي ، واحد اثنان، ورائي، اصبع تحكّ في سروالي تحك ، تحك ويسحب اصبع الصغيرة الملوّث بالوحل ، الوحل على إصبعي يخرج من المجرى الموحل ويسقط على مهل، على مهل، يميع ، تحكّ بأضعف مما تحكّ أصابع الصغيرة التي كانت تختنق ، المجرم القدر ، كانت تحكّ الوحل ، الارض بأضعف ، الاصبع ينزلق على مهل ، الرأس يسقط اولاً ويداعب متدحرجاً حاراً إزاء فخذي؛ ان الكينونة رخوة تتدحرج وتهتز ، انا أهتز بين البيوت . انا كائن ، موجود ، افكر فانا اذن اهتز ، انا كائن ، الوجود سقطة ، لا يسقط ، يسقط ، الإصبع تحك الشباك ، الوجود شيء ناقص ، غير كامل . السيد . السيد الجميل كائن . السيد يشعر بأنه كائن . كلا ، ان السيد الجميل الذي يمر ، مزهواً رقيقاً كاللبلاب الارجواني، لا يشعر بأنه كائن ، تتفتح ، إن يدي المجروحة تؤلمني ، كائنة ، كائنة ، كائنة. إن السيد الجميل كائن وسام جوقة الشرف ، كائن شاربين ، هذا كل شيء . لا بد ان المرء سعيد جداً بألا يكون إلا وسام جوقــة الشرف ، وإلا شاربين ، والباقي لا يراه احد ، انه يرى طرفي شاربيه المقرّنين من جهتي الأنف كلتيهما ؛ انني لا أفكر ، فانا اذن شاربان . انــه لا يرى جسمه الهزيل ، ولا قدميه الكبيرتين ، ومن يبحث في جوف البنطلون يجد حتماً زوجاً من المماحي الرمادية الصغيرة . انه يحمل وسام جوقة الشرف ، إن القذرين يحــق لهم ان

يكونوا : « انني كائن لأن هذا حقّي » يحقّ لي ان اكون ، إذن يحقّ لي الا افكّر : ويرتفع الإصبع . اترائي سوف ..؟ أداعب في تفتّح الاغطية البيضاء اللحم الابيض المتفتّح الذي يعود فيرتخي بعذوبة ، وألمس رطوبات الإبطين المزدهرة ، إكسير اللحم وسائله وإشراقه ، وأدخل كينونة الآخر ، المخاطيات الحمراء ، رائحة الكينونة العذبة ، وأحسّني كائناً بين الشفاه الرقيقة المبلّلة ، الشفاه الحمراء بالدم الأصفر ، الشفاه النابضة التي تتثاءب مبلّلة بالكينونة ، مبلّلة بصديد فاتح ، بين الشفاه المبلّلة المسكّرة التي تدمع كالعيون ؟ جسمي المحمي الذي يعيش ، اللحم الذي ينغل ويحمضّ على مهل سوائل ، يحمضّ قشدة ، اللحم الذي يحمضّ ، يحمضّ يحمضّ ، ماء لحمي العذب المسكّر ، دمُ يدي ، انني اتوجّع وجعاً عذباً في لحمي المثخن الذي يمشي ، أمشي ، افرّ ، انني انسان قذر ذو لحم مثخن ، المثخن كينونة لهذه الجدران . اشعر بالبرد ، اخطو خطوة ، اشعر بالبرد ، خطوة ، انعطف الى اليسار ، ينعطف الى اليسار ، يفكر بأنه ينعطف الى اليسار ، مجنون هل انا مجنون يقول انه يخشى ان يكون مجنوناً ، الكينونة ، هل ترى انها الصغر في الكينونة ، يتوقّف ، الجسم يتوقف ، يفكر انه يتوقف ، من اين هو قادم ؟ ما الذي يفعله ؟ ويمضي من جديد ، خائفاً ، خائفاً جداً ، انسان قذر ، الشهوة كالضباب ، الشهوة ، الاشمئزاز ، يقول انه مشمئز من ان يكون ، ايكون مشمئزاً ؟ متعبّ من اشمئزازه من ان يكون . ويعدو . ما الذي يأمله ؟ يعدو هارباً ، أيلقي بنفسه في الحوض ؟ انه يعدو ، واالقلب ، القلب الذي يحقق عيد . القلب كائن ، والساقان كائنتان ، والنَفَس كائن ، انها كائنة وهي تعدو ، وتلهث ، وتخفق بعذوبة ، تنبهر وتبهرني ، يقول انه ينبهر ، ان الكينونة تأخذ افكاري من الخلف ، وعلى مهل تفتحها « من الخلف » ، انني اؤخذ من الخلف ، وأقسر من الخلف على التفكير ، اذن علي ان اكون شيئاً ما يلهث خلفي فقاقيعَ كينونة خفيفة ، انه فقاعة ضباب شهوة ، انه ممتقع امام المرآة كالميت ، ان رولبون ميت ، وانطوان روكانتان ليس ميتاً ، ليتني يُغمى عليّ : يقول انه يودّ لو

يغمى عليه ، ويعدو ، يعدو الفضولي (من الخلف) من الخلف « من الخلف » لوسي الصغيرة التي هوجمت من الخلف ، وهُتكت بالكينونة من الخلف ، انه يطلب الرحمة ، يخجل من طلب الرحمة ، الشفقة ، النجدة ، النجدة اذن انا كائن ، ويدخل « حانة المارين » ، المرايا الصغيرة في الماخور الصغير ، انه ممتقع الوجه في المرايا الصغيرة بالماخور الصغير الرجل الطويل الاحمر الشعر الذي يتداعى للسقوط على المقعد الصغير ، الفونوغراف يغنّي ، يكون، كل شيء يدور ، الفونوغراف كائن ، القلب يخفق : دوري ، دوري يا سوائل الحياة ، دوري مجلّدة ، سوائل لحمي ، عذوبات ... الفونوغراف .

When the low moon begins to beam
Every night I dream a little dream

ان الصوت يظهر فجأة ، خشناً أبحّ ، ويتلاشى العالم ، عالم الكينونات . ان هذا الصوت هو لامرأة من لحم ، لقد غنّت امام اسطوانة ، وهي في اجمل زينتها ، وكانوا يسجّلون صوتها . المرأة : كانت كائنة مثلي ، مثل رولبون ، ليست لديّ رغبةٌ في معرفتها . ولكن هناك هذا . ان المرء لا يستطيع ان يقول بأن ذلك كائن . ان الاسطوانة التي تدور كائنة ، والنغم الذي يضربه الصوت ، فيرتعش ، كائن ، وقد كان الصوت الذي أثّر في الاسطوانة . وانا الذي أصغي ، كائن. كل شيء ممتلىء ، الكينونة في كل مكان ، كثيفة وثقيلة وعذبة. ولكن فيما وراء هذه العذوبة ، التي لا تُدرك ، القريبة كل القرب ، البعيدة مع الأسف ، الفتيّة القاسية الهادئة ، كانت ثمة .. تلك الصرامة .

الثلاثاء

لا شيء . كائن .

الاربعاء

هناك دائرة شمس على الخوان الورقي . وفي الدائرة ذبابة تجرّ نفسها ،

مخدّرة ، وتتدفأ وتحك رجليها الاماميتين احداهما بالأخرى . سأؤدي لها خدمة ان اسحقها . انها لا ترى هذا الإصبع العملاق الذي يلتمع زغبه في الشمس ، لا تراه ينبجس . وصاح العصامي :

– لا تقتلها ، يا سيدي !

وتنفجر ، وتخرج امعاؤها الصغيرة البيضاء من بطنها ؛ لقد خلّصتها من الحياة . وأقول للعصامي بجفاء :

– كانت هذه خدمة تؤدّى لها .

لماذا تراني هنا ؟ – ولماذا لا اكون هنا ؟ انه الظهر ، وانا انتظر ساعة النوم . (من حسن الحظ ان النوم لا يهرب مني) سأرى آني من جديد ، بعد اربعة ايام : وهذا هو ، في هذه اللحظة ، تبرير حياتي الوحيد بعد ذلك ؟ حين تتركني آني ؟ انني اعلم جيداً ما اؤمّله ، خفية : اؤمّل الا تتركني بعد ابداً . على انه ينبغي لي ان اعرف جيداً ان آني لن ترضى ابداً بأن تشيخ امامي. انني ضعيف ووحيد ، وانا بحاجة اليها . وقد كنت اودّ لو اراها في قوتي : فإن آني قاسية على ما هو حطام .

– هل انت بخير يا سيدي ؟ هل تحسّ انك بخير ؟

وينظر العصامي اليّ بطرف ضاحك . انه يلهث قليلاً ، فاغر الفم ، ككلب فاقد انفاسه . واعترف : انني كنت هذا الصباح سعيداً برؤيته ثانية ، فقد كنت محتاجاً الى ان اتكلّم .

وقال : – كم انا سعيد بأن تكون على طاولتي ، اذا كانت تشكو البرد ، فان بوسعنا ان نجلس قرب المدفأة . ان هذين السيدين على وشك ان يذهبا ، فقد طلبا حسابهما .

ان احداً يهتمّ بي ، ويتساءل عما اذا كنت اشكو البرد ؛ وانا اتحدّث الى رجل آخر : ان ذلك لم يحدث لي منذ سنوات .

– لقد نهضا ، فهل تريد ان نغيّر مجلسنا ؟

وأشعل السيدان لفافتين ، وخرجا ، هاهما في الهواء النقيّ ، في الشمس .

انهما يحاذيان الواجهات الكبيرة وهما يمسكان بقبتيهما . انهما يضحكان ، وينفخ الهواء معطفيهما . لا ، لا اريد ان اغيّر مجلسي . ما جدوى ذلك ؟ ثم انني ارى ، عبر الزجاج ، بين سقوف الحمامات البيضاء ، البحر الأخضر الكثيف .

وأخرج العصامي من محفظته مستطيلين من الورق المقوى البنفسجي . انه سيعطيها الساعة الى الصندوق . وأقرأ على قفا احدهما :

« دار بوتانيه ، مطبخ بورجوازي .

« الغداء بسعر محدّد : ٨ فرنكات .

« مقبّلات حسب الطلب .

« لحم مع خضار .

« جبن او حلوى .

« ١٤٠ فرنكاً ثمن الـ ٢٠ قرصاً »

هذا الرجل الذي يأكل على الطاولة المستديرة ، قرب الباب ، اتذكّره الآن : انه غالباً ما يهبط الى فندق برنتانيا ، وهو تاجر رحّالة . انه يضع عليّ ، بين الفينة والفينة ، نظره المتنبّه الباسم ؛ ولكنه لا يراني ؛ فهو شديد الاستغراق في مراقبة ما يأكل . وفي الجانب الآخر من المشرب ، ارى رجلين احمرين قصيرين يتذوّقان الصدّف وهما يشربان خمراً ابيض . وأسمع اقصرهما ، وهو ذو شارب دقيق اصفر ، يروي قصة يتسلّى بها هو نفسه . ويتوقّف مبطئاً ويضحك ، كاشفاً عن اسنان باهرة . اما الآخر ، فلا يضحك ؛ ان عينيه قاسيتان . ولكنه غالباً ما يومىء برأسه « نعم » . وبالقرب من النافذة ، رجلٌ هزيل أسمر ، ذو ملامح متميّزة ، وشعر جميل ابيض مسرّح الى خلف ، يقرأ جريدته بتفكّر . وقد وضع على المقعد الخشبي ، الى جانبه ، محفظة جلدية . وهو يشرب ماء فيشي . ان هؤلاء الاشخاص سيخرجون جميعاً بعد لحظة ؛ وسيكونون مثقلين بالطعام ، يداعبهم النسيم ، ومعاطفهم مفتوحة ، ورؤوسهم حارّة بعض الشيء ، ضاجّة بعض الشيء ، فيما هم يسيرون

بمحاذاة الدربزون وهم ينظرون الى الاطفال عند الشاطيء والى السفن في البحر ، سيذهبون الى اعمالهم . اما انا ، فلن اذهب الى اي مكان ، لأني لا عمل لي .

ويضحك العصامي ببراءة ، وتداعب الشمس شعره القليل :

– أتريد ان تختار طعامك ؟

ويمدّ لي لائحة الطعام : انّ لي الحق بصحن مقبلات حسب الطلب : فاما خمس قطع صغيرة من المقانق ، او بعض الفجل ، او بعض السرطان الرمادي او صحيفة كرفس حامض ، اما بزّاق ، « بورغوني » فهو إضافيّ .

وقلت للخادم : – أعطني صحن مقانق .

فانتزع اللائحة من يديّ قائلاً :

– أليس هناك ما هو أفضل ؟ هذا بزّاق بورغوني .

– الواقع اني لا احب البزّاق كثيراً .

– خذ إذن محاراً .

قالت الخادم : – إن ثمنه يزيد اربعة فرنكات .

– أعطينا اذن محاراً ، يا آنسة ، ولي انا صحيفة فجل .

وشرح لي وقد احمرّ وجهه :

– انني احب الفجل كثيراً .

وأنا ايضاً .

وسأل : – وبعد ذلك ؟

فاستعرضت لائحة اللحوم . ان لحم البقر المطبوخ جدير به ان يغريني . ولكني اعلم سلفاً انه سيقدم لي صحن فراخ ، فذلك هو اللحم الاضافي الوحيد .

قال : – يا آنسة ، اعطي السيد صحن فراخ . اما انا ، فصحنَ لحم بقر مطبوخ .

وقلب اللائحة : كانت الخمور على القفا ، وقد قال بلهجة احتفالية :

– سنأخذ قدحي خمر .

قالت الخادم : – اراك تغيّر عادتك ! فانت لا تشرب الخمر قط .

– ولكني استطيع ان اتحمّل قدح خمر بالمناسبة . فهل تريدين يا آنسة ان تعطينا قنينة من خمر انجو ؟

ووضع العصامي اللائحة ، وقطع رغيفه قطعاً صغيرة وفرك صحنه بمنشفته . ورمى نظرة الى الرجل ذي الشعر الأبيض الذي يقرأ جريدته ثم ابتسم لي :

– انني اجيء الى هنا بصحبة كتاب ، على الرغم من طبيباً قد نصحني بألاّ أفعل : فان المرء في هذه الحالة يأكل بسرعة مفرطة ولا يمضغ . ولكن لي معدة نعامة ، وأستطيع ان ألتهم أيّ شيء . في شتاء ١٩١٧ ، حين كنت اسيراً ، كان الطعام من الرداءة بحيث سقط الجميع مرضى . وبالطبع تظاهرت بأني مريض كالآخرين : ولكني لم اكن اشكو شيئاً .

لقد كان أسير حرب .. انها المرة الاولى التي يحدّثني فيها عن ذلك : وأكاد لا أصدّق : فأنا لا استطيع ان اتصوّره إلاّ عصامياً .

– اين كنتَ اسيراً ؟

فلم يجب . وقد وضع شوكته وجعل ينظر اليّ بكثافة عجيبة . انه على أهبة ان يحدّثني عن همومه : وأتذكّر الآن ان شيئاً ما كان غير طبيعي في دار الكتب . وأرهفت سمعي : انني لا أطلب إلاّ ان اشفق على هموم الآخرين ، فان ذلك سيغيّرني . ليس لي هموم ، وانا املك المال كأصحاب الايرادات ، لا رئيس لي ، ولا امرأة ولا اولاد : كل ما هنالك اني كائن . وهذا الهمّ مبهم جداً ، ميتافيزيقي جداً ، حتى اني اشعر منه بالخجل .

لم يكن يبدو على العصامي انه يريد ان يتكلم . وأية نظرة فضولية يرميني بها : ليست هي نظرة للرؤية ، وانما هي لتواصل الارواح . لقد صعدت روح العصامي حتى عينيه الرائعتين ، عيني الأعمى ، اللتين كانت تجعلها بمستوى واحد . فتفعل روحي مثل ذلك ، لتأتِ فتلصق أنفها بالزجاج : انهما كلتيهما ستتبادلان عبارات اللياقة والتأدّب .

انني لا اريد تواصل ارواح ، فانا لم انحدر الى هذا المستوى . اني اتقهقر .

ولكن العصامي يقدّم صدره فوق الطاولة ، من غير ان ينزع عني بصره . وتحمل له الخادم صحن الفجل ، من حسن الحظ . فيتداعى من جديد على كرسيّه ، وتختفي روحه من عينيه ، ويأخذ يأكل بوداعة .

– هل صُفّيت همومك ؟

فانتفض وقال بلهجة مذعورة :

– اية هموم ، يا سيدي ؟

– تلك التي حدثتني عنها في ذلك اليوم ، كما تعرف .

فاحمرّ احمراراً عنيفاً ، ثم قال بصوت جاف :

– ها ! نعم ، ها ! ذلك اليوم . اجل ، انه ذلك الكورسيكي يا سيدي ، كورسيكي دار الكتب .

وتردّد مرة اخرى ، وعليه هيئة نعجة عنيدة .

– ان هذه يا سيدي ثرثرات لا اريد ان ازعجك بها .

ولم ألحّ . كان يأكل بسرعة عجيبة ، من غير ان يبدو عليه ذلك . وكان قد انهى فجله حين جاءني بالمحار . ولم يكن باقياً في صحنه الا كومة من اطراف خضر وقليل من ملح مبتلّ ...

وفي الخارج ، توقّف شخصان شابّان امام لائحة الطعام التي كان طبّاخ كرتوني يقدّمها لهما بيده اليسرى (وكان يمسك في اليمنى موقداً للقلي) وتردّدا. كانت المرأة تشعر بالبرد ، وقد ادخلت ذقنها في ياقتها الفروية . ثم يكون الشاب اوّل من يقرّر ، فيفتح الباب ويمحّي ليترك لرفيقته ان تمرّ .

وتدخل . وتنظر فيما حولها ، بهيئة لطيفة وهي ترتعش قليلاً ، ثم تقول بصوت خشن :

– ان الطقس حارّ .

ويغلق الشاب الباب خلفه وهو يقول :

– ايها السادة والسيدات .

فيلتفت العصامي ويقول بلطف :

– ايها السادة والسيدات .

فلا يجيب الزبائن الآخرون ، ولكن السيد الأنيق يخفض جريدته قليلاً ويرقب القادمَيْن الجديدين بنظرة عميقة .

– شكراً ، لا يحتاج الأمر هذا الجهد .

وقبل ان تتمكن الخادم ، وقد اقبلت لمساعدة الشاب ، من ان تأتي اية حركة ، نزع مشمّعه . كان يرتدي ، بدلاً من السترة ، صدرة من جلد ذات سحّاب . وانفتلت الخادم نحو المرأة الشابة ، وقد أصيبت ببعض الخيبة . ولكنه تقدّمها وساعد رفيقته ، بحركات لطيفة دقيقة ، على خلع معطفها . وجلسا بقربنا ، احدهما لصق الآخر . ولم يكن يبدو عليهما انهما متعارفان منذ وقت طويل . وكان للمرأة الشابة وجه متعب نقيّ ، مقطّب بعض الشيء . ورفعت فجأة قبعتها ونفضت شعرها الأسود وهي تبتسم .

وتأمّلها العصامي طويلاً ، في طيبة ، ثم استدار اليّ وغمزني غمزة عطوفاً ، كما لو انه كان يريد ان يقول : « ما اجملها ! »

انهما غير قبيحين . وهما يلتزمان الصمت ، سعيدَيْن ان يكونا معاً ، سعيدين ان يراهما الناس معاً ، حين كنا ، انا وآني ، ندخل احياناً مطعماً في بيكاديلي ، كنا نُحسّ نفسينا موضوع تأمّلات عطوف . كانت آني تنزعج من ذلك ؛ اما انا فأعترف بأني كنت فخوراً بعض الشيء بذلك . كنت خصوصاً مندهشاً ؛ انه لم يسبق لي قط ان ظهرت بمظهر النظافة الذي يناسب هذا الشاب كل المناسبة ، بل لا يمكن القول بأن قبحي كان مثيراً . غير اننا كنّا شابّين : اما اليوم ، فانا في سنّ العطف على شباب الآخرين . ولكني لم أعطف. كان للمرأة عينان عذبتان معتّمتان ؛ وكان للشاب بشرة برتقالية ، محبّبة بعض الشيء ، وذقن صغيرة اخّاذة . صحيح انهما يقعان في نفسي ، ولكنهما ايضاً يثيران اشمئزازي قليلاً . اني احسّهما جدّ بعيدين عني : الحرارة تضنيهما ، وهما يتابعان في قلبيهما حلماً واحداً ما اعذبه وما اضعفه ! انهما راضيان ، ينظران بثقة الى الجدران الصفر ، والى الناس ، ويجدان أنالعالم جيدكما هو،

كما هو تماماً ، وكل منهما ، في الظاهر ، يستمد معنى حياته من حياة الآخر . انهما كليهما لن يلبثا ان يصنعا حياة واحدة حياة بطيئة دافئة لن يكون لها بعدُ ايّ معنى – ولكنهما لن يلحظا ذلك .

يبدو عليهما ان احدهما يرهب الآخر . وأخيراً اخذ الشاب ، بهيئة مرتبكة وعازمة ، يد رفيقته بأطراف أصابعه . انها تتنفس بقوة ، وقد مالا معاً فوق لائحة الطعام . اجل ، انهما سعيدان . ثم ، ماذا ؟

وكسا العصامي وجهه بسيماء الانشراح والتسلية الغامضة بعض الغموض :

– لقد رأيتك امس الاول .

– أين ؟

فقال محاولاً ان ينكّدني باحترام :

– ها ! ها !

وجعلني انتظر لحظة، ثم :

– كنتَ خارجاً من المتحف .

فقلت : –آه ، ليس أمس الاول ، بل السبت .

فلا شك في اني لم اكن امس الاول أملك الجرأة على زيارة المتاحف .

– هل رأيت تلك اللوحة من الخشب المحفور التي تمثل محـاولة اغتيال اورسيني ؟

– انني لا أعرفها .

– أهذا ممكن ؟ انها في قاعة صغيرة الى اليمين ، وأنت داخل . انها عملُ متمرد من « الكومون » عاش في بوفيل حتى العفو العـام ، مختبئاً في مخزن للحبوب . وكان قد أراد ان يبحر الى اميركا ، ولكن شرطة المرفأ هنا شديدة التيقظ . انه رجل يثير الاعجاب . وقد استعمل اوقات فراغه الاجبارية على نحت لوح كبير من السنديان ، ولم يكن لديه وسائل غير مديته ومبرد أظافر . وكان يصنع القطع الدقيقة بالمبرد : اليدين ، العينين . وكان طول اللوح متراً وخمسين وعرضه متراً . واللوحة كلها قطعة واحدة ، وفيها سبعون شخصاً ،

كل منهم بحجم يدي ، بالاضافة الى الحصانين اللذين يجرّان مركبة الامبراطور . والوجوه ، يا سيدي ، هذه الوجوه المنحوتة بالمرد ، تملك كلهـا سيماءها ، وهي ذات هيئة بشرية . اذا سمحت لنفسي ، يا سيدي ، لقلت لك ان هذا أثرٌ جديرٌ بأن يُرى .

ولم أرد أن ألتزم :

ــ كنت أريد بكل بساطة ان أرى لوحات بوردوران من جديد .

فاغتم العصامي فجأة ، وقال في بسمة راعشة :

ــ تلك اللوحات المعلقة في القاعة الكبيرة ؟ انني يا سيدي لا افقه شيئاً من الرسم . صحيح انه لا يفوتني ان بوردوران رسام كبير ، وأنا أرى جيداً أنه صاحب ملمس وحذق ، كما يقولون . ولكن المتعة ، المتعة الجمالية مجهولة عندي .

فقلت له في ود :

ــ وأنا كذلك ، بالنسبة للنحت .

ــ آه ، يا سيدي ! انا ايضاً ، مع الاسف . وبالنسبة للموسيقى ، وبالنسبة للرقص . غير أني لا أخلو من بعض المعلومات . والحق انه شيء غير معقول : لقد رأيت شباناً لم يكونوا يعرفون نصف ما اعرف ، ولكنهم اذا وقفوا أمام لوحة ، يبدون وهم يُحسّون متعة .

فقلت له بلهجة مشجعة :

ــ لا بد انهم يتظاهرون .

ــ ربما ...

وحلم العصامي قليلاً :

ــ إن ما يحزنني ، ليس هو حقاً ان أكون محروماً من نوع من المتعة ، بقدر ما يحزنني ان اكون غريباً على فرع برمته من النشاط الانساني ... ومع ذلك فأنا انسان ، و « بشر » هم الذين صنعوا هذه اللوحات ...

واستطرد فجأة وقد تغيّر صوته :

– لقد خاطرت مرة ياسيدي في التفكير بأن الجمال ليس إلا قضية ذوق . أليس هناك قواعد مختلفة لكل عصر ؟ هل تسمح لي ، يا سيدي ؟

ورأيته ، وأنا مندهش ، يسحب من جيبه دفتراً صغيراً من الجلد الاسود . فيقلّب صفحاته لحظة : صفحات كثيرة بيضاء ، ومن بعيد لبعيد ، بضعة أسطر مكتوبة بالحبر الاحمر . وقد أصبح كله مصفراً . وقد وضع الدفتر على الخوان ، ووضع يده الكبيرة على الصفحة المفتوحة . وسعل في ارتباك :

– تخطر على بالي احياناً ، لا أجرؤ ان أقول افكار . وذلك غريب جداً : انني هنا أقرأ ، وفجأة ، ولا أدري مصدر ذلك ، أحسّني ملهماً . ولم أكن أهتم لذلك بادىء ذي بدء ، ثم صحّ عزمي على ان أبتاع دفتراً .

وتوقف ينظر إليّ : إنه ينتظر .

قلت : – آه ! آه !

– هذه الحكم ، يا سيدي ، هي طبعاً موقتة : فان ثقافتي لم تكتمل .

وأخذ الدفتر بيديه المرتجفتين فبدا شديد الانفعال :

– هذه بعض أشياء عن الرسم بالذات . وسأكون سعيداً اذا سمحت لي بأن أتلوها عليها .

قلت : – بكل رضى .

فقـــرأ :

– لم يبق ثمّة من يؤمن بما كان القرن الثامن عشر يعتقده صحيحاً . لماذا يُراد لنا ان نظل نستمتع بالآثار التي كان يعتبرها جميلة ؟

ونظر إليّ نظرة ابتهال :

– ما رأيك بذلك يا سيدي ؟ ربما كان ذلك متناقضاً بعض الشيء ؟ ذلك اني ظننتني مستطيعاً ان أضفي على فكرتي شكل فكاهة .

– الحق ... اني اجد ذلك مثيراً جداً للاهتمام .

– هل سبق لك ان قرأته في مكان ما ؟

– لا ، بكل تأكيد .

ـ حقاً ، لم تقرأه في أي مكان قط ؟

ثم أضاف وقد عاد اليه الغم :

ـ إن هذا يا سيدي غير صحيح إذن . فلو كان صحيحاً ، لسبقني غيري الى التفكير به .

فقلت له : ـ انتظر قليلاً ربما أفكر فيه . أعتقد اني قرأت شيئاً كهذا .

فالتمعت عيناه ، وسحب قلمه ، وسألني بلهجة واضحة :

ـ عند أي مؤلف ؟

ـ عند ... عند رينان .

فاستطار فرحاً ، وقال وهو يمص رأس قلمه :

ـ هل تتلطف فتذكر لي المقطع تماماً ؟

ـ لقد قرأت ذلك منذ وقت طويل جداً .

ـ اوه ، لا بأس ، لا بأس .

وكتب اسم رينان على دفتره ، تحت الحكمة. وقال موضحاً بلهجة مأخوذة:

ـ لقد التقيت برينان ! وقد كتب الاسم بالقلم الرصاصي ، ولكني سأسطره هذا المساء بالحبر الاحمر .

ونظر الى دفتره لحظة في نشوة ، وانتظرت ان يقرأ لي حكماً أخرى ، ولكنه أغلقه في حذر ودسّه في جيبه . لا شك في انه حكم بأن ما أصابه من سعادة ، في مرة واحدة ، كان حسبه . وقال بلهجة حميمة :

ـ كم يلذّ المرء ان يستطيع احياناً ان يتحدث على هذا النحو ، باستسلام.

وسحق هذا الحادث ، كما يمكن للانسان ان يتصور ، محادثتنا المسترخية . وتبع ذلك صمت طويل .

كان جوّ المطعم قد تغير ، منذ وصول الشابّة والشاب . فقد صمت الرجلان الاحمران ، وجعلا يدققان ، من غير انزعاج ، في محاسن المرأة الشابة . ووضع السيد الأنيق جريدته وأخذ ينظر اليهما في انبساط ، بل في شبه تواطؤ. إنه يفكر بأن الشيخوخة عاقلة ، والشباب جميل ، وهو يهز رأسه ببعض الغنج:

هو يعلم جيداً انه ما يزال جميلاً ، وانه محافظ على كل قواه ، وانه ما يزال يستطيع بسمرته ورقة جسمه ان يسحر . وهو يمثل دور الإشعار بالأبوة . أما أحاسيس الخادم فتبدو أبسط : لقد انزرعت امام الشاب والشابة تتأملهما فاغرة الفم .

انهما يتحدثان بصوت منخفض . لقد قُدمت لهما المقبلات ، ولكنهما لم يمسّاها . وبوسعي ، إذا أرهفت أذني ، ان التقط اطرافاً من احاديثهما . وأنا افهم فهماً افضل ما تقوله المرأة ، بصوتها الغنيّ والمحجّب .

ـ لا ، يا جان ، لا .

فتمتم الشاب في حيوية مهووسة :

ـ ولِمَ لا ؟

ـ لقد قلت لك الجواب .

ـ ليس ذلك سبباً.

هناك كلمات تفوتني ، ثم تقوم المرأة الشابة بحركة ضجر ساحرة :

ـ لقد حاولتُ اكثر مما ينبغي . لقد اجتزت السن التي يستطيع فيها المرء ان يبدأ حياته من جديد . انت تعلم أنني قد شخت .

فضحك الشاب بتهكم . واستطردت هي :

ـ إنني لن أستطيع ان أتحمّل ... خيبة .

قال الشاب : ـ يجب ان تتدرعي بالثقة . فانك هنا ، لن تعيشي كما أنت الآن .

فتنهدت : ـ أعرف ذلك .

ـ تذكري جانيت .

قالت في تكشيرة : ـ نعم .

ـ الحق اني انا اجد جميلاً جداً ، ما فعلته . لقد كانت جريئة .

فقالت المرأة الشابة :

ـ انت تعرف انها بالأحرى قد وثبت على المناسبة . وسأقول لك اني لو

شئت لحصلت على مئة مناسبة من هذا النوع . ولكني فضلت ان انتظر .

فقال برقة : — ولقد كنتِ على حق . كنت على حق بأن تنتظريني .

وضحكت بدورها وقالت :

— كم هو مغرور ! إنني لم أقل هذا .

وكففت عن الاصغاء إليهما : انهما يزعجانني . انهما سينامان معاً . وهما يعرفان ذلك . وكل منهما يعرف ان الآخر يعرف ذلك . ولكن لكونهما شابين، طاهرين ، ومحتشمين ، ولكون كل منهما يريد ان يحتفظ باحترامه واحترام الآخر ، ولما كان الحب شيئاً شعرياً عظيماً ينبغي ألا يحتفل ، فانهما يقصدان عدة مرات في الاسبوع المراقص والمطاعم ليقدّما مشهد رقصاتهما الطقوسية الصغيرة والآلية ...

يجب في آخر المطاف قتل الوقت . انهما شابان ذوا بنية جميلة ، ولا يزال أمامهما ثلاثون عاماً . فهما لذلك لا يستعجلان ، بل هما يبطئان ، وليسا في ذلك بمخطئين . وبعد ان يناما معاً ، يجب ان يجدا شيئاً آخر ليحجبا عبثية كينونتهما الهائلة . ومع ذلك ... أمن الضروري حتماً أن يكذب أحدهما على الآخر ؟

وأجيل عيني في القاعة . انها لنكتة ! ان جميع هؤلاء الاشخاص جالسون بهيئة رصينة ، يأكلون. لا، انهم لا يأكلون : وانما هم يجددون قواهم لينجزوا المهمة الملقاة على عاتقهم . إن لكل منهم عناده الشخصي الصغير الذي يمنعه من ان يلاحظ انه كائن ؛ ليس فيهم من لا يحسب نفسه ضرورياً لانسان او لشيء.

أليس العصامي هو الذي قال لي ذات مرة : « لم يكن ثمة من هو أكفأ من « نوسابيه » للقيام بهذا العمل التأليفي الواسع ؟ » إن كلاً منهم يعمل شيئاً صغيراً ، وليس ثمة من هو أكفأ منه للقيام بهذا العمل . ليس ثمة من هو أكفأ من ذلك الوكيل التجاري الرحّالة ، هنـاك ، للترويج لمعجون الاسنان « سوان » . وليس ثمة من هو أكفأ من هذا الشاب المثير للفضول لكي يدس يده تحت تنورة جارته . وأنا أجـدني بينهم ، فاذا نظروا إليّ ، فلا بدّ من

ان يفكروا بأنه ليس ثمة من هـــو أكفأ مني للقيام بما اقوم به . ولكني أنا « أعرف » . انه لا يبدو عليّ شيء، ولكني اعرف اني كائن، وانهم كائنون. ولو كنت أتقن فن الاقناع ، لذهبت أجلس قرب السيد ذي الشعر الابيض ولشرحت له ما هو الوجود . واني لأنفجر بالضحك وأنا اتصوّر الهيئة التي سيتخذها وجهه . إن « العصامي » ينظر إليّ في اندهاش . كم أتمنى أن أكف ، ولكني لا أستطيع : انني أضحك حتى لتسيل مني الدموع .

وقال لي العصامي بهيئة تحفّظ :

ــ أراك مرحاً يا سيدي ...

فقلت له ضاحكاً : ــ انا أفكر بأننا نقضي وقتنا هنا نأكل ونشرب لنحافظ على وجودنا الثمين ، وانه ليس ثمة اي تبرير للوجود على الاطلاق .

فاتخذ العصامي مظهر الجد ، وبذل جهداً ليفهمني . لقد ضحكت بصوت مرتفع اكثر مما ينبغي : فلقد رأيت عدة رؤوس تستدير إليّ . ثم إنني نادمٌ على اني نطقت بهذا كله . غير ان ذلك ، لا يعني في آخر الأمر أحداً .

وردد على مهل :

ــ ليس ثمة اي تبرير للوجود ... لا شك في انك تعني يا سيدي ان الحياة لا غاية لها ؟ أليس هذا ما يُدعى بالشاؤم ؟

وفكر لحظة أخرى ، ثم قال في عذوبة :

ــ قرأت منذ بضعة أعوام كتاباً لمؤلف امريكي كان عنوانه : « هل تستحق الحياة ان تُعاش ؟» . أليس هذا هو السؤال الذي تطرحه على نفسك ؟

بالطبع لا . ليس هذا هو السؤال الذي أطرحه على نفسي . ولكني لا أريد ان اشرح شيئاً . وقال لي العصامي بلهجة معزّية :

ــ ولقد انتهى المؤلف في صالح التفاؤل الارادي . إن للحياة معنى إذا اراد المرء ان يعطيها معنى . يجب عليه اولاً ان يعمل ، ان يرتمي في عمـــل . فاذا فكر بعد ذلك ، يكون قد التزم . ولست أدري رأيك في ذلك يا سيدي .

قلت : ــ لا رأي لي .

او أن رأيي في الحق أن هذا هو بالذات نوع الكذب الذي يتبادله الوكيل التجاري والشابة والشاب والسيد ذو الشعر الابيض .

وابتسم العصامي في شيء من الخبث وكثير من الزهو :

— وليس ذلك رأيي ايضاً . فأنا اعتقد انه لا ينبغي لنا ان نبحث عن معنى حياتنا في مثل هذا البعد .

— هكذا إذن ؟

إن هناك هدفاً يا سيدي ، هناك هدف ... إن هناك البشر .

هذا صحيح : فلقد نسيت انه مفكر إنساني . وقد ظـل لحظة صامتاً ، الوقت الذي التهم فيه نصف قطعة اللحم المطبوخ وقطعة كبيرة من الخبز . « إن هناك البشر » . لقد رسم نفسه برمّته — هذا الرقيق العطوف — أجل ، ولكنه لا يحسن التعبير عن ذلك . إن روحه تملأ عينيه ، هذا لا جدال فيه ، ولكن الروح لا تكفي . لقد سبق لي ان عاشرت مفكرين انسانيين من باريس ، وقد سمعتهم مئة مرة يقولون « إن هناك البشر » ولكن ذلك كان شيئاً آخر ! كان « فيرغان » لا يُضاهى . كان ينزع نظارتيه ، كما لو أنه يريد ان يظهر عارياً بجسمه البشري ، وكان يحدق فيّ بعينيه المؤثرتين ، بنظرة ثقيلة متعبة ، كـان يخيّل إليّ أنها تعرّيني لتلتقط جوهري البشري ، ثم كان يتمتم بلهجة منغّمة : « إن هناك البشر ، يا عزيزي ، هناك البشر » ، مضيفاً على « هناك » نوعاً من القوة ، كما لو أن حبه للبشر ، المتجدد والمدهش أبداً ، كان يتعثّر في جناحيه العملاقين .

أما حركات العصامي الايمائية ، فانها لم تكتسب هذه المخملية ؛ إن حبّه للبشر ساذج وبربري : انه انسانيّ ريفي .

وقلت له : — البشر ... البشر ... على كل حال ، لا يبدو عليك انك تهتم بهم كثيراً : انت دائماً وحيد ، وأنفك دائماً في كتاب .

فصفق العصامي بيديه وأخذ يضحك بخبث :

— انت على خطأ . آه ، يا سيدي ، اسمح لي ان أقول لك : أيّ خطأ هذا !

وصمت لحظة لينجز في تحفظ ابتلاع لقمته . وكان وجهه مشرقاً كالفجر . وخلفه ، انفجرت المرأة الشابة بضحكة خفيفة . وكان رفيقها قد مال عليها يهمس في أذنها .

وقال العصامي : — إن خطأك طبيعي جداً . وقد كان عليّ ان أقول لك ، منذ زمن طويل ... ولكني جدّ خجول ، يا سيدي : وكنت ألتمس مناسبة .

فقلت له بتأدب : — وها انك تجدها .

— أعتقد ذلك انا ايضاً . إن ما سأقوله لك ...

وتوقف وقد احمرّ وجهه :

— ولكن ربما كنت أضايقك ؟

فطمأنته ، فأطلق تنهّدة سعيدة .

— إن المرء يا سيدي لا يلتقي برجال مثلك كل يوم ، تقترن سعة النظر لديهم بنفاذ البصيرة . لقد انقضت اشهر وانا اود ان أحدثك ، ان اشرح لك ما الذي كنته ، وماذا أصبحته ...

وكان صحنه فارغاً نقياً . كما لو انه حمل لـه الساعة . واكتشفت فجأة ، بالقرب من صحني ، صينية قصدير صغيرة كانت تسبح فيها قطعة دجاج في مرق اسمر . يجب ان آكل هذا .

— كنت أحدثك منذ حين عن أسري في ألمانيا . وهناك ابتدأ كل شيء . كنت وحيداً قبل الحرب ، ولم أكن اشعر بذلك ، كنت أعيش مع اهلي الذين كانوا أناساً طيبين ، ولكني لم أكن أتفاهم معهم . اني حين أفكر بتلك السنوات ... ولكن كيف استطعت ان أعيش على ذلك النحو ؟ كنت ميتاً يا سيدي ، ولم أكن أحس بذلك ، وكنت املك مجموعة من طوابع البريد .

ونظر إليّ ثم أضاف :

— يا سيدي ، انت ممتقع ، ويبدو عليك التعب . انني لا أضايقك ، على الاقل ؟

— بل انت تثير اهتمامي كثيراً .

ــ وأتت الحرب فتطوعت من غير ان ادري لماذا . وقد بقيت عامين من غير ان افهم ، لأن حياة الجبهة كانت لا تدع إلا وقتاً يسيراً للتفكير ، ثم إن الجنود كانوا مفرطين في الوحشية . وفي نهاية عام ١٩١٧ أسرت . وقيل لي منذ ذلك الحين ان كثيراً من الجنود قد استردوا ، في الأسر ، الإيمان الذي كان يملأ طفولتهم .

واستطرد العصامي وهو يُرخي جفنيه على حدقتيه الملتهبتين :

ــ انني يا سيدي لا اؤمن بالله ؛ فان العلم ينكر وجوده . ولكني في معسكر الاعتقال ، تعلمت ان اؤمن بالانسان .

ــ ألأنهم كانوا يتحملون مصيرهم بشجاعة ؟

فقال بهيئة غامضة :

ــ نعم ، كان هذا عنصراً آخر . والحق انا كنا نعامل معاملة طيبة . ولكني كنت أقصد شيئاً آخر : ففي شهور الحرب الاخيرة ، كفّوا عن ان يعطونا عملاً . وحين كانت السماء تمطر ، كانوا يدخلوننا في سقيفة كبيرة للألواح الخشبية كنا نقف فيها مئتين تقريباً ، متلاصقين . وكانوا يغلقون الباب ، ويتركوننا هناك ، متلاصقين فيما بيننا ، في ظلام شبه تام .

وتردد لحظة ، ثم أضاف :

ــ لن استطيع ان اعبّر لك يا سيدي . كان جميع اولئك الرجال هناك ، لا يكاد المرء يراهم ، ولكنه كان يحسّهم ملتصقين بـه ، وكان يسمع صوت تنفسهم . وفي احدى المرات الأولى التي حبسونا فيهـا في تلك السقيفة ، كان الضغط شديداً جداً حتى حسبت اول الامر اني سأختنق ، ثم ارتفع فيّ فجأة فرح قوي حتى كدت أنهار : واذ ذاك أحسست أني أحب هؤلاء الرجال كأنهم إخوة ، ووددت لو أقبّلهم جميعاً . وبعد ذلك ، كنت أحس الفرح نفسه كلما دخلت السقيفة .

يجب ان آكل قطعة الدجاج التي لا بد ان تكون قد بردت . فلقد انتهى العصامي منذ وقت طويل ، والخادم تنتظر لتغيّر الصحون .

– كانت هذه السقيفة قد اكتست في نظري طابعاً مقدساً . وقد نجحت احياناً في التحرر من مراقبة حراسنا ، فدلفت الى السقيفة وحيداً ، وهناك ، في الظلام ، في ذكرى الفرحة التي عرفتها فيها ، كنت أسقط في نوع من النشوة . وكانت الساعات تمر ، ولكني لم أكن أتنبه اليها . وقد حدث لي ان بكيت .

لا بد أني مريض : فليس ثمة طريقة أخرى لشرح هذا الغضب الشديد الذي هزّني . اجل ، غضبُ مريض : كانت يداي ترتجفان ، وقد صعد الدم الى وجهي ، وانتهى الامر بشفتيّ فأخذتا ترتعشان . كل هذا ، لأن الدجاجة كانت بيساطة ، باردة . وأنا ايضاً كنت في الواقع بارداً ، وكان هذا أشق ما في الأمر : أقصد ان أعماقي قد ظلت كما كانت منذ ست وثلاثين ساعة ، باردة جداً ، مثلجة . لقد احترقني الغضب وهو يدوّم ، وكان ذلك شبيهاً برعشة ، بجهد يبذله وعيي ليقوم برد الفعل ، ليقاوم سقوط الحرارة هذا . جهد عابث : فلا ريب في اني كنت جديراً ، لأتفه الأسباب ، ان أنقضّ على العصامي او الخادم لأوسعهما ضرباً وأرهقهما شتماً . ولكني لن اكون قد دخلت بكليّتي في اللعبة لو فعلت . لقد كان غضبي يرتجّ على السطح ، وقد أحسست ذات لحظة إحساساً شاقاً بأني كتلة من ثلج محاطة بالنار . وتلاشى هذا الاضطراب السطحي ، وسمعت العصامي يقول :

– كنت كل يوم احد ، أذهب الى القدّاس . وانا يا سيدي لم اكن يوماً مؤمناً . ولكن ألا نستطيع ان نقول ان سر القداس الحقيقي انما هو التواصل بين الناس ؟ كان ثمة كاهن فرنسي ، لم يبق له إلا ذراع واحدة ، يقيم القداس الاحتفالي . وكان لدينا أرغن ، وكنا نستمع وقوفاً ، عاري الرؤوس ، وبينما كانت أنغام الارغن تحملني ، كنت أحسّني أشكل كلاً واحداً مع جميع الناس الذين كانوا يحيطون بي . آه ! لكم استطعت ان احب تلك القداديس يا سيدي . وما زلت حتى الآن ، احياءً لذكراها ، أقصد الكنيسة أحياناً ، صباح الاحد . ولدينا في كنيسة سانت سيسيل عازف أرغن ماهر .

— لا بد انك قد اشتقت غالباً الى تلك الحياة ؟

— نعم يا سيدي، سنة ١٩١٩. انها سنة تحريري . لقد قضيت شهوراً شاقة جداً . لم أكن ادري ماذا افعل ، كنت أتلاشى . وكنت حيثما وجدت بشراً متجمّعين أندس بينهم .

وأضاف وهو يبتسم :

— وقد حدث أني مشيت في جنازة رجل مجهول . وذات يوم ، قذفت ، من فرط اليأس ، مجموعة طوابعي في النار ... ولكني وجدت دربي ..

— حقاً ؟

— لقد نصحني أحدهم ... أعرف يا سيدي أني استطيع ان اعتمد على تكتمك . انني — ربما لم تكن هذه افكارك ، ولكن لك فكراً واسعاً جداً — انني اشتراكي .

وخفض عينيه فخفقت جفونه الطويلة :

— منذ شهر ايلول ١٩٢١ ، تسجلت في « الحزب الاشتراكي » . هذا ما كنت اود ان أطلعك عليه .

وكان يشع افتخاراً . وجعل ينظر إليّ . ورأسه مرتد الى خلف . وعيناه نصف مغمضتين ، وفمه مشقوق ، فكأنه شهيد.

قلت : — حسناً جداً .

— كنت اعرف يا سيـــدي انك ستقرّني . وأنّى للمرء ان يوبخ من يأتي فيقول له : لقد تصرفت بحياتي على هـــذا النحو وهذا النحو ، وهأنذا الآن سعيد جداً ؟

وفتح ذراعيه وقدّم لي راحتيه ، وأصابعهما موجهة نحو الارض ، كما لو انه يوشك ان يتلقى الجروح . كانت عيناه زجاجيتين ، وقـــد رأيت في فمه كتلة وردية معتمة تتدحرج . فقلت :

— آه ، ما دمت سعيداً ...

— سعيد ؟

إن نظره يبعث على الضيق ، وقد رفع جفنيه وحدّق فيّ تحديقاً قاسياً :

– سيتاح لك يا سيدي ان تحكم في الامر . كنت أحسّني ، قبل ان أتخذ هذا القرار ، في وحدة قطيعة جداً حتى اني فكرت بالانتحار . غير ان ما أمسكني هو التفكير بأن احداً على الاطلاق لن يتأثر لموتي ، وسأكون في الموت أشدّ وحدة مما كنت في الحياة .

واستقام وقد انتفخ خداه :

– اني لست بعدُ وحيداً يا سيدي . لن أكون بعدُ وحيداً أبداً .

قلت : – آه ، انك تعرف كثيراً من الناس ؟

فابتسم ، وسرعان ما أدركت سذاجتي :

– أقصد الى القول إني لا « أحسّني » بعدُ وحيداً . ولكن بالطبع يا سيدي ليس من الضروري ان اكون مع احد .

قلت : – ومع ذلك ، ففي الحزب الاشتراكي ...

– آه ، انني اعرف الجميع هناك . ولكن معظمهم ، انما اعرفهم اسماً فقط .

وأضاف في دهاء:

– هل يكون المرء مجبراً ياسيدي على ان يختار رفاقه على هذا النحو الضيق؟ إن اصدقائي هم البشر جميعاً . حين اقصد المكتب في الصباح ، فان أمامي وورائي رجالاً آخرين يذهبون الى أعمالهم . إنني أراهم ، ولو كنت اجرؤ لبسمت لهم ، انا افكر بأني اشتراكي ، وانهم جميعاً غايةُ حياتي ، وجهودي، وانهم لا يعرفون ذلك بعد . إن هذا عيدٌ لي ، يا سيدي .

وساءلني بعينه ، فأقررت وأنا أهزّ برأسي ، ولكني شعرت انه خائب بعض الخيبة ، وانه يودّ مزيداً من الحماسة . ماذا استطيع ان اصنع ؟ أيكون خطأي ان ألمس ، في كل ما يقوله لي ، التكلّف والاستشهاد ؟ وأن أرى ، فيما هو يتكلم ، جميع الانسانيين الذين عرفتهم يظهرون ؟ لقد عرفت كثيراً منهم مع الاسف! إن الانساني الراديكالي بصورة خاصة صديق الموظفين؛ والانساني

الذي يوصف بـ « اليساري » همه الرئيسي الحفاظ على القيم الانسانية ؛ إنه لا ينتمي الى اي حزب ، لأنه لا يريد ان يخون ما هو انساني ، ولكن عاطفته تتجه الى الوضعاء ، وهو يكرس للوضعاء ثقافته الكلاسيكية الجميلة . انه بالاجمال أرملٌ ذو عين جميلة مندّاة بالدمع دائماً : وهو يبكي في اعياد الميلاد ، ويحب ايضاً القطة والكلب وجميع الضرعيات العليا . امـا الكاتب الشيوعي فيحب الناس منذ أُعلن المشروع الثاني للسنوات الخمس ؛ وهو يُعاقب لأنه يحب ؛ وهو لاحتشامه ، شأن جميع الأقوياء ، يُحسن إخفاء عواطفه ، ولكنه يُحسن كذلك ، بنظرة ، او بثنية من صوته ، ان يُشعرنا ، فيما وراء كلماتـه المحبة للعدل ، بعاطفته المهووسة الرقيقة لاخوته . وأما الانساني الكاثوليكي ، المتأخر الوصول ، الابن الأعز ، فانه يتحدث عن البشر بلهجة إعجاب شديد . إنـه يقول : ما اجملها قصة جن ، قصة تلك الحياة المتواضعة التي يعيشها عـامل مرفأ لندني ، او مضرّبة احذية ! لقد اختار انسانية الملائكة ؛ وهو يكتب ، في سبيل بناء الملائكة ، روايات طويلة حزينة وجميلة ، غالباً ما تحرز جائزة « فمينـا » .

هذه هي الادوار الكبيرة الاولى . ولكن هناك أدواراً أخرى . غيمة من الادوار الاخرى : الفيلسوف الانساني الذي ينحني عـلى إخوته كأخ اكبر والذي يملك حس مسؤولياته ؛ والانساني الذي يحب البشر كما هم ؛ والانساني الذي يحبهم كما ينبغي ان يكونوا ، ذلك الذي يريد ان يخلق اساطير جديدة ، والذي يكتفي بالقديمة ، والذي يحب في الانسان موته ، والذي يحب في الانسان حياته ، والانساني الفرح الذي يملك دائماً الكلمة الضاحكة ، والانساني المظلم الذي نلتقي به خصوصاً في الأماسي المأتمية . انهم جميعاً يتبادلون الكراهية كأفراد طبعاً ، لا كبشر . ولكن العصامي يجهل ذلك : فلقد حبسهم في نفسه كما تُحبس قططٌ في كيس جلدي ، وهم يتنازعون ويجرح بعضهم بعضاً ، من غير ان يشعر هو بذلك .

وكان قد بدأ ينظر إليّ بثقة أقل :

ـ ألا تشعر بالأمر ، كما اشعر به يا سيدي ؟
ـ الحقيقة ...
وإزاء هيئته القلقة التي لا تخلو من حقد ، احس بعض الندم اني قد خيبت ظنه . ولكنه استطرد بود :
ـ اعرف ان لك ابحاثك وتحقيقاتك وكتبك ، فأنت تخـدم القضية نفسها على طريقتك .
كتبي ، تحقيقاتي ، يا للأبله ! انه لا يستطيع ان يرتكب خطـأ افدح من هذا .
ـ انني لا اكتب من اجل هذا .
وعلى الفور تغيرت ملامح العصامي : فكأنما هو قد شم رائحة العدو ، ولم يسبق لي قط ان رأيت مثل هذا التعبير على وجهه . لقد مات شيء ما بيننا .
وسأل وهو يتظاهر بالدهشة :
ـ ولكن .. لماذا تكتب اذن يا سيدي ، واغفر لي هذه الصراحة ؟
ـ الحقيقة ... انني لا ادري . اكتب هذا ، لكي اكتب .
فابتسم بزهو ، لقد اعتقد انه اربكني :
ـ هل تكتب في جزيرة مقفرة ؟ ألا يكتب الانسان دائماً لكي يُقرأ ؟
انما اعطى عبارته صبغة التساؤل بدافع العادة. فالواقع انه يؤكد . لقد انقشر طلاء عذوبته وخجله ؛ فبت أُنكره . وقد نمّت ملامحه عن عناد ثقيل ، فبدا جداراً من الرضى والاكتفاء . ولم تكن دهشتي قـد انقضت حين استطرد يقول :
ـ إذا قيل لي : انما اكتب من اجل فئة اجتماعية ، من أجل فريق من الاصدقاء ، فاني افهم ذلك . وربماكنت تكتب للأجيال القادمة ... ولكنك يا سيدي ، بالرغم منك ، تكتب من اجل احد .
وانتظر جواباً ، فلما تأخر ، ابتسم ابتسامة خفيفة :
ـ ربماكنت متشائماً ؟

وأعرف ماكان يخفيه هذا الجهد الخادع للمصالحة . إنه بالاجمال يطلب مني شيئاً يسيراً : ان اقبـل ببساطة صفقة او طابعـاً . ولكن ذلك كان شركاً : فاذا وافقت ، انتصر العصامي ، ولن ألبث ان أنهزم ويمسك بي وأتجاوز ، لأن النزعة الانسانية تسترد جميع المسالك الانسانية وتذيبها معاً. إن من يعارضها مواجهةً ينساق للعبتها ؛ فهي تعيش من معاكستها . إنها جنسٌ من الاشخاص المعاندين المحدودين ، جنس من قطاع الطرق ، يخسرون دائماً معها : فهي تهضم كل ألوان عنفهم ، وأسوأ تجاوزاتهم ، فتجعل منها لمفا بيضاء مزبدة . لقد هضمت النزعة المناهضة للفكرية ، وهضمت المانوية ، والصوفية ، ونزعة بغض البشر ، والفوضوية والأنانية : فليست هذه بعدُ الا مراحل ، افكاراً غير ناجزة لا تجد تبريرها الا بها . ونزعة بغض البشر تتخذ مجلسها ايضاً في هذه الحفلة الموسيقية : فليست هي الا نشازاً ضرورياً لتناغم الكل . إن مبغض البشر إنسان : فيجب اذن ان يكون الانساني مبغضاً للبشر على نحو ما . ولكنه مبغض للبشر علميّ ، عرف ان يعيّن مقدار بغضه ، وهو لا يبغض البشر اولاً الا ليكون فيما بعد أقدر على ان يحبهم .

انني لا أريد ان أصهر ، ولا ان يذهب دمي الجميل الاحمر ليُسمن ذلك الوحش اللمفاوي : انني لن ارتكب حماقـة ان اصف نفسي بـ « مناهض للانسانية » كل ما هنالك ، انني « لستُ » انسانياً .

وقلت للعصامي :

— أرى ان المرء لا يستطيع ان يكره البشر اكثر مما يحبهم .

فنظر إليّ العصامي نظرة عاطفية بعيدة . وتمتم ، كما لو انه غير منتبه لكلماته :

— يجب ان نحبهم ، يجب ان نحبهم ...

— من هم الذين يجب ان نحبهم ؟ الاشخاص الذين هم هنا ؟

— والذين هم هناك ايضاً . الجميع .

واستدار نحو الشابة والشاب المشرقيّ الفتوّة : ذلك ما ينبغي ان يُحب .

وتأمل لحظة السيد ذا الشعر الأبيض ، ثم ارتدّ ببصره اليّ ، فقرأت على وجهه سؤال استفهام أخرس . وأومأت برأسي « لا » . فبدا على وجهه انه يشفق عليّ .

وقلت له متزعجاً : — انك انت ايضاً لا تحبّهم .

— حقاً يا سيدي ؟ هل تسمح بأن يكون لي رأي مختلف ؟

واستعاد مظهر الوقار حتى اطراف اظافره ، ولكن نظره كان نظر المتهكم الذي يجد متعة كبيرة . انه يحقد عليّ . ولقد اخطأت حين تعطّفت على هذا الأهوس . وسألته بدوري :

— قل لي ، هل تحب هذين الشخصين الشابين ، وراءك ؟

فتطلّع اليها مرة اخرى ، وفكّر ، ثم قال مرتاباً :

— انك تريدني ان اقول اني احبها من غير ان اعرفها . الحق يا سيدي اني لا اعرفها ، وأقرّ ذلك ...

ثم أضاف بضحكة مزهوّة :

— الا ان يكون الحبّ بالذات هو المعرفة الحقيقية !

— ولكن ماذا تحب ؟

— ارى انهما شابّان ، فانما احب فيهما الشباب ، بين اشياء اخرى ، يا سيدي.

وكفّ مرهفاً اذنه :

— هل تفهم ماذا يقولان ؟

يسألني عما اذا كنت أفهم ؟! كان الشاب ، وقد جرّأه الودّ الذي يحيط به ، يروي بصوت ممتلئ مباراة في كرة القدم ربحها فريقه في العام الماضي ضد نادٍ من الهافر .

وقلت للعصامي : — انه يروي لها قصته .

— آه ! انني لا أسمع جيداً . ولكني أسمع الصوتين ، الصوت الناعم ، والصوت الخشن : انهما يتناوبان . فما .. ما ألطف هذا !

— اما انا ، فأسمع ما يقولانه ، مع الأسف .

ـ ماذا يقولان ؟

ـ الحق انهما يمثلان .

فسأل بتهكم :

ـ حقاً ؟ ربما كانا يمثلان مسرحية الشباب ؟ اسمح لي يا سيدي بأن اجدها مفيدة جداً . هل يكفي المرء ان يمثلها ليعود الى مثل عمرهما ؟

فتجاهلت تهكمه ، واستطردت :

ـ انك توليهما ظهرك ، وما يقولانه يفوتك ... ما هو لون شعر المرأة الشابة ؟

فاضطرب ، ثم وجه نظرة نحوهما فاسترد طمأنينته وقال :

ـ انه أسود .

ـ انك ترى اذن .

ـ ماذا تعني ؟

ـ انت ترى جيداً انك لا تحبها ، هذين الاثنين . انك لن تستطيع ان تعرفهما ثانية اذا لقيتهما في الشارع . فليسا هما في نظرك الا رمزين . انت لا ترق لهما ، هما بالذات ، وانما ترق لـ « شباب الانسان » ، لـ « حب الرجل والمرأة » ، لـ « الصوت الانساني » .

ـ واذن ؟ أليس هذا موجوداً ؟

ـ بالتأكيد لا ، هذا ليس موجوداً ! لا « الشباب » ولا « الكهولة » ولا « الشيخوخة » ، ولا « الموت » ...

فبدا وجه العصامي الممتقع القاسي كأنه سفرجلة ، متسمراً في تكشير انكاري . بيد اني تابعت :

ـ هذا شأن ذلك السيد المسن خلفك الذي يشرب ماء فيشي . فأنا افترض انك انما تحب فيه « الانسان الناضج » ، الانسان الناضج الذي يسير بشجاعة نحو منحدره والذي يُعنى بمظهره لأنه لا يريد ان يستسلم ؟

فقال لي في تحدّ : ـ تماماً .

– ومع ذلك ، الا ترى انه قذر جبان ؟

فضحك ، انه يجدني طائشاً ، وقد رمى بنظرة موجزة الى الوجه الجميل المؤطر بالشعر الأبيض .

– ولكن لنفرض يا سيدي انه يبدو كما ذكرت ، فكيف تستطيع ان تحكم على هذا الرجل من سحنته ؟ ان الوجه يا سيدي لا يعبّر عن شيء حين يكون في حالة الراحة .

يا للانسانيين العُمي ! ان هذا الوجه هو جدّ « معبّر » ، جدّ واضح – ولكن روحهم الرقيقة المجرّدة لم تتأثر قط بمعنى وجه .

قال العصامي : – كيف تستطيع ان « تقرّر » انساناً ، ان تقول « انه كذا او كذا ؟ من يستطيع ان يستنفد انساناً ؟ من يستطيع ان يعرف ينابيع انسان ؟

استنفاد انسان ! اني أُحيّي ، بالمناسبة ، النزعة الانسانية الكاثوليكية التي استعار منها العصامي ، من غير ان يدري ، هذه الصيغة .

وقلت له : – اعرف ، اعرف ان جميع البشر رائعون . انت رائع . انا رائع . بصفتنا مخلوقات الرب . طبعاً .

فنظر اليّ من غير ان يفهم ، ثم قال ببسمة هزيلة :

– لا شك في انك تمزح يا سيدي ، ولكنه امرٌ صحيح ان جميع البشر يستحقون اعجابنا . انه صعب ، يا سيدي ، صعب جداً ان يكون المرء انساناً .

ها هو يترك من غير ان يلاحظ ، حبّ البشر في المسيح ؛ انه يهزّ رأسه ، فاذا هو شبيه بذلك المسكين غيهينو ، عن طريق ظاهرة ايمائية غريبة .

وقلت له : – المعذرة ، ولكن هذا يعني اني لست متأكداً حقاً من اني انسان : فأنا لم اجد ذلك صعباً قط . كان يخيّل اليّ انه لم يكن على المرء الا ان يستسلم .

فضحك العصامي بطلاقة ، ولكن عينيه ظلّتا سيئتين :

– انك مفرط التواضع يا سيدي . فلكي تتحمل وضعك ، وضعك البشري ،

فانك بحاجة ، كسائر الناس ، الى كثير من الشجاعة . ان اللحظة التي تأتي يا سيدي يمكن ان تكون لحظة موتك ، انت تعرف ذلك ، وبوسعك ان تبتسم : أليس هذا رائعاً ومدعاة للإعجاب ؟

وأضاف في مرارة :

– انّ في اتفه افعالك قدراً هائلاً من البطولة .

قالت الخادم : – وما الذي تأخذانه في النهاية يا سيدي ؟

وكان العصامي ابيض كل البياض ، وجفناه منطبقتان نصف انطباق على عينين حجريتين . وقام بحركة ضعيفة من يده ، كما لو انه يدعوني للاختيار ، فقلت في بطولة :

– قطعة جبن .

– والسيد ؟

فانتفض :

– ماذا ؟ آه نعم : لمْ آخذ شيئاً . لقد انتهيت .

– لويز !

ودفع الرجلان السمينان ومضيا . وكان احدهما يعرج . وقادتهما صاحبة المطعم الى الباب : انهما زبونان هامّان ، فقد قُدّمت لهما زجاجة خمر في دلو ثلج .

ورحت اتأمّل العصامي في شيء من الندم : لقد تمتّع طوال الاسبوع في تخيّل هذا الغداء الذي سيمكّنه من ان يُطلع انساناً آخر على محبته للناس . ان الفرص التي تتيح له ان يتكلم نادرة جداً . وهأنذا أُفسد عليه متعته . انه في حقيقته على مثل توحّدي ؛ فليس ثمّة من يهتمّ به . غير انه لا يشعر بوحدته . اجل : ولكن لم يكن عليّ انا ان افتّح عينيه . وأحسستني منزعجاً : صحيح انني غاضب ، ولكن لا عليه ، بل على امثال فيرغان والآخرين ، جميع الذين سمّموا هذا العقل المسكين . ولو كان بوسعي ان أوقفهم هنا ، امامي ، لكان لديّ شيء كثير اقوله لهم . اما العصامي ، فلن أقول له شيئاً ، فانا لا اكنّ له

غير الودّ : انه شخص من نوع السيد أشيل ، من نوعي انا ، وقد خان بدافع من جهل ، بدافع من ارادة حسنة !

وانتشلتني من احلامي الضجرة ضحكةٌ اطلقها العصامي :

— اعذرني يا سيدي ، فانني حين افكر بعمق حبّي للبشر ، وبقوة الاندفاعات التي تحملني اليهم ، ثم ارانا هنا نحاكم ونبرهن ... فان ذلك يعطيني الرغبة في الضحك .

فصمتُّ . وابتسمت بسمة مقتسرة . ووضعت الخادم امامي صحناً فيه قطعة من جبن الكامامبير . وأجلت بصري في القاعة فغمرني شعور نفور عنيف . ما الذي افعله هنا ما شأني والخطابة عن النزعة الانسانية ؟ ولماذا يكون هؤلاء الأشخاص هنا ، لماذا يأكلون ؟ صحيح انهم ، هم ، لا يعرفون انهم كائنون . انني راغبٌ في الذهاب ، في الرحيل الى جهة اكون فيها حقاً « في مكاني » اتعلّب فيها ... ولكن مكاني ليس في اية جهة ؛ انني زائدٌ عن اللزوم .

رقّت ملامح العصامي . كان قد خشي من قبلي مقاومة اشدّ ، وهو يودّ حقاً ان يمرّ بالإسفنجة على كل ما قلت . وقد مال عليّ بهيئة مسارّة :

— انك في اعماقك تحبّهم يا سيدي ، تحبّهم مثلي : وانما تفصل بيننا كلمات .

لا استطيع بعدُ ان اتكلّم ، واني احني رأسي . كان وجه العصامي بازاء وجهي تماماً . وقد ابتسم بسمة مزهوّة ، بازاء وجهي تماماً ، كما يحدث في الكوابيس . وأمضغ بمشقّة قطعة خبز لا اقرّر ان ابتلعها . البشر . يجب ان نحب البشر . ان البشر رائعون معجبون . إن بي رغبةً للتقيؤ — وفجأة تم الأمر : « الغثيان » .

نوبةٌ جميلة : تهزّني من فوق الى تحت . منذ ساعة وانا اراها قادمة ، غير اني لم اكن اريد ان اعترف بها . طعم هذا الجبن في فمي ... العصامي يثرثر وصوته يطنّ بعذوبة في اذنيّ . ولكني لا اعلم بعدُ على الاطلاق عن اي شيء يتكلم . وانا اقرّه آلياً برأسي . يدي متشنّجة على مقبض المدية ، وانا «أحسّ»

هذا المقبض الخشبي الأسود . ان يدي هي التي تمسكه . يدي . لو خيرت شخصياً ، لآثرت ان اترك هذه المدية وشأنها : فما جدوى ان يلمس المرء دائماً شيئاً ما ؟ ان الاشياء لم تُصنع لتُمس . فمن الأفضل ان يندس المرء بينها ، متجنباً اياها ما وسعه ذلك . انه يأخذ احدها احياناً بيده ، فيضطر الى تركه بأسرع ما يمكن . وتسقط المدية على الصحن . فينتفض لصوتها السيد ذو الشعر الأبيض وينظر الي . وآخذ المدية ثانية ، فأسند شفرتها على الطاولة وأطويها .

هذا إذن هو « الغثيان » : هذه البدهية التي تُعمي ؟ لقد حفرت رأسي ! لقد كتبت عنها ! وها انا الآن : كائن — العالم كائن — وأعلم ان العالم كائن . هذا كل شيء . ولكن الأمر لدي سواء . وغريب ان يكون كل شيء لدي سواء : هذا يذعرني . لقد حدث هذا منذ ذلك اليوم العظيم الذي اردت فيه ان ألقي الحصى في البحر بحيث يمس سطح الماء . كنت اوشك ان اقذف تلك الحصاة ، فنظرت اليها ، وآنذاك بدأ كل شيء : لقد احسست بأنها كانت « كائنة » . وبعد ذلك ، حدثت « غثيانات » كثيرة ؛ ان الاشياء تأخذ بين الفينة والفينة ان « تكون » في يدك . حدث غثيان مقهى « راندیفو دي شامينو » ، وغثيان آخر ، قبل ذلك ، ليلة كنت انظر من النافذة ؛ وغثيان ثالث في الحديقة العامة ، في يوم احد ، وغثيانات اخرى بعد ذلك ، ولكن لم تكن قط قوية كما هو غثيان اليوم .

— ... من روما القديمة ، يا سيدي ؟

أظن ان العصامي يسألني . وألتفت اليه فابتسم له . ما به ؟ لماذا تراه يتكوم على كرسيه ؟ انني اذن اثير الخوف الآن ؟ لا بد ان ينتهي الأمر هكذا . والحق ان الأمر عندي سواء . انهم غير مخطئين تماماً في ان يخافوا : فانا احس جيداً ان بوسعي ان افعل اي شيء . ان اغرز مثلاً هذه المدية التي تستعمل لقطع الجبن في عين العصامي . وبعد ذلك سيدوسني جميع هؤلاء الأشخاص ، وسيحطمون اسناني بضربات احذيتهم . ولكن ذلك ليس هو ما يوقفني : فان

مذاق دم في فمي بدلاً من مذاق الجبن هذا ، لا يشكّل فرقاً . غير انه لا بدّ من القيام بحركة ، خلق حدَث لا طائل فيه : فستكون الصيحة التي يطلقها العصامي زائدة عن اللزوم — وكذلك الدم الذي يسيل على خده وانتفاض جميع هؤلاء الأشخاص . ان هناك ما فيه الكفاية من الأشياء التي توجد على هذا النحو .

الجميع ينظرون اليّ ؛ وقد قطع ممثّلا الشباب حديثهما العذب ، كان فم المرأة فاغراً كإست دجاجة . لا بدّ انهم كانوا يرون ، مع ذلك ، اني غير قابل للإيذاء .

وأنهض ، وكل شيء من حولي يدور . ويحدّق العصامي فيّ بعينيه الكبيرتين اللتين لن أفقأهما . ويتمتم :

— هل انت ذاهب ؟

— اني متعب قليلاً . وانت لطيف جداً أنّك دعوتني . الى اللقاء .

ولاحظت ، وأنا ذاهب ، اني احتفظت في يدي اليسرى بمدية آخر الطعام . فألقيتها على صحني الذي اخذ يطن . واجتزت القاعة وسط الصمت . لقد كفّوا عن الطعام : انهم ينظرون اليّ ، وقد انقطعت قابليتهم . لو انني تقدّمت نحو المرأة الشابة وقلت لها « هِم » ، فستأخذ في الصراخ ، بلا شك . لا فائدة من ذلك .

ومع هذا ، فقد التفتُ قبل ان اخرج وأريتُهم وجهي ليستطيعوا ان يحفروه في ذاكرتهم .

— الى اللقاء ، سادتي سيداتي .

فلم يجيبوا . ومضيت . ان خدودهم ستسترد الآن ألوانها ، وسيأخذون في الثرثرة .

لا أدري اين اذهب ، فأنا مزروع الى جانب الطبّاخ الكرتوني . ولا حاجة بي الى الالتفات لأعرف انهم ينظرون اليّ عبر زجاج النوافذ : انهم ينظرون الى ظهري في دهشة واشمئزاز ؛ كانوا يعتقدون اني كنت مثلهم ، اني كنت

انساناً واني خدعتهم . وفجأة ، فقدت مظهري الانساني ، فرأوا سرطاناً يفرّ القهقرى من هذه القاعة الانسانية . وها هو الدخيل الذي نزع قناعه يفرّ : وتستمرّ الجلسة . انه يزعجني ان أُحسّ في ظهري كلّ هذا التحرّك والاضطراب للعيون والافكار المذعورة . وأجتاز الطريق الى الرصيف الآخر الذي يحاذي الشاطىء وغرف الحمامات .

هناك اشخاص كثيرون يتنزّهون على شاطىء البحر ، ويُديرون نحو البحر وجوهاً ربيعية ، شاعرية : ان ذلك بسبب الشمس ، فهم في عيد . هناك نساء يرتدين ثياباً خفيفة سبق ان ارتدينها في الربيع الماضي ؛ وهنّ يمررن طويلات بيضاوات كقفازات جلدية ملمّعة ؛ وهناك ايضاً صبية كبار يقصدون الليسيه او مدرسة التجارة ، وشيوخ يتحلّون بأوسمتهم . انهم ، لا يعرف بعضهم بعضاً ، ولكنهم يتبادلون النظر في هيئة تواطؤ ، لأن الطقس جميل جداً ، ولأنهم بشر . ان البشر يتعانقون من غير ان يتعارفوا ، في ايام اعلان الحرب ؛ وهم يتبادلون البسمات عند حلول كل ربيع . ويتقدّم كاهن يخطيّ بطيئة وهو يقرأ كتاب فرض الكهنة . وهو بين الفينة والفينة يرفع رأسه وينظر الى البحر نظرة موافقة : فالبحر ايضاً كتاب فرض للكهنة ، انه يتحدث عن الرب . ألوان خفيفة ، عطورٌ خفيفة ، أرواح ربيعية . « الطقس جميل ، البحر أخضر . افضّل هذا البرد الجافّ على الرطوبة » . يا للشعراء ! لو اخذت احدهم من ذيل معطفه ، وقلت له « تعال الى مساعدتي » فسوف يفكر « ما هذا السرطان ؟ » وسيهرب تاركاً معطفه بين يديّ .

وأوليهم ظهري ، واستند بكلتا يديّ الى الدربزون . ان البحر « الحقيقي » بارداً وأسود ، زاخرٌ بالوحوش؛ انه يزحف تحت هذه القشرة الرقيقة الخضراء التي صُنعت لتخدع الناس.وان الجنّ الذين يحيطون بي قد استسلموا لها : فهم لا يرون الا القشرة الرقيقة ، وهي التي تبرهن عن وجود الله . اما انا ، فأرى التحت ! ان الطلاء يذوب ، والجلود الصغيرة المخملية اللامعة تفرقع في كلّ مكان تحت بصري ، انها تشقّ بعضها بعضاً . هوذا ترام سانت — اليمير ،

وأستدير على عقبي فتدور الاشياء معي ، صفراء وخضراء كأنها قواقع الصدف. غير مجد ، غير مجد ان اقفز الى داخلها ، ما دمت لا أريد ان اذهب الى اي مكان .

وخلف الواجهات ، تتخطف الاشياء المزرقة ، في موجات ، صلبةً قابلة للكسر . أناس ، وجدران . ويعرض عليّ احد البيوت ، عبر نوافذه المفتوحة ، قلبه الاسود ، ويصفرّ زجاج النوافذ كل ما هو اسود ، ويزرقّه ، يزرقّ هذا المسكن الكبير ذا القرميد الاصفر الذي يتقدم متردداً ، وهو يرتعش ، ثم يتوقف فجأة ، وهو يغرز بأنفه . ويصعد سيد فيجلس قبالتي . ويستأنف المسكن الاصفر سيره ، فينزلق بقفزة إزاء الواجهات الزجاجية ، ويصبح قريباً جداً حتى لا يُرى منه بعدُ الا جزء ، وقد أظلم واسودّ . وترتجف الواجهات . ويرتفع ساحقاً ، أعلى من ان تمكن رؤيته ، مع مئات من النوافذ المفتوحة على قلوب سوداء ؛ وينزلق بإزاء العلبة فيلامسها ؛ لقد حل الليل بين الواجهات التي ترتجف . انه ينزلق بلا انقطـاع ، أصفر كالوحل ، والزجاج في زرقة السماء . ويختفي فجأة ، لقد بقي في الخلف ، ويغمر العلبة ضوء رمادي حتى ينتشر في كل مكان بعدل لا هوادة فيه : انها السماء ؛ وعبر زجاج النوافذ ، تُرى بعـدُ كثافاتٌ وكثافات من السماء ، لأن المرء يصعد شاطىء « اليفار » ولأنه يرى رؤية واضحة من كلا الجانبين ، يميناً حتى البحر ، ويساراً حتى حلبة الطيران . التدخين ممنوع حتى على بوهيمية .

وأعتمد بيدي على المقعد الخشبي الصغير ، ولكني لا ألبث ان أسحبها على عجل : انه كائن . هذا الشيء الذي انا جالسٌ عليه ، والذي كنت أسند اليه يدي ، يسمى مقعداً صغيراً . لقد صنعوه خصيصاً ليمكن المرء ان يجلس عليه ؛ وقد أخذوا جلداً ، ونوابض ، وقماشاً ، فانهمكوا في العمل ، وفي نيتهم ان يصنعوا مقعداً ، وحين فرغوا ، كان « هذا » هو ما صنعوه . ولقـد حملوه الى هنا ، الى هذه العلبة ، وها هي العلبـة الآن تتدحرج وترتجّ ، بزجاجها المرتجف ، وهي تحمل في جوانبها هذا الشيء الاحمر . وأتمتم : انه

مقعد صغير ، كأنما هو تعزيم . ولكن الكلمة تبقى على شفتيّ : انها ترفض ان تذهب فتحطّ على الشيء . انها تظل ما هي ، بقطيفتها الحمراء ، آلاف من الارجل الصغيرة الحمراء ، في الهواء ، متصلبة كلها ، ارجلٌ صغيرةٌ ميتة . إن هذا البطن الهائل المتجه الى الهواء ، دامياً ، منتفخاً ، ملطخاً بكل أرجله الميتة ، بطن يعوم في هذه العلبة ، في هذه السماء الرمادية ، ليس هو مقعداً . فمن الممكن ايضاً ان يكون حماراً ميتاً ، مثلاً ، منتفخاً بالماء ، وهو يعوم بالاتفاق ، وبطنه في الهواء وسط نهر رمادي كبير ، نهر فيضان ؛ وأكون أنا جالساً على بطن الحمار ، وقدماي تبتلان في الماء الشفاف . لقد تحررت الاشياء من اسمائها . فهي هنا وحشية ، عنيدة ، عملاقة ، ومن السخف تسميتها بأنها مقاعد او التحدث عنها بأي شيء : انني وسط « الاشياء » التي هي غير قابلة للتسمية . إنها تحيط بي وحيداً ، بلا كلام ولا حماية ، تحتي ، وخلفي ، وفوقي. إنها لا تطلب شيئاً ، ولا تفرض نفسها : إنها هنا . وهناك تحت وسادة المقعد ، ازاء الجدار الخشبي ، خطّ ظل صغير ، خطٌ صغير اسود يجري موازياً للمقعد جرياً سرياً ذكياً ، فكأنه بسمة . انا اعلم جيداً انه ليس بسمة ، ومع ذلك فهو كائن ، يعدو تحت الزجاج المبيض ، تحت ارتجاج الزجاج ، وهو يعاند ، تحت الصورة الزرقاء التي تنخطف خلف الزجاج وتتوقف ، ثم تمضي ، إنه يعاند كذكرى مهزوزة لبسمة ، ككلمة نُسيت نصف نسيان ولم يعد يذكر منها الا المقطع الاول ، وأفضل ما يمكن المرء ان يعمله هو ان يصرف عينيه ويفكر في شيء آخر ، في هذا الرجل المضطجع على المقعد الصغير ، قبالتي ، هناك . وفي رأسه الفخاري ذي العينين الزرقاوين . إن القسم الأيمن من جسمه قد تراخى ، والتصقت الذراع اليمنى بالجسم ، والجنب الأيمن يكاد لا يعيش، يعيش في بخل ، كما لو انه كان مشلولاً . ولكن هنـاك كينونة طفيلية صغيرة تتكاثر على الجنب الايسر كله ، قرحة : لقد اخـذت الذراع ترتجف ، ثم نهضت ، فكانت اليد متصلبة في آخرها . ثم أخذت اليد ايضاً ترتجف ، وحين بلغت مستوى الرأس ، امتد اصبع وأخذ يحك بظفره جلدة الرأس . وأقبل

نوعٌ من التكشيرة الشهوانية يسكن الجانب الايمن من الفم ، فظل الجانب الأيسر ميتاً . الزجاج يرتج ، والذراع ترتجف ، والظفر يحك ، يحك ، والفم يبسم تحت العينين الثابتتين ، ويحتمل الرجل ، من غير ان يشعر ، هذه الكينونة الصغيرة التي تنفخ جنبه الأيمن ، التي استعارت ذراعه اليمنى وخدّه الأيمن لتتحقق . وسد قاطع التذاكر الطريق علي.

— انتظر الموقف .

ولكني دفعته وقفزت خارج الترام . كان قد نفد صبري . لم أكن استطيع تحمّل ان تكون هذه الاشياء قريبة هذا القرب . ودفعت حاجزاً ، ودخلت ، فقفزت كينونات خفيفة قفزة واحدة وتعلقت بالذرى . انني الآن أجد نفسي وأعرف اين انا : انني في « الحديقة العامة » وأتداعى للسقوط على مقعد بين الجذوع الكبيرة السوداء ، بين الأيدي المعقدة السوداء التي تمتد نحو السماء . وتحكّ شجرةٌ الارض تحت قدميّ بظفر اسود . كم اود لو استسلم، لو انسى نفسي ، لو أنام . ولكني لا استطيع ، انني اختنق : إن الوجود يخترقني من كل مكان ، من العينين ، من الانف ، من الفم ...

وفجأة ، يتمزق الحجاب ، لقد فهمت ، لقد « رأيت » .

الساعة السادسة مساء

لا أستطيع القول بأني أحسّني خفيفاً ولا مسروراً ، بل ان ذلك ، على العكس ، يسحقني . غير ان غايتي قد أدركت : انني اعرف ما كنت أود ان أعرفه . لقد فهمت كل ما حدث لي منذ كانون الثاني . إن « الغثيان » لم يتركني ، ولا أحسب انه سيتركني بهذه السرعة ؛ ولكني لا أكابده بعد ، فهو لم يعد مرضاً ولا نوبة عارضة : انه أنا .

وإذن، فقد كنت الساعة في الحديقة العامة . وكان جذر شجرة الكستنا يغرز في الارض ، تحت مقعدي تماماً . ولم اكن اذكر بعد انه كان جذراً . فقد غارت الكلمات ، وغار معها معنى الأشياء ، وطرق استعمالها ، والمعالم

الضعيفة التي رسمها البشر على سطحها . كنت جالساً ، مقوّساً بعض الشيء ، منخفض الرأس ، وحيداً قبالة هذه الكتلة المعقّدة السوداء ، الخام كلياً ، التي تثير خوفي . ثم حدث لي ذلك الاشراق .

وقد قطع ذلك نفَسي . اني لم استشعر قط ، قبل هذه الايام الاخيرة ، ما كانت تعنيه كلمة « وُجد » . كنت كالآخرين ، كأولئك الذين يتنزهون على شاطىء البحر بثيابهم الربيعية . وكنت أقول مثلهم « ان البحر « هو » أخضر ؛ وتلك النقطة البيضاء ، هناك عالياً ، « هي » عصفور الزمّج » ، ولكني لم اكن أحس بأن ذلك كان كائناً ، بأن الزمّج كان « زمّجاً ـ كائناً » ، ان الكينونة تختبىء عادة . إنها هناك ، حولنا ، فينا ، انها « نحن » ، ولا يمكن قول كلمتين من غير التحدث عنها ، وهي في النهاية لا تُمس . وحين كنت اظن اني افكر فيها ، فيجب الاعتقاد بأني لم اكن افكر في شيء ، بل كان رأسي فارغاً ، اوكان في رأسي كلمة واحدة لا غير ، كلمة « الكون » . او انني كنت افكر ... كيف اعبّر ؟ كنت افكر « بالانتماء » ، كنت أقول لنفسي إن البحر كان ينتمي لطبقة الأشياء الخضراء ، او ان الخضرة كانت صفة من صفات البحر . وحتى حين كنت انظر الاشياء ، كنت بعيداً عن التفكير بأنها كانت كائنة : فقد كانت تبدو لي كديكور . وكنت آخذها بيدي ، وكنت أعتبرها آلات ، وكنت أتنبأ بمقاومتها . ولكن ذلك كله كان يحدث على السطح. ولو كنت سُئلت عما عساها تكون الكينونة ، لكنت أجبت بكل صدق بأنها ليست شيئاً ، وإنها على الاكثر شكل فارغ يأتي فينضاف الى الاشياء من الخارج ، من غير ان يبدل شيئاً في طبيعتها . ثم فجأة ، كانت هناك ، واضحة كالنهار : لقد كشفت الكينونة فجأة عن نفسها . كانت قد فقدت صفتها كفئة مجردة : كانت عجين الاشياء بالذات ، ذلك الجذر كان معجوناً في الكينونة . او على الاصح ، كان الجذر ، وحواجز الحديقة ، والمقعد ، والعشب النادر ، كان كل ذلك قد غار وتلاشى ،لم يكن تنوّع الاشياء وفرديتها إلا مظهراً ، طلاء . وهذا الطلاء كان قد ذاب ، فبقيت كتلٌ مسيخةٌ رخوة

في غير انتظام – عارية عرياً فظيعاً داعراً.

كنت احرص على ألا آتي ادنى حركة، ولكن لم تكن بي حاجـة الى التحرك لأرى، خلف الاشجار، الأعمدة الزرقاء ومصباح كشك الموسيقى، والفيلادا، وسط غابة كثيفة من شجر الغاز. جميع هـذه الاشياء ... كيف أعبّر؟ كانت تزعجني؛ كنت أتمنى لو انها كائنة بشكل اضعف، بطريقة اكثر جفـافاً، اكثر تجريداً، وبمزيد من التواضع. كانت شجرة الكستناء تنضغط على عينيّ. وكان صدأ أخضر يغطيها حتى منتصفها، وكانت القشرة المتورمة السوداء تبدو وكأنها من الجلد المغليّ؛ وكان خرير مياه نبع «ماسكوريه» يسيل في أذني ويقيم له فيهما عشاً، ويملأهما بالتنهدات؛ وكـان منخراي يفيضان برائحة خضراء عفنة. كانت جميع الاشياء تستسلم للكينونة، بلطف ورقة، على غرار هاتيك النساء المتعبات اللواتي يستسلمن للضحك ويقلن: «ما ألذ الضحك» بصوت مبتـل؛ كن يتمددن، بعضهن تجاه بعض، ويتبادلن المساراة الكريهة عن كينونتهن. وأدركت انه لم يكن ثمة وسط بين اللاكينونة وهذا الخصب الجذلان. فاذا كان المرء كائناً، فينبغي ان يكون «كائناً حتى هذا الحد» حتى التعفن، حتى التورم، حتى الدعارة. ان الدوائر وأنغام الموسيقى، في عالم آخر، تحتفظ بخطوطها النقية الصلبة. ولكن الكينونة التواء. فالأشجار والأعمدة المزرقة بالليل، وهذيان نبع سعيد، والروائح الحية، والضباب الحراري الخفيف الذي يعوم في الهواء البارد، ورجل احمر يهضم وهو جالس على مقعد: جميع هذه الالوان من الاغفاء والهضم تكشف، حين تؤخذ معاً، عن مظهر هزلي. هزلي... كلا: لم يكن الامر يبلغ ذلك الحد، فليس فيما هو كائن ما يمكن ان يكون هزليـاً؛ وانما كان ذلك شبيهاً عائماً، يكاد يكون غير قابل للالتقاط، مع بعض مواقف الفودفيل. لقد كنا كومةً من الكائنين المتزعجين، المرتبكين بأنفسنا، ولم نكن نملك اي سبب لنكون هنا، لا نحن ولا الآخرون، وكان كل كائن قلق مضطرب يُحس نفسه زائداً على اللزوم بالنسبة للآخرين. «الزيادة على اللزوم»: تلك كانت

الصلة الوحيدة التي استطيع ان اقيمها بين هذه الاشجار ، هذه الحواجز ، هذا الحصى . وعبثاً كنت احاول « عدَّ » اشجار الكستناء ، « ومَوْضَعَتها » بالنسبة للفيلادا ، ومقارنة ارتفاعها بارتفاع اشجار الدلب : فقد كان كل منها يُفلت من الصلات التي كنت أحاول ان احبسه فيها ، وينعزل ، ويفيض . هذه العلاقات (التي كنت أصرّ على إقامتها لأؤخر انهيار العالم الانساني ، والمقاييس ، والكميات ، والاتجاهات) كنت أحس اعتباطيتها ، انها لم تكن تعضّ بعدُ على الاشياء . « زائدة على اللزوم » شجرة الكستناء ، القائمة هناك قبالتي الى اليسار . « زائدة على اللزوم » الفيلادا ...

و « أنا » – المسترخي ، الداعر ، المجتر ، الخافق بأفكار كامدة – « انا ايضاً كنت زائداً على اللزوم » . ومن حسن الحظ اني لم اكن أشعر بذلك ، كنت أفهمه خاصة ، ولكني كنت منزعجاً لأني كنت أخشى أن أحسّه (وما زلت انا الآن خائفاً من ذلك – اني اخشى ان يأخذني هذا من وراء رأسي ويرفعني كموجة هائلة) كنت أحلم بغموض في ان أحذف نفسي ، لكي أعدم على الأقل احدى هذه الكينونات الزائدة . ولكن موتي نفسه كان يكون زائداً على اللزوم . زائدة على اللزوم جثتي ، ودمي على هذا الحصى ، بين هذه النباتات داخل هذه الحديقة الباسمة . واللحم المقضوم كان يكون زائداً على اللزوم في الارض التي تكون قد تلقته ، وعظامي أخيراً ، بعد ان تكون قد نظفت وسُلخ عنها اللحم ، فأصبحت نقية واضحة كالاسنان ، كانت تكون هي ايضاً زائدة على اللزوم : كنت زائداً على اللزوم بالنسبة للخلود .

إن كلمة « العبثية » تولد الآن تحت قلمي ؛ صحيح اني لم اجدها حين كنت منذ حين في الحديقة ، ولكني لم أكن مع ذلك ابحث عنها ، فلم تكن لي حاجة اليها : كنت افكر بلا كلام ، « عن » الاشياء ، « مع » الاشياء . لم تكن العبثية فكرة في رأسي ، ولا لهاث صوت ، وانما كانت هذه الحية الطويلة الميتة عند قدميّ ، هذه الحية الخشبية . حية او ظفر او جذر او مخلب نسر ،

كل هذا سواء . ولقد كنت افهم ، من غير ان أكوّن صيغة واضحة : انني وجدت مفتاح « الكينونة » ، مفتاح « غثياناتي » ، مفتاح حياتي نفسها . والواقع ان كل ما استطعت ان التقطه فيما بعد يتلخص في هذه العبثية الاساسية . عبثية : كلمة أخرى ؛ انني أتخبط تجاه الكلمات ؛ اما هنا ، فقد كنت أمسّ الشيء . غير اني أود ان أثبت هنا الطابع المطلق لهذه العبثية . إن حركة او حدثاً في عالم البشر الملوّن الصغير ليس هو عبثياً إلا بشكل نسبي : بالنسبة للظروف التي ترافقه . فان خُطَب مجنون مثلاً هي عبثية بالنسبة لما هو فيه من موقف، لا بالنسبة لجنونه . ولكني أنا قمت منذ حين بتجربة المطلق : المطلق او العبثي . فذلك الجذر ، لم يكن ثمة ما يجعله عبثياً بالنسبة له . اوه ! أنّى لي ان أثبت ذلك بالكلمات ؟ عبثي : بالنسبة للحصى ، وللاعشاب الصفراء ، وللوحل الجاف ، وللشجر ، وللسماء ، وللمقاعد الخضراء . عبثي ، غير ممكن التنقيص؛ لا شيء يمكنه ان يشرحه — حتى ولا جنون للطبيعة عميق وخفي . طبعاً ، لم أكن اعرف كل شيء ، لم أكن قد رأيت الحبة تنمو ولا الشجرة تترعرع . ولكن امام هذه الرجل الضخمة الخشنة لم يكن للجهل ولا للمعرفة أهمية : إن عالم الشروح والتعليلات ليس هو عالم الكينونة . الدائرة ليست شيئاً عبثياً ، فهي تُشرح جيداً بأنها دوران خط مستقيم حول احد طرفيه . ولكن الدائرة ايضاً غير كائنة . اما هذا الجذر ، فقد كان على العكس كائناً على قدر عجزي عن شرحه . كان بتعقده وجموده وانعدام الاسم له يسحرني ويملأ عينيّ ويعيدني بلا انقطاع الى كينونته الذاتية . وقد حاولت كثيراً ان أردد : « انه جذر » ولكن ذلك كفّ عن ان ينجح . كنت أرى جيداً ان المرء كان عاجزاً عن الانتقال من وظيفته كجذر ، كمضخة جاذبة ، « الى هذا » ، الى هذه القشرة القاسية الكثيفة ، الشبيهة بظهر الفُقْمة ، الى هذا المظهر الزيتي ، الكاثب ، العنيد . لم تكن الوظيفة تشرح شيئاً : وانما كانت تسمح للمرء بأن يفهم فهماً إجمالياً ما عساه يكون الجذر ، لا ما « هو » على الاطلاق . إن هذا الجذر بلونه ، وشكله وحركته المستعرة ، كان ... تحت كل شرح . كان كل من

صفاته يفلت منـه قليلاً ، يسيل خارجاً عنه ، يتجمّد نصف تجمد ، ويصبح شيئاً ما تقريباً ، كانت كل صفة « زائدة عـلى اللزوم في » الجذر ، وكانت الأرومة كلها تعطيني الآن الشعور بأنها تتدحرج قليلاً خارج نفسها ، بأنها تنكر نفسها ، بأنها تضيع في تطرّف غريب . وحككتُ عقبي بهـذا الظفر الاسود : لقد وددت لو أجرحه بعض الشيء . لا لغاية ، بل تحدياً ، ولكي أظهر على الجلد المدبوغ اللون الورديّ الذي يظهر على الجُلفة : « لألعب » مع عبثية العالم . ولكني حين سحبت قدمي ، رأيت انالقشرة قد بقيت سوداء.

سوداء ؟ إن الجذر « لم يكن » أسود ، ولم يكن سواداً هذا الذي على قطعة الخشب – وانماكان ... شيئاً آخر : ان السواد ، شأنه في ذلك شأن الدائرة ، لم يكن كائناً . وكنت أنظر الى الجذر : أكان « أكثر من أسود » ام كان أسود « تقريباً » ؟ ولكني ما لبثت أن كففت عن التساؤل ، لأني كنت أحسّ أني في ميدان أعرفه . اجل ، لقد سبق لي ان ترصدت ، بهذا القلق ، أشياء غير قابلة للتسمية ، وكنت قد حاولت – عبثاً – ان افكر بشيء « عنها » ، وكنت قد أحسست بصفاتها ، الباردة الساكنة ، تتفلت وتنزلق بين أصابعي . مثـلاً رافعة بنطلون ادولف ، في ذلك المساء ، في مقهى « رانديفو دي شامينو » . لم « تكن » الرافعة بنفسجية . وتمثّلت اللطختين اللتين لم يكن ممكناً تعريفهما ، على القميص . والحصاة ، تلك الحصاة العتيدة ، مصدر هذه القصة كلها : انها لم تكن ... لم أكن أذكر جيداً على الضبط ما كانت ترفض ان تكونه . ولكني لم أكن قد نسيت صمودها السلبيّ وبد العصامي ؛ كنت قد أخذتُها وصافحتها ، ذات يوم ، في دار الكتب ، ثم أخذني الاحساس بأنها لم تكن تماماً يداً . كنت قد فكرت بدودة كبيرة بيضاء ، ولكنها لم تكن ذلك ايضاً . وشفافيـة قدح البيرة الملتبسة ، في مقهى بابلي . ملتبسة : هكذا كانت الاصوات والعطور والمذاقات فهي حين تنسل بسرعة تحت انفك كأنها ارانب مطرودة ، فلا توليها اهتماماً كبيراً ، فأنت تستطيع ان تظنها بسيطة ومطمئنة ، وتستطيع ان تعتقد انه كان في الدنيا زرقة حقيقية او حمرة حقيقية . او رائحة حقيقية ، او رائحة بنفسج

حقيقية . ولكن يكفي ان تمسكها لحظة ، حتى يحل محل هذا الشعور بالرضى والأمن انزعاج عميق : ان الالوان والمذاقات والروائح لم تكن قط حقيقية ، ولم تكن قط هي نفسها ولا شيء سواها . ان الصفة الأبسط والأشدّ امتناعاً على التحليل كان فيها شيء زائدٌ على اللزوم بالنسبة لنفسها ، في قلبها . فالسواد القائم هنا ، بازاء قدمي ، لم يكن يبدو سواداً ، وانما كان بالاحرى جهداً غامضاً لتصوّر السواد يبذله شخص لم يسبق له ان رأى سواداً ولم يعرف ان يتوقّف ، شخص تصوّر كائناً ملتبساً ، فيما وراء الألوان . كان ذلك « يشبه » لوناً ، ولكنه يشبه كذلك حُدوراً ، او افرازاً ، او مُصالة — وشيئاً آخر ، رائحة مثلاً ، كان ذلك يذوب رائحة ارض مبتلّة ، او رائحة خشب دافيء مبتلّ ، يذوب رائحةً سوداء ممتدّة كأنها الطلاء على هذا الخشب العصبيّ ، ومذاقاً لعرق ممضوغٍ ، مسكّر . لم أكن « أراه » ببساطة ، هذا السواد : فالرؤية اختراعٌ مجرّد ، فكرةٌ منظّفة ، مبسّطة ، فكرة من افكار الإنسان . كان ذلك السواد ، الذي هو حضور مسترخ غير متشكّل ، يتجاوز من بعيد الرؤية والشمّ والمذاق . ولكن هذا الغنى كان يتحوّل الى تشوّش ، وينتهي به الأمر ألاّ يكون شيئاً ، لأنه كان زائداً على اللزوم .

كانت تلك لحظة عجيبة . كنت هنا جامداً مثلجاً ، غارقاً في نشوة فظيعة . ولكن في وسط هذه النشوة بالذات ، كان شيء جديدٌ يظهر ، كنت افهم « الغثيان » ، وأمتلكه . والحق يُقال اني لم اكن اضع اكتشافاتي في صيَغ . ولكني اعتقد انه سيكون يسيراً عليّ الآن ان اضعها في كلمات. الشيء الجوهري هو عدم لزوم الوجود . أقصد ان الوجود ، بالتعريف ، ليس هو اللزوم والضرورة . فأن يوجد المرء ، هو ببساطة ان « يكون هنا » ؛ ان الموجودين يظهرون ، ويَدعون انفسهم « يتلاقوْن » ، ولكننا لا نستطيع ابداً ان « نستنتجهم » . وأحسب ان هناك اشخاصاً قد فهموا ذلك . غير انهم حاولوا ان يتغلبوا على عدم لزوم الوجود هذا بأن يخترعوا كائناً ضرورياً وسبباً لنفسه . والحق ان اي كائن ضروري لا يستطيع ان يشرح الوجود : ان عدم لزوم

الوجود ليس وهماً ، ليس مظهراً يمكن تبديده ، انه المطلق ، وبالتالي المجانية الكاملة . كل شيء مجاني ، هذه الحديقة ، وتلك المدينة ، وانا نفسي . واذا اتفق لك ان ادركت هذا ، غار قلبك وأخذ كل شيء يعوم ، كما حدث ذلك المساء ، في مقهى « رانديفو دي شامينو » : ذلك هو الغثيان ، وهذا ما يحاول « القذرون » – سكان « التل الأخضر » وسواهم – ان يخفوه عن انفسهم متذرّعين بفكرتهم عن الحق . ولكن اية كذبة مسكينة هذه ! ليس ثمة من يملك الحق ، انهم مجانيّون كليّة ، كسائر الناس ، وهم يخفقون في ألاّ يحسّوا انفسهم زائدين على اللزوم . وهم في انفسهم ، بصورة خفيّة ، « زائدون على اللزوم » ، اي غير متشكّلين ، ملتبسون ، حزانى .

كم استغرق هذا السحر من وقت ؟ لقد « كنتُ » جذر شجرة الكستناء . او على الأصح كنت برمّتي وعياً لكينونتها . وكنت ما أزال منفصلاً عنها – ما دمت أعيها – ومع ذلك كنت ضائعاً فيها ، ولا شيء إلاّها . وعيٌ متزعج ، ولكنه كان مع ذلك يستسلم بكل وزنه ، بلا سند ، لهذه القطعة الخشبية الجامدة . كان الزمن قد توقّف : بركة صغيرة سوداء عند قدمي ، وكان مستحيلاً ان يأتي شيء ما « بعد » تلك اللحظة . وقد وددت لو انزع نفسي من هذه المتعة الفظة ، ولكني لم اكن اتصور ان ذلك ممكن ، كنت في الداخل ؛ وكانت الارومة السوداء « لا تمرّ » ، كانت باقية هنا ، في عيني كما تبقى قطعة مفرطة الحجم في حلق انسان يأكل . ولم اكن استطيع ان اقبلها ولا ان ارفضها . بثمن اي جهد استطعت ان ارفع عيني ؟ بل هل تراني قد رفعتها ؟ ألم ألاش نفسي ، على الأصح ، منذ لحظة ، لكي أولد في اللحظة التالية مقلوب الرأس ، متّجه العينين الى أعلى ؟ والواقع اني لم اشعر بأنه كان ثمة مرور او انتقال . ولكن اصبح مستحيلاً عليّ ، بصورة مفاجئة ، ان افكر بوجود الجذر . كان قد امّحى ، وقد ردّدت كثيراً : « انه كائن ، وهو ما يزال هنا ، تحت المقعد ، بازاء قدمي اليمنى ، ولكن ذلك لم يكن يعني شيئاً بعد . ان الوجود ليس شيئاً يُفكّر به من بعيد : بل ان ذلك يجب ان يغمرك فجأة ، ان يتوقّف عليك ،

وان يتزن ثقيلاً على قلبك ، كحيوان ضخم جاثم – والا فليس ثمة شيء بعد على الإطلاق .

ولم يكن ثمة شيء بعدُ على الإطلاق ، كانت عيناي فارغتين ، وكنت مسحوراً بتحرّري . ثم فجأة ، جعل شيء ما يتحرك امام عيني ، حركات خفيفة غير واثقة : كانت الريح تهزّ قمة الشجرة .

لم يكن يسوءني ان ارى شيئاً يتحرك ، فان ذلك كان ينسيني جميع تلك الكينونات الساكنة التي كانت تنظر اليّ كأنها عيون ثابتة . وكنت اقول لنفسي ، وانا اتابع تأرجح الغصون : ان الحركات لا توجد ابداً ، مئة بالمئة ، وانما هي انتقالات ، مراحل بين كينونتين ، اوقات ضعيفة . وكنت أتأهّب لكي اراها تخرج من العدم ، وتنضج تدريجياً ، وتتفتّح : سيتاح لي اخيراً ان افاجىء كينونات في حالة الولادة .

ولكني لم احتج الى اكثر من ثلاث ثوان لتخيب جميع آمالي . فعلى تلك الغصون المتردّدة التي كانت تتلمّس ما حولها تلمّس العميان ، لم انجح في التقاط « انتقال » ما الى الكينونة . واذن ، فان فكرة الانتقال هذه هي ايضاً من اختراع البشر . انها فكرة مفرطة الوضوح . لقد كانت جميع هذه التحركات الدقيقة تنعزل ، وتقف لتتفرج على نفسها . كانت تتجاوز ، من كل جهة ، الاغصان والفروع . وكانت تدوّم حول هذه الأيدي الجافة ، وتغمرها بالأعاصير الصغيرة . ان الحركة هي ، بكل تأكيد ، شيء يختلف عن الشجرة . ولكنها كانت مع ذلك مطلقاً شيئاً . ولم تكن عيناي تلتقيان قط الا ما هو امتلاء . كانت اطراف الأغصان تزخر بالكينونات ، كينونات تتجدّد بلا انقطاع ولا تولد ابداً . وكانت الريح الكائنة تأتي فتحطّ على الشجرة كذبابة ضخمة ؛ وكانت الشجرة ترتعش . ولكن الرعشة لم تكن صفةً مولودة ، انتقالاً من القوة الى الفعل ؛ وانما كانت شيئاً ؛ كان شيء – رعشة ينصبّ في الشجرة ، فيستولي عليها ، ويهزّها ، ثم فجأة يتركها ، ويمضي بعيداً دائراً على نفسه . كان كل شيء ممتلئاً ، كل شيء ناشطاً ، لم يكن ثمة وقتٌ ضعيف ، كل شيء ،

حتى اكثر الانتفاضات خفاء ، كان مصنوعاً من الكينونة وجميع تلك الكائنات التي كانت منهمكة" حول الشجرة ، لم تكن قادمة من اي مكان ، ولا ذاهبة الى اي مكان . كانت تُوجد مجاًة ، وبعد ذلك تكف فجأة عن ان توجد : ان الكينونة لا ذاكرة لها ، فهي لا تحتفظ بشيء يخص الزائلين ، حتى ولا بذكرى . الكينونة في كل مكان ، الى ما لا حد ، زائدة على اللازم ، دائماً وفي كل مكان ؛ الكينونة التي لا تحدّها ابداً غير الكينونة . واستسلمت وأنا على المقعد ، طائشاً ، منهكاً بهذا التدفق لكائنات لا اصل لها : ففي كل مكان تفجّرات وتفتّحات ، وقد كانت اذناي تطّنان بالكينونة ، ولحمي نفسه كان يخفق وينفتّح ويستسلم للتبرعم الكوني ، وكان ذلك يدعو للنفور . وفكرة : « ولكن لمَ هذه الكينونات كلّها ، ما دامت جميعاً متشابهة ؟ » ما جدوى هذه الاشجار المماثلة كلها ؟ ما جدوى هذه الكينونات الناقصة والمستعادة بعناد ، ثم الناقصة من جديد — كالجهود المرتبكة التي تبذلها حشرة قد وقعت على ظهرها ؟ (كنتُ احدَ هذه الجهود) . ان هذه الغزارة لم تكن تخلّف نتيجة السخاء ، على العكس . كانت كئيبة ، مُعوزة ، مرتبكة بنفسها . تلك الأشجار ، تلك الأجسام الكبيرة الخرقاء ... وأخذت اضحك لأني كنت افكر فجأة بالربيع العظيم الذي كان يوصف في الكتب ، مليئاً بالتفجّرات والتفتّحات العملاقة . كان ثمة حمقى يأتون ليحدثوك بطيب خاطر عن القوة والصراع من اجل الحياة . أتراهم لم ينظروا قط الى حيوان او الى شجرة ، ان شجرة الدلب هذه ، مع صفائحها المصابة بداء الثعلب ، وشجرة السنديان هذه التي تعفنت نصف تعفّن ، ودّوا ان يحملوني على الاقتناع بأنهما قوتان فتيّتان خشنتان تتدفّقان نحو السماء . وهذا الجذر ؟ لقد كان واجباً عليّ بلا شك ان اتمثّله مخلباً شرهاً يمزّق الارض وينتزع منها غذاءها ؟

كان مستحيلاً ان ارى الاشياء على هذا الشكل . انها على الأصح الوان من الرخاوة والضعف . كانت الأشجار تعوم . تدفّق نحو السماء ؟ الأصح انه سقوط ، كنت اتوقّع في كل لحظة ان ارى الجذوع تتجعّد كقضبان متعبة ،

وتتجمّع لتسقط على الارض كومة طرية سوداء ذات تثنيّات . «لم تكن راغبة» في ان توجد ، غير انها لم تكن تستطيع الامتناع عن ذلك ؛ هذا كل ما في الأمر . واذن ، فقد كانت كلها تُعدّ مطبخها على مهل ، في غيرما اندفاع ، وكان النسغ يصعد متمهلاً في العروق ، على مضض ، وكانت الجذور تنغرس على مهل في الارض . ولكنها كانت تبدو في كل لحظة على وشك ان تترك كل شيء هناك وتتلاشى . كانت تستمرّ في الكينونة ، متعبة معمّرة ، في كثير من الاستياء ، لأنها بكل بساطة كانت اضعف من ان تموت ، لأن الموت لم يكن يستطيع ان يأتيها الا من الخارج : ولم يكن ثمة غير الألحان الموسيقية لتحمل بزهو موتها في ذاتها كضرورة داخلية ، غير انها لم تكن كائنة ، ان كل موجود يولد بلا سبب ، ويستمر بدافع الضعف ، ويموت بالاتفاق ، وتداعيت الى الخلف ، وأسبلت جفنيّ . ولكن الصور ما لبثت ، وقد أُنذرت ، ان وثبت فأقبلت تملأ عينيّ المغلقتين بالكينونات : ان الكينونة امتلاء لا يستطيع الانسان ان يتركه .

ويا لها من صور غريبة ! كانت تمثل طائفة من الاشياء . لا الاشياء الحقيقية ، وانما اشياء اخرى تشابهها . اشياء من خشب كانت تشبه كراسي وقباقيب ، واشياء اخرى كانت تشبه نباتات . ثم وجهان : كانا الشاب والشابة اللذين تناولا الغداء بقربي ، يوم الاحد الماضي ، في مطعم فيزاليز . سمينان ، حارّان ، شهوانيان ، عبثيان ، بآذان حمراء . وكنت ارى كتفي المرأة وصدرها . كينونة عارية . ان هذين الاثنين — وذلك ما يذعرني فجأة — كانا مستمرّين في الوجود ، في جهة ما من بوفيل ، في مكان ما — وسط اية روائح ؟ — هذا الصدر العذب كان ما يزال يحتكّ بأقمشة رطبة ، ويقبع في المخرّمات ، وكانت المرأة ما تزال تشعر بصدرها كائناً في ثوبها ، وكانت ما تني تفكر : «نهداي ، ثمرتاي الجميلتان» ، وتبتسم بسمة سرية ، متنبهة الى تفتح نهديها اللذين كانا يدغدغانها ، ثم صرختُ وألفيتني مفتوح العينين على سعتهما .

اتراني قد حلمت به ، هذا الحضور الهائل ؟ كان هنا ، مائلاً في الحديقة ،

متدحرجاً في الشجر ، رخواً برمّتة ، مصمّغاً كل شيء ، كثيفاً كله ، كأنه الفاكهة المربّبة . وقد كنت انا في داخله ، مع الحديقة كلها ؟ كنت خائفاً ، ولكني كنت خصوصاً غاضباً ، وكنت اجد ذلك على غاية البلادة والنفور ، وكنت اكره هذا الخليط المزعج . كان ثمة خليط ، كان ثمة خليط ! وكان يصعد نحو السماء ، ويمضي في كل اتجاه ، ويملأ كل شيء بسقوطه المدبّق ، وكنت ارى منه اعماقاً وأعماقاً ، ابعد جداً من حدود الحديقة ومن البيوت ومن بوفيل ، ولم اكن بعدُ في بوفيل ولا في اي مكان ، كنت عائماً . ولم اكن مندهشاً ، وكنت اعلم جيداً انه « العالم » ، « العالم » العاري الذي يظهر فجأة ، وكنت اختنق غضباً من هذا الكائن العبثي الضخم . لم يكن بامكان المرء حتى ان يتساءل من اين كان ذلك كله خارجاً ، ولا كيف تمّ ان وُجد عالم ، ولم يوجد لا شيء . لم يكن لذلك اي معنى . كان العالم حاضراً في كل مكان ، امام ووراء . لم يكن ثمة شيء « قبله » . على الاطلاق . لم تكن ثمة لحظة لم يكن يستطيع فيها الاّ يوجد . كان هذا هو ما يغيظني حقاً : اكيدٌ انه لم يكن ثمة « اي سبب » لكي توجد، تلك الدودة السائلة . «ولكن لم يكن ممكناً» الا توجد، كان ذلك ممتعاً على التفكير : فلكي يتخيّل المرء العدم ، فيجب ان يكون قد سبقه الى الوجود هناك في صميم العالم ، مفتوح العينين على سعتها وحيّـاً ، ان العدم لم يكن الا فكرة في رأسي ، فكرة موجودة عائمة في هذا المدى الشاسع : وهذا العدم لم يكن قد جاء « قبل » الوجود ، كان وجوداً كأي وجود آخر ، وكان قد ظهر قبل كثير من الكينونات الاخرى . وصحت : « اية قذارة ! اية قذارة ! » وانتفضت لأتخلّص من هذه القذارة المدبّقة ، ولكنها كانت تقاوم بشدّة ، والى ما لا نهاية له : وكنت اختنق في جوف هذا السأم الهائل ، ثم فرغت الحديقة فجأة ، كما لو انها سقطت في ثقب كبير ، واختفى العالم على النحو الذي جاء فيه ، او انني استيقظت – انني على اي حال لم اره بعدُ ، وكان باقياً ترابٌ اصفر حولي ، كانت تخرج منه اغصان ميتة منتصبة في الهواء .

ونهضت فخرجت . واذ وصلت الحاجز ، التفتّ ، فابتسمت لي الحديقة آنذاك . واستندت الى الحاجز ونظرت طويلاً . كانت بسمة الأشجار ، وكتلة الغار « تعني » شيئاً ما ، كان هذا سرّ الكينونة الحقيقي . وتذكرت اني منذ ثلاثة اسابيع ، وكان اليوم يوم احد ، كنت قد التقطت على الاشياء نوعاً من الهيئة المتواطئة . اتراها كانت تتوجّه اليّ انا ؟ كنت اشعر في ملل بأني لم اكن املك اي وسيلة للفهم . اي وسيلة . ومع ذلك ، فقد كان هناك ، في الانتظار ، كان يشبه نظراً . كان هناك ، على جذع شجرة الكستناء ... كان هو شجرة الكستناء . لكأن الاشياء افكارٌ تتوقّف في الطريق ، تنسى نفسها ، تنسى ما كانت تريد ان تفكر به ، وتظلّ هكذا ، فضفاضة ، مع معنى عجيب صغير يتجاوزها . وكان يزعجني ، هذا المعنى الصغير : لم «اكن استطيع» ان افهمه ، حتى ولو ظللت سبعمئة سنة مستنداً الى الحاجز ، كنت قد تعلّمت عن الكينونة كل ما كان بوسعي ان اعرف . وذهبت ، فدخلت الفندق ، وهكذا ، كتبت.

في الليل

اتخذت قراري : ليس لي من مبرر بعدُ لأبقى في بوفيل ، ما دمت قد انقطعت عن كتابة كتابي ، سأذهب للعيش في باريس . سأستقلّ يوم الجمعة قطار الساعة الخامسة ، وسألتقي يوم السبت بآني ، وأعتقد اننا سنقضي بضعة ايام معاً . ثم اعود الى هنا لأنهي بعض القضايا ولأحزم امتعتي وصناديقي . وفي اول آذار ، على ابعد تقدير ، سأكون نهائياً مقيماً في باريس .

الجمعة

في مقهى « رانديفو دي شامينو » . سينطلق قطاري بعد عشرين دقيقة . الفونوغراف . شعور قوي بالمغامرة .

السبت

أقبلت آني تفتح لي ، وهي ترتدي ثوباً طويلاً اسود . وبالطبع ، لم تمد

لي يدها ، ولم تُلقِ عليّ التحية . واحتفظت بيدي اليمنى في جيب سترتي .
وقالت بلهجة عابسة سريعة ، لتتخلّص من الشكليات :
– ادخل ، فاجلس حيث تشاء ، الا على الاريكة قرب النافذة .
انها هي ، هي تماماً . لقد تركت ذراعيها تتدليان ، وكانت على وجهها شراسة كانت تضفي عليها في الماضي هيئة طفلة تعاني سنّ العقوق . ولكنها الآن لا تشبه بعدُ طفلة . انها سمينة ، ولها صدرٌ كبير .
وأغلقت الباب ، وقالت لنفسها بلهجة تأمّلية :
– لا ادري ان كنت سأجلس على السرير ...
واخيراً ، تداعت للسقوط على صندوق مغطى بسجادة . وكانت مشيتها متغيّرة : فقد كانت تتنقل بثقل وأُبّهة ، في شيء من الرشاقة . وهي تبدو مرتبكة ببدانتها الفتية . ومع ذلك ، وبالرغم من كل شيء ، فانها هي نفسها .

وانفجرت آني ضاحكة .
– لماذا تضحكين ؟
فلم تجب على التوّ ، كما هو شأنها دائماً ، واتخذت هيئة المماحكة .
– قولي لماذا ؟
– بسبب هذه البسمة العريضة التي تنصبها منذ دخولك . انك تشبه اباً قد انتهى من تزويج ابنته . هيّا لا تبق واقفاً . ضع معطفك واجلس .
نعم ، هنا اذا شئت .
وتبع ذلك صمت لم تحاول آني ان تقطعه . ما اشدّ عُري هذه الغرفة ! في الماضي كانت آني تحمل في سفرها حقيبة كبيرة ملأى بالشالات والشرائط والخمارات الاسبانية والأقنعة اليابانية وصور أبينال . وكانت ما تكاد تنزل فندقاً – حتى ولو لم تنوي ان تبقى فيه اكثر من ليلة واحدة – حتى يكون همّها الأول ان تفتح هذه الحقيبة ، وان تُخرج منها كلّ ثرواتها التي كانت تعلقها على الجدران ، وتُدلّيها من المصابيح ، وتبسطها على الطاولات او

على الأرض وفق نظام متغيّر ومعقد ، وفي اقل من نصف ساعة ، كانت أنفه غرفة ترتدي لباس شخصية ثقيلة وشهوانية ، لا هوادة فيها . ربما كانت الحقيبة قد ضاعت ، او بقيت في الاستيداع ... هذه الغرفة الباردة ، ببابها الذي ينفتح على غرفة التواليت عن شيء كئيب . انها تشبه ، بأفخر ما فيها وأحزنه ، غرفتي في بوفيل .

وظلت آني تضحك . انني اعرف جيداً هذه الضحكة العالية المخنّة .

ـ انك لم تتغيّر . ما الذي تبحث عنه بهذه الهيئة المذعورة ؟

وابتسمت ، ولكن نظرتها حدقت فيّ بفضول يكاد يكون عدائياً .

ـ كنت افكر فقط ان هذه الغرفة لا تبدو مسكونة من قبلك .

فأجابت بلهجة غامضة :

ـ حقاً ؟

صمت جديد . إنها الآن جالسة على السرير ، شديدة الامتقاع في ثوبها الاسود . إنها لم تقص شعرها . وقد ظلت تنظر إليّ ، بهيئة ساكنة ، وهي ترفع حاجبيها قليلاً . تُرى ، أليس لديها إذن ما تقوله لي؟ لماذا حملتني على المجيء! إن هذا الصمت لا يُحتمل .

وقلت فجأة بلهجة مثيرة تثير الشفقة :

ـ انني مسرور لرؤيتك .

واختنقت الكلمة الاخيرة في حلقي . كان خيراً لي ان أصمت ، على ان أجد هذا الذي قلته فقط . انها سوف تغضب بلا شك . وكنت أفكر بأن ربع الساعة الاولى سيكون حقاً شاقاً . في الماضي ، حين كنت التقي ثانية بآني، حتى ولو بعد غياب اربع وعشرين ساعة ، حتى ولو في اليوم التالي للقاء مسائي ، لم أكن قط احسن العثور على الكلمات التي كانت تنتظرها ، تلك التي كانت تناسب ثوبها ، او الوقت ، او الكلمات الاخيرة التي تبادلناها في اللقاء السابق . ولكن ما الذي تريده ؟ انني لا استطيع ان احزره .

ورفعت عينيّ من جديد . كانت آني تنظر إليّ في شيء من الحنو .

– إنك إذن لم تتغيّر على الاطلاق ؟ إنك ما تزال على حمقك ؟

كان وجهها يعبّر عن الرضى . ولكن كم كانت تبدو متعبة !

وقالت : – إنك نصب، نصب على حافة طريق. انك تشرح، بلا اضطراب، وستشرح طوال حياتك ، ان « مولان » تقع على بعد سبعة وعشرين كيلومتراً . وان « مونتارجيس » على بعد اثنين وأربعين . من اجل هذا ، انا شديدة الحاجة اليك .

– بحاجة إليّ ؟ انت بحاجة إليّ في اثناء هذه الاعوام الاربعة التي لم أرك فيها ؟ انك إذن قد كنت متحفظة تحفظاً جميلاً !

تكلمت وأنا ابتسم : إن بوسعها ان تعتقد اني اكنّ لها ضغينة . وأحسّ بهذه البسمة المزيفة على فمي ، فيستولي عليّ الانزعاج.

– ما احمقك ! طبعاً لست بحاجة الى ان اراك ، اذا كان هذا ما تقصده . انت تعلم ان ليس فيك ما يُبهج النظر بصورة خاصة . انني بحاجة الى ان توجد ، والى ان تتغيّر . إنك شبيه بهذا « المتر » من البلاتين الذي يحفظونه في مكان ما بباريس ، او في الضواحي . وانا لا اعتقد ان ثمّة من رغب يوماً في رؤيته .

– وهذا ما تخدعك .

– هذا لديّ سواء . انني مسرورة ان اعلم انه موجود ، وانه يساوي تماماً جزءاً من عشرة ملايين من ربع الكرة الارضية . وانا افكر فيه كلما أخذت القياسات في منزل ، او كلما بيع لي قماش بالمتر.

قلت ببرودة : – حقاً ؟

– ولكنك تعلم ان بوسعي ألا افكر بك الا كفضيلة مجردة ، كنوع من الحد . فتستطيع ان تشكرني على اني أتذكر وجهك كل مرة .

ها هي ذي تعود ، تلك المناقشات الاسكندرانية التي كان علـيّ ان اشارك فيها ، في الماضي ، حين كانت تراودني رغبات بسيطة وتافهة ، كأن أقول لها

إني كنت أحبها ، او ان آخذها بين ذراعيّ . اما اليوم ، فليست لدي اية رغبة. ربما باستثناء الرغبة في ان اصمت وان انظر اليها ، وان اتحقق في الصمت من اهمية هذا الحدث العظيم : حضور آني تجاهي . وفي نظرها ، أيكون هـذا اليوم شبيهاً بالايام الاخرى ؟ إن يديها ، هي ، لا ترتجفان . كان لا بد ان لديها ما تقوله لي يوم كتبت لي – او لعل ذلك كان بكل بساطة هوىً من أهوائها. اما الآن فقد اضحى الامر ، منذ زمن بعيد ، غير وارد .

وابتسمت لي آني فجأة بحنوّ شديد الوضوح، حتى ان الدمع صعد الى عينيّ.

– لقد فكرت بك اكثر جداً مما فكرت بتر البلانين . لم ينقض يوم من غير ان افكر فيك . وكنت اتذكر بصورة رقيقة حتى ادنى تفاصيل شخصك .

ونهضت ، وأقبلت تضع يديها على كتفيّ :

– هل تجرؤ على القول إنك كنت تتذكر وجهي ، انت الذي تشكو ؟

قلت : – هذا خبث ؛ فانت تعلمين جيداً ان لي ذاكرة ضعيفة .

– انت تعترف بذلك : لقد نسيتني تماماً . أتراك كنت عرفتني ، لو التقيتني في الشارع ؟

– طبعاً . فليست هذه هي القضية .

– أكنت تتذكر لون شعري مثلاً ؟

– نعم . انه اشقر .

فأخذت تضحك .

– انت تقول هذا مزهواً . إنك لا تملك كثيراً من الكفاءة ما دمت الآن تراه .

وكنست شعري بضربة من يدها ، ثم قالت وهي تقلدني :

– وانت ، ان شعرك احمر . إني لن أنسى ابداً اني حـين رأيتك للمرة الاولى ، كانت لك قبعة رخوة تنزع الى اللون البنفسجي وتتنافى بصورة قاسية مع شعرك الاحمر . كان النظر الى هذا المشهد شاقاً . اين قبعتك ؟ اريد ان أرى اذا كنت ما تزال رديء الذوق .

– انني لا اضع بعدُ قبعة.

فصفرت صفرة خفيفة وهي توسع عينيها :

– إنك لم تتخذ هذا القرار بمفردك ! بلى ؟ اذن ، أهنئك . طبعاً ! ولكن كان ينبغي التفكير في ذلك . ان هذا الشعر لا يتحمل شيئاً ، فهو يتناقض مع القبعات ومع وسائد الأرائك ، وحتى مع سجاد الجدران الذي يشبه خلفيته ، او انه لا بد من ان تغرز القبعة حتى أذنيك ، كما كنت تفعل بتلك القبعة الانكليزية من اللباد التي اشتريتها من لندن . كنتَ تُدخل خصلتك تحتها ، فلا يدري المرء اذا كان رأسك ما يزال يحتفظ بشعره .

وأضافت باللهجة الحاسمة التي تُنهي بها المنازعات القديمة :

– انها لم تكن تناسبك على الاطلاق .

ولم أدر بعدُ اية قبعة كانت تعني .

– اتراني كنت اقول إنها كانت تناسبني ؟

– اعتقد جيداً انك كنت تقول ذلك . بل انك لم تكن تتحدث الا عن هذا. وكنت تسترق النظر الى نفسك في المرايا ، حين كنت تحسب انني لم اكن اراك.

إن هذه المعرفة للماضي ترهقني. إن آني لا يبدو عليها انها تبتعث ذكريات، فلهجتها لا تملك تلك النكهة الرقيقة البعيدة التي تناسب هذا النوع من الهمّ . بل يبدو انها تتحدث عن اليوم ، او عن الامس ، على الاكثر ؛ لقد احتفظت بآرائها وعنادها وحقدها السابق . اما بالنسبة لي ، فان كل شيء قد غرق، على العكس ، في ضباب شعري ؛ انني مستعد لجميع التنازلات .

وقالت لي فجأة بصوت لا لحن له :

– انت ترى اني انا قد سمنت ، وشخت ، فيجب ان أُعنى بنفسي .

نعم . وكم تبدو متعبة ! وأردت ان اتكلم ، ولكنها سرعان ما أضافت :

– لقد قمت بالتمثيل على المسرح ، في لندن .

– مع « كاندلر » ؟

– لا ، ليس مع كاندلر . إنني افهم هنا قصدك تماماً . فقد حشوت رأسك

بفكرة اني سأتعاطى التمثيل مع كاندلر . كم مرة ينبغي ان اقول لك ان كاندلر قائد فرقة موسيقية ؟ لا ، وإنما في مسرح صغير اسمه « سوفوسكوار » . وقد مثلنا «الامبراطور جونس» ومسرحيات لسين او كازي، ولسانج، وبريتانيكوس.

فقلت بدهشة : — بريتانيكوس ؟

— نعم ، بريتانيكوس . ومن اجل هذا ، تركت . فأنا التي اعطيتهم فكرة تمثيل بريتانيكوس ، وقد ارادوا ان يسندوا إليّ دور « جوني » .

— صحيح ؟

— وبالطبع ، لم اكن استطيع ان أمثل الا دور أغريبين .

— والآن ، ماذا تفعلين ؟

وأخطأت في طرح هذا السؤال . فقد انسحبت الحياة كلها من وجهها . ومع ذلك ، فقد اجابت على الفور :

— لقد انقطعت عن التمثيل.. انني سأسافر . وهناك شخص ينفق عليّ .

وابتسمت :

— اوه ! لا تنظر إليّ بهذا الاشفاق . فليست القضية فاجعة . لقد قلت لك مراراً انه لا مانع لدي من ان ينفق عليّ . ثم انه شخص مسن . فهو غير مزعج .

— أهو انكليزي ؟

فقالت في ضيق : — ولكن ما عسى ذلك ان يهمك ؟ إننا لن نتحدث عن هذا الشخص . فهو لا اهمية له على الاطلاق ، لا بالنسبة لك ولا بالنسبة لي . هل تريد فنجان شاي ؟

ودخلت غرفة التواليت . وسمعتها تروح وتجيء ، فتحرك أواني ، وتتحدث مع نفسها : تمتمة ثاقبة لا يُفهم منها شيء . وكان على طاولتها الليلة ، بالقرب من سريرها ، كما هي العادة دائماً ، جزء من « تاريخ فرنسا » لميشليه . وأرى الآن انها قد علقت فوق السرير ، صورة واحدة ، هي نسخة من وجه اميلي برونتي ، مرسومة بريشة أخيها .

وعادت آني فقالت لي فجأة :

– والآن ، يجب ان تحدثني عنك .

ثم اختفت من جديد في غرفة التواليت . وبالرغم من رداءة ذاكرتي ، فاني اذكر هذا : كانت تطرح عليّ بعض هذه الأسئلة المباشرة التي كانت تزعجني جداً ، لأني كنت أحسّ فيها ، في الوقت نفسه ، اهتماماً صادقاً ورغبةً في انهاء الأمر بأقصى سرعة . ومهما يكن ، فقد كانت ، بعد هذا السؤال ، تريد مني شيئاً دون ما شك . والآن ، ليست هذه إلا مقدمات : التخلص مما قد يضايق ، والانتهاء من القضايا الثانوية : « والآن ، يجب ان تحدثني عنك » . انها عما قليل ، ستحدثني عن نفسها . وزالت عنّي ، بالتوّ ، اية رغبة في ان أروي لها شيئاً . ما جدوى ذلك ؟ « الغثيان » ، الخوف ، الكينونة ... الأفضل ان أبقي ذلك كله لي .

وصاحت عبر الباب :

– هيّا ، عجل في الكلام .

وعادت تحمل ابريق شاي .

– ماذا تفعل ؟ هل انت ساكن في باريس ؟

– انني ساكن في بوفيل .

– في بوفيل ؟ ولماذا ؟ انك لم تتزوج ، على ما أرجو ؟

قلت منتفضاً : – أتزوج ؟

انه يلذني ان تكون آني قط فكرت بذلك . وقلت لها :

– هذا محال . هذا يمتّ الى التخيلات الطبيعية التي كنت تأخذينها علـيّ في السابق . تذكرين حين كنت أتصوّرك أرملةً وأماً لولدين . وجميع تلك القصص التي كنت أرويها لك عمّا سوف نصبحه . لقد كنت تحتقرين ذلك .

فأجابت من غير ان تضطرب :

– وانت كنت تلتذ بذلك . كنت تتحدث عنه لتظهر قوياً . والحق انك تغتاظ هكذا في الحديث ، ولكنك أجبن من ان تتزوج يوماً . لقـد احتججت

طوال عام ، في غيظ شديد ، رافضاً ان نذهب لمشاهدة « بنفسج امبراطوري » . ثم حدث ان مرضت يوماً ، فذهبت وحدك تشاهد الفيلم في دار صغيرة من دور الحي السينمائية .

قلت في رصانة :

– انني مقيم في « بوفيل » لأني اضع كتاباً عن السيد دورولبون .

فنظرت إليّ آني باهتمام :

– السيد دورولبون ؟ كان يعيش في القرن الثامن عشر ؟

– نعم .

– ها ! ها !

إذا طرحت عليّ سؤالاً آخر ، فاني سأروي لها كل شيء . ولكنها لم تسألني شيئاً بعد . وكانت تحكم ، من الظاهر ، بأنها تعرف عني ما هو حسْبها . ان آني ، تحسن الاصغاء جيداً ، ولكن حين تريد فقط . ونظرت اليها : لقد أسبلت جفنيها ، إنها تفكر بما ستقوله لي ، وبالطريقة التي تبدأه بها . أينبغي لي ان أسألها بدوري ؟ لا احسب انها حريصة على ذلك . ستتكلم حين ترى ذلك مناسباً .

وحقق قلبي خفقاً شديداً حين قالت :

– اما انا ، فقد تغيّرت .

تلك هي البداءة . ولكنها صمتت الآن . وجعلت تصب الشاي في فناجين من البورسلين الابيض . وانتظرت ان أتكلم : يجب ان اقول شيئاً . لا اي شيء ، وانما ما تنتظره . إنني أتعذب . أهي قد تغيرت حقاً ؟ لقد سمنت ، والتعب يبدو عليها : ولكن ليس هذا بالتأكيد ما تقصد إليه .

– ادري . لا أرى انك تغيّرت . لقد وجدت ضحكتك ثانية ، وطريقتك في النهوض وفي وضع يديك على كتفيّ ، وهوسك بأن تحدثي نفسك . انك ما زلت تقرئين « تاريخ » ميشليه ، ثم ركام آخر من الاشياء ...

ذلك الاهتمام العميق الذي تكنه لجوهري الخالد ، ولامبالاتها الكلية بجميع ما يمكن ان يحدث لي في الحياة – ثم هذا التصنع الغريب ، المتحذلق

والفاتن في وقت واحد – ثم تلك الطريقة بحذف جميع الصيغ الآلية للتأدب والصداقة ، جميع ما يسهل علاقات البشر فيما بينهم ، وإجبار محدثيها على القيام باختراع أبدي .

رفعت كتفيها وقالت بجفاء :

– بلى ، لقد تغيرت ، لقد تغيرت كلياً . فأنا لست بعدُ الشخص نفسه . وكنت اظن انك ستلاحظ ذلك من النظرة الأولى . وها انت تأتي لتحدثني عن « تاريخ » ميشليه .

وأقبلت تتنزع امامي :

– سنرى اذا كان هذا الرجل قوياً الى الحدّ الذي يزعم . إبحث : في أيّ شيء قد تغيّرت ؟

فترددت ، وطرقت بقدميها الارض ، ما تزال باسمة ، ولكنها منزعجة بوضوح .

– كان شيء ما في الماضي يعذبك . او انك كنت تزعم ذلك ، على الأقل . والآن انتهى هذا ، اختفى . ولا بد انك قد لاحظت ذلك . أتراك لا تُحسّ بعد بالرضى ؟

فلم أجرؤ ان أجيبها بالنفي : فأنا ، على عادتي في الماضي ، جالسٌ بأطراف فخذيّ على كرسيّ ، مهتم بتجنب الفِخاخ ، وبتفادي ألوان من الغضب لا تُشرح .

وكانت قد عادت للجلوس ، فقالت وهي تهزّ رأسها باقتناع :

– اذا كنت لا تفهم ، فهذا يعني انك قد نسيت كثيراً من الاشياء . اكثر مما كنت اظن . أتراك لا تذكر بعد مساوئك الماضية ؟ كنت تأتي ، وكنت تتحدث ، وكنت تذهب : كل ذلك في غير أوانه . تصوّر ان شيئاً ما لم يتغير : تدخل فتجد أقنعة وشالات على الجدار ، وتجدني جالسة على السرير ، وتسمعني أقول لك (ورمت رأسها الى خلف ، ومدّدت منخريها وتكلمت بصوت مسرحي ، كما لو انها تودّ ان تسخر من نفسها) : « ولكن ماذا تنتظر ؟

اجلس ! » وطبعاً تجدني اتفادى بعناية ان اقول لك : الا على الاريكة ، قرب النافذة .

– كنت تنصبين لي شراكاً .

– لم تكن شراكاً ... وطبعاً ، ستذهب انت تواً فتجلس عليها .

قلت وأنا ألتفت متأملاً الأريكة بفضول :

– وما الذي كان سيحدث لي ؟

كانت الاريكة ذات مظهر عادي ، يوحي بالدعة والراحة . وأجابت آني بايجاز :

– لا شيء الا الاذى .

ولم ألح : لقد احاطت آني نفسها دائماً بأشياء محرّمة .

وقلت لها فجأة :

– أعتقد اني أحزر شيئاً . ولكن ذلك سيكون خارقاً . انتظري . دعيني أبحث : الواقع ان هذه الغرفة عارية تماماً . ستعترفين لي بأني لاحظت ذلك على الفور . حسناً . اني أتمثلني داخلاً . مشاهداً في الواقع هذه الاقنعة على الجدران ، والشالات وذلك كله . كان الفندق يتوقّف دائماً عند بابك . فقد كانت غرفتك شيئاً مختلفاً ... ولن تأتي لتفتحي لي الباب . بل كنت سأراك جاثمة في ركن ، وربما جالسة على الارض ، فوق هذه السجادة الحمراء التي كنت تحملينها معك دائماً ، ناظرة الي بلا رحمة ، منتظرة ... وما أكاد أنطق بكلمة ، او آتي بحركة ، او أتنفس ، حتى تأخذي بتقطيب حاجبيك ، فأحسّني مذنباً بعمق ، من غير أن أعرف السبب . وسأراكِ بعد ذلك الأخطاء والحماقات ، من دقيقة الى دقيقة ، وأغرق في خطيئتي ...

– كم مرة حدث ذلك ؟

– مئة مرة .

– على الأقل ! فهل انت أبرع الآن وأرهف حسّاً ؟

– لا !

– احبّ ان أسمعك تقولها . واذن ؟

– اذن ، ليس بعدُ من ...

فصاحت بصوت مسرحي :

– ها ! ها ! انه لا يكاد يجرؤ على تصديق ذلك !

واستطردت على مهل :

– حسناً ! بوسعك ان تصدّقني . ليس ثمّة من هذه بعد .

– ليس ثمّة لحظات كاملة بعد ؟

– أجل .

وأُصبت بالذعر ، فقلت ملحّاً :

– انك في آخر الأمر ... لقد انتهت هذه ... المآسي ، هذه المآسي الموقتة التي كان للاقنعة والشالات وقطع الاثاث ولي انا نفسي دورٌ صغير فيها – وكان لك انت دور كبير ؟

فابتسمت :

– يا للعاقّ ! لقد أسندت اليه احياناً ادواراً اهمّ من دوري : ولكنه لم يلاحظ ذلك . أجل . انتهى هذا . هل انت مندهش ؟

– نعم ، انني مندهش ! كنت أحسب ان ذلك كان جزءاً من نفسك ، وأنه اذا انتُزع منك ، فان ذلك سيكون شبيهاً بانتزاع قلبك .

فقالت بلهجة من لا يأسف على شيء :

– كنت احسب ذلك انا ايضاً .

وأضافت بشيء من السخرية ترك في نفسي أثراً مزعجاً :

– ولكنك ترى ان بوسعي أن أعيش بلا هذا .

وشبكت أصابعها محتفظة باحدى ركبتيها بين يديها . ونظرت في الفضاء ، وبسمةٌ غامضة تعيد الشباب الى وجهها كلّه . كانت تشبه فتاة صغيرة سمينة ، غامضة وراضية .

ـ اجل ، اني مسرورة انك بقيت كما انت . فلو نقلوا مكانك او أعادوا رسمك او ركزوك على حافة طريق اخرى ، لفقدتُ كل ثابت يوجّهني . اني لا أستغني عنك : فأنا أتغير ، اما أنت ، فالمتفق عليه ان تظلّ غير قابل للتغير ، وأنا أقيس تغيراتي بالنسبة اليك .

وأحسستني منزعجاً بعض الشيء ، مع ذلك ، فقلت بحيوية :

ـ الحق ان هذا غير صحيح . فأنا على العكس قد تغيّرت في هذه الايام ، وفي الحقيقة ...

فقالت باحتقار ساحق :

ـ اوه ! تغيّرات فكرية ! اما انا ، فقد تغيّرت حتى بياض عينيّ .

حتى بياض عينيها .. ما الذي تراه ، في صوتها ، قد زرع فيّ الاضطراب ؟ على كل حال ، قمت فجأة بقفزة ! فكففت عن البحث عن آني مختفية . ان هذه الفتاة ، هذه الفتاة السمينة ذات السحنة المهدّمة هي التي تؤثر فيّ وأحبها .

ـ ان لي نوعاً من اليقين ... المادي . فانا أشعر بان ليس ثمة لحظات كاملة. احسّ ذلك حتى في ساقيّ ، حين أسير . احسّه طوال الوقت ، وحتى حين أنام . وانا لا أستطيع ان أنساه . ولم يحدث قط اي شيء يشبه كشفاً ، فأنا لا أستطيع ان اقول : ابتداء من هذا اليوم ، او من تلك الساعة ، تغيرت حياتي . اما الآن ، فأنا في وضع أحسب ان ذلك قد كُشِفَ لي فيه فجأة ، ليلة أمس . انني مبهورة ، منزعجة ، غير معتادة .

قالت هذه الكلمات بصوت هادىء ما زال فيه ظلٌّ من التباهي بأن تكون قد تغيرت الى هذا الحد . وكانت تتأرجح على صندوقها برشاقة فائقة . ولم يحدث ، منذ ذلك ، ان أشبهت هذا الشبه كله « آني » الماضية ، ساكنة مارسيليا . لقد استعادتني ، وغرقت ثانية في عالمها العجيب ، فيما وراء المضحك والحذلقة ، والتصنع . بل اني قد استعدت تلك الحمى الصغيرة التي كانت تثيرني دائماً في حضورها ، وذلك المذاق المرّ في جوف فمي .

وحلّت آني يديها وتركت ركبتها . ولزمت الصمت . انه صمت مدبّر ،

كما يحدث في الاوبرا ، حين يبقى المسرح فارغاً ، بينما تتصاعد سبعة ألحان من الجوقة . انها تشرب شايها ، ثم تضع فنجانها وتظلّ متصلبة وهي تعتمد بيدها المغلقتين على طرف الصندوق .

وفجأة أضفت على وجهها تلك السحنة الميدوزية الرائعة التي كنت احبها كثيراً ، والتي كانت تفيض حقداً وتوتراً وسماً . ان آني لا تغيّر تعبرها قط ، وهي تغيّر وجهها كما كان الممثلون القدامى يغيّرون أقنعتهم : فجأة . ويكون كل قناع من هذه الأقنعة مرصوداً لخلق الجو ، واعطاء اللهجة لما سوف يلي . انه يظهر ويبقى من غير ان يتغيّر ، فيما هي تتكلم ، ثم يسقط ، وينفصل عنها .

وتحدّق فيّ من غير ان تراني . انها تهمّ بالكلام . وانتظر خطاباً مأساوياً ، مرتفعاً الى مستوى قناعها ، لحناً جنائزياً .

ولكنها لم تقل الا كلمة واحدة .

ــ انني أحيا ، رغم فقدان حواسّي .

لم تكن اللهجة متناسبة قط مع تعبير الوجه . انها ليست مأساوية ، انها ... فظيعة : فهي تعبّر عن يأس جاف ، بلا دموع ، ولا شفقة . أجل ، كان فيها شيء قد جفّ دون ما سبيل الى معالجته .

وسقط القناع ، وابتسمت :

ــ انا لست حزينة على الاطلاق . وقد سبق ان دهشت لذلك مراراً ، ولكني كنت على خطأ : لماذا أكون حزينة ؟ كنت جديرة في الماضي بعواطف عنيفة جميلة . لقد كرهت امي بهوس ...

ثم أضافت بتحدّ :

ــ وانت بالذات ، لقد احببتك بهوس .

وانتظرت جواباً ، فلم أقل شيئاً .

ــ كل ذلك قد انتهى طبعاً .

ــ كيف يمكنك ان تعرفي ذلك ؟

– أعرفه : أعرف انني لن ألتقي بعد شيئاً ولا أحداً يوحي لي عاطفة مهووسة . أنت تعلم انها عملية ، أن يأخذ المرء في محبّة أحد . يجب ان تتوفر له الطاقة والاقبال السمح والهوس الأعمى ... بل ان هناك لحظة ، في أول الامر ، ينبغي له فيها ان يقفز من فوق هوّة : فاذا فكر ، لم يفعل . وانا أعلم أنني لن أقفز بعدُ أبداً .

– لماذا ؟

فرمتني بنظرة ساخرة ولم تجب . ثم قالت :

– انني الآن أعيش محاطةً بعواطفي الميتة . وأحاول أن أجد مرة اخرى ذلك الغضب الرائع الذي حملني على إلقاء نفسي من الطابق الثالث ، حين كنت في الثانية عشرة ، يوم صفعتني امي بالسوط .

وأضافت ، من غير صلة ظاهرة ، وبلهجة بعيدة :

– وليس مستحسناً كذلك ان أحدّق طويلاً في الأشياء . انني أنظر اليها لأعرف هويتها ، ثم يجب أن أصرف عنها بصري بسرعة .

– ولكن لماذا ؟

– انها تثير اشمئزازي .

عجباً ، الا يشبه هذا ؟... ان هناك بالتأكيد وجوه شبه ، على أي حال . وقد سبق ان حدث مثل هذا مرةً ، في لندن ، اذ فكرنا التفكير نفسه ، بصورة منفصلة ، بشأن بعض الموضوعات ، في اللحظة نفسها تقريباً . أودّ كثيراً لو ... ولكن التفكير بأن آني تقوم باللفّ والدوران ... ان المرء لا يثق قط بأنه فهمها تماماً . فيجب ان أكون على يقين من ذلك .

– اسمعي ، أودّ ان أقول لك : انت تعلمين اني لم أعرف قطّ ما عساها تكون اللحظات الكاملة ، فأنت لم تشرحيها لي قط .

– نعم ، أعرف ، انك لم تكن تبذل أيّ جهد . كنت تنتصب وتداً ، بالقرب مني .

– يا للأسف ! أعرف ما كلّفني هذا .

– لقد استحققت تماماً كل ما حدث لك ، فقد كنت مذنباً كبيراً ، كنت تزعجني بهيئتك الصلبة . كنت تبدو وكأنك تقول : انني ، انا ، طبيعي ، وكنت تجهد في تنفّس الصحة ، كنت تقطر صحة معنوية .

– غير اني طلبت منك اكثر من مئة مرة ان تشرحي لي ما هو... فقالت غاضبة :

– صحيح ، ولكن بأية لهجة ! كنت تتنازل للاستفهام ، هذه هي الحقيقة. كنت تطلب هذا بودّ شرود ، كالسيدات العجائز اللواتي كنّ يسألنني بمَ كنت ألعب ، حين كنت صغيرة .

وأضافت بلهجة حالمة :

– وأنا أتساءل في الحقيقة عما اذالم تكن انت مَنْ كرهتُ اكثر الكره .

وبذلت جهداً ضد نفسها ، ثم استدركت وابتسمت ، ما زال خدّاها ملتهبين . انها جميلة جداً .

– انني اريد ان اشرح لك ذلك . لقد شخت الآن بما فيه الكفاية لأتحدث بلا غضب الى العجائز الطيبات ، مثلك ، عن ألعاب طفولتي . هيّا . تكلّم . ما الذي تريد ان تعرف ؟

– ما كانت اللحظات الكاملة .

– لقد حدثتك طويلاً عن الأوضاع ذات الامتياز .

– لا اعتقد ذلك .

قالت بتأكيد : – بلى . حدث ذلك في « اكس » ، في تلك الساحة التي لا أذكر بعدُ اسمها . كنا في حديقة مقهى ، تحت شمس ساطعة ، تحت مظلاّت برتقالية . انك لا تذكر : كنا نشرب عصير الليمون ، وقد وجدت ذباباً ميتاً في السكر المسحوق .

– آه ، نعم ، ربما ...

– لقد حدثتك عن هذا في ذلك المقهى . حدثتك عنه بصدد الطبعة الكبيرة لـ « تاريخ » ميشليه ، تلك التي كنت أملكها وانا صغيرة . لقد كانت أكبر جداً

من هذه الطبعة ، وكان لورقها لونٌ كابٍ ، كلون قلب الفطر ، وكانت لها رائحة الفطر ايضاً . وبعد موت أبي ، وضع عمي جوزيف يده عليها وأخذ جميع المجلدات . وفي ذلك اليوم ، دعوته خنزيراً كبيراً ، فضربتني امي بالسوط وكان ان قفزت من النافذة .

– نعم ، نعم ... لا بدَّ انك حدثتني عن « تاريخ فرنسا » هذا ... ألم تكوني تقرأينه في عليّة للحبوب ؟ اني اتذكّر كما ترين . وترين انك كنت ظالمة منذ لحظات حين كنت تتهمينني بأنني نسيت كل شيء .

– اسكت . لقد كنت أحمل ، كما تذكرتَ ذلك جيداً ، هذه الكتب الضخمة الى العليّة . وكانت الصور فيها قليلة جداً ، ثلاث صور او اربع في كل جزء . ولكن كلاً منها كان يحتلّ وحده صفحة بكاملها ، صفحة كان قفاها أبيض . وكان هذا يخلّف في نفسي أثراً كبيراً ، لا سيما وان النص كان قد وُضع ، في الاوراق الاخرى ، على عمودين كسباً للمجال . وكنتُ أُكن لهذه الصور حباً فائقاً ، وكنت أعرفها كلها عن ظهر قلب . وحين كنت اعيد قراءة كتاب ميشليه ، كنت أنتظرها خمسين صفحة مسبقاً ، وكان يبدو لي معجزة دائماً ان اعثر عليها من جديد . ثم انها كانت تنطوي على سرّ دقيق : لم يكن المشهد الذي تمثّله يتعلّق قطّ بنصّ الصفحات المجاورة ، وانما كان ينبغي البحث عن الحادث على بُعد ثلاثين صفحة .

– أبتهل اليك ، حدثيني عن اللحظات الكاملة .

– انني احدثك عن الأوضاع ذات الامتياز . كانت هي تلك الماثلة على الصور ، وانا التي كنت اسميها « ذات الامتياز » اذ كنت اقول لنفسي انها لا بد ان تكون ذات اهمية كبيرة حتى وافقوا على ان يجعلوها موضوع هذه الصور النادرة . لقد اختاروها بين جميع الصور ، ومع ذلك فقد كان ثمة كثير من القصص تحمل قيمة اكبر ، واخرى تحمل أهمية تاريخية اكبر . فمثلاً كان ثمة ثلاث صور فقط ، تمتّ الى القرن السادس عشر كلّه : احداها تمثل موت هنري الثاني ، والاخرى مقتل الدوق دوغيز ، والثالثة دخول هنري الرابع

الى باريس . اذ ذاك تصوّرت انه كان لهذه الأحداث طبيعة خاصة . والحق ان الصور كانت تدعمني في هذه الفكرة : فقد كان الرسم فيها فجّاً ، ولم تكن الاذرعة والسيقان معلقة تعليقاً محكماً بالجذوع . ولكن الصور كانت ملأى بالعظمة . ففي صورة مقتل الدوق دوغيز مثلاً . نرى المشاهدين يعبّرون عن ذهولهم وغيظهم بمدّ جميع الأيدي الى الامام ، وبصرف الرؤوس جانباً ، ان هذا جميل جداً ، وكأنه كورس . ولا تظنّ ان التفاصيل الفكاهية او القذلكية منسية . فاننا نرى الصفحات تسقط على الأرض ، وكلاباً صغيرة تهرب ، ومهرّجين جالسين على درجات العرش . ولكن جميع هذه التفاصيل معالجة بروح من العظمة والارتباك تجعلها منسجمة انسجاماً كاملاً مع باقي الصورة : ولا أحسب اني التقيت لوحات تتمثل فيها هذه الوحدة الدقيقة . اجل . ان هذا هو مصدرها .

– الاوضاع ذات الامتياز ؟

– الفكرة التي كنت أكوّنها عنها . كانت اوضاعاً ذات صفة نادرة وثمينة، ذات اسلوب ، اذا صح التعبير . فأن يكون المرء ملكاً ، مثلاً ، حين كنت في الثامنة من عمري ، كان ذلك يبدو لي وضعاً ذا امتياز . او ان يموت . انت تضحك ، ولكن كان ثمة كثير من الاشخاص الذين رُسموا ساعة موتهم ، وهناك كثيرون نطقوا بأقوال عظيمة في تلك اللحظة ، اقوال كنت انا اصدّقها بطيبة خاطر ... أقصد اني كنت أفكر ان المرء حين يدخل دور الاحتضار يُحمل فوق نفسه . والحق أنه يحسب المرء ان يكون في غرفة ميت : فما دام الموت وضعاً ذا امتياز ، فان شيئاً ما كان ينبثق منه ويتصل بجميع الأشخاص الحاضرين . نوعٌ من العظمة . حين مات ابي ، أدخلوني الى غرفته لأشاهده للمرة الأخيرة . وكنت وانا اصعد السلّم احسّ بشقاء كبير ، ولكني كنت كذلك كأني ثملةٌ بلون من الفرح الديني ؛ كنت ادخل أخيراً وضعاً ذا امتياز . وقد استندت الى الجدار ، وحاولت ان اقوم بالحركات التي كانت تناسب المقام. ولكن كانت ثمة عمتي وأمي ، راكعتين على حافة السرير ، تُفسدان كلّ شيء

بيكائهما .

قالت هذه الكلمات الأخيرة في أسى ، كما لو ان ذكراها ما زالت ملتهبة . وكفّت ، ونظرها ثابت ، وجفناها مرتفعان ، إنها تنتهز الفرصة لتعيش المشهد مرة أخرى .

— وفيما بعد ، وسّعت نطاق هذا كله : فأضفت اليه اولاً وضعاً جديداً ، هو الحب (أقصد عمل صنع الحب) عجباً ، اذا لم تفهم قط لماذا كنت ارفض بعض مطالبك ، فهذه فرصة تمكنك من الفهم : بالنسبة لي ، كان ثمة شيء يجب إنقاذه . ثم قلت لنفسي انه لا بد ان يكون هناك كثير من الاوضاع ذات الامتياز أستطيع ان أحصيها ، وانتهى بي الأمر الى إقرار عدد لا يحصى منها .

— نعم ، ولكن ماذا كانت حقاً ؟

فقالت بدهشة : — عجباً ، لقد قلتها لك ، وقد انقضى ربع ساعة وأنا أشرحها .

— أقصد هل كان يجب خصوصاً ان يكون الناس مهووسين جداً ، محمولين على جناح الكراهية او الحب ، مثلاً ، ام انه كان يجب ان يكون المظهر الخارجي للحادث كبيراً ، أعني : ما يمكن ان يُرى منه ...

فأجابت في استياء :

— الأمران ... وهذا يتوقّف .

— واللحظات الكاملة ، ما شأنها هنا ؟

— إنها تأتي بعد ذلك . إن هناك اولاً علامات مبشّرة . ثم يدخل الوضع ذو الامتياز دخولاً بطيئاً ، فخماً ، في حياة الاشخاص . وإذ ذاك يُطرح سؤال معرفة ما اذا كان المراد ان يُصنع من الوضع لحظة كاملة .

قلت : — نعم ، لقد فهمت . ففي كل وضع من الأوضاع ذات الامتياز ، بعض أفعال يجب ان تُنفذ ، ومواقف يجب ان تتخذ ، وكلمات يجب ان تُقال .

— وهناك مواقف أخرى وكلمات اخرى ممنوعة . أهذا هو التفسير ؟

— اذا شئت .

ــ إن الوضع بالإجمال ، شيء مادّي : وهذا يتطلب المعالجة .

قالت : ــ هو كذلك . ينبغي للمرء اولاً ان يغرق في شيء ما استثنائي ، وان يشعر انه يُدخل فيه التنظيم . فاذا تحققت جميع هذه الشروط ، فان اللحظة تكون كاملة .

ــ كان ذلك بالإجمال نوعاً من الأثر الفني .

فقالت في انزعاج :

ــ لقد سبق لك ان قلت هذا . كلا : بل كان ... واجباً . كان «ينبغي» تحويل الأوضاع ذات الامتياز الى لحظات كاملة . وكانت هذه قضية أخلاقية . أجل ، تستطيع ان تضحك : اخلاقية .

ولم أضحك على الاطلاق . وقلت لها بتلقائية :

ــ اسمعي . سأعترف انا ايضاً بأخطائي . إنني لم أفهمك قط فهماً كاملاً ، ولم أحاول قط بإخلاص ان أساعدك . ولو كنت قد عرفت ...

فقالت متهكمة :

ــ شكراً ، شكراً . آمل ألاّ تنتظر عرفاناً مني لقاء هذه التحسّرات المتأخرة ، والحق اني غير عاتبة عليك ؛ فأنا لم أشرح لك شيئاً بوضوح ؛ كنت معقّدة . ولم أكن أستطيع أن أحدّث في ذلك أحداً ، حتى ولا أنت ــ ولا سيا انت . كان ثمة دائماً شيء ما مزيّف في تلك اللحظات . ولهذا كنت كأني تائهة . غير انه كان لديّ احساس بأني افعل ما كنت استطيعه .

ــ ولكن ما الذي كان ينبغي عمله ؟ اية افعال ؟

ــ ما أحمقك ! لا يمكن اعطاء مثل . فهذا يتوقف .

ــ ولكن اروي لي ما كنت تحاولين ان تفعليه .

ــ لا ، لست حريصة على التحدث في ذلك . ولكن اذا شئت ، رويت لك قصة أثرت عليّ كثيراً حين كنت أذهب الى المدرسة . كان هنالك ملك قد خسر معركة وسقط أسيراً . وكان هناك ، في زاوية من معسكر المنتصر . ورأى ابنه وابنته يمرّان مقيّديْن . لم يبك ولم يقل شيئاً . ثم رأى احد خدمه يمرّ مقيداً هو

أيضاً. وإذ ذاك أخذ بنّ وبشد شعره : تستطيع ان تخترع انت نفسك أمثالاً. فأنت ترى : هناك حالات ينبغي للمرء ألا يبكي فيها – وإلا كان نذلاً. أما إذا ترك المرء حطبة تسقط على قدمه، فهو يستطيع ان يفعل ما يشاء ، أن يئنّ ويهدر ويبكي ويقفز على القدم الأخرى. إن العمل الاحمق هو ان يكون المرء ثبت الجنان دائماً : فانه يستنفد قواه من اجل لا شيء.

وابتسمت :

وأحياناً اخرى ، يجب ان يكون « اكثر » من ثبت الجنان . انت طبعاً لا تتذكر المرة الأولى التي قبّلتك فيها ؟

فقلت بلهجة منتصرة :

– بلى اذكرها جيداً ، كان ذلك في حدائق « كيو » على شاطىء التايمز .

– اما الذي لم تعرفه قط ، فهو انني كنت قد جلست على « قرّاص » : كان ثوبي قد تشمّر ، وكان فخذاي ممتلئين بالغُرَز ، إنك لم تكن تثيرني على الإطلاق ، ولم أكن أشتهي شفتيك شهوة خاصة ، وتلك القبلة التي كنت سأمنحك إياها ، كانت ذات اهمية اكبر ، كانت التزاماً ، معاهدة . إنك اذن تدرك ان ذلك الألم كان وقحاً ، فانه لم يكن مسموحاً لي ان افكّر بفخذيّ في لحظة كهذه . لم يكن كافياً ان أسجّل ألمي : بل كان ينبغي ألا أتألم .

ونظرت إليّ بفخر ، ما تزال مندهشة مما فعلت :

– خلال اكثر من عشرين دقيقة ، بينما كنتَ تُلح على ان تنالها ، تلك القبلة التي كنت عازمة على ان أمنحك إياها ، وطوال الوقت الذي حملتك فيه على ان ترجوني – لأنه كان ينبغي أن أمنحك إياها وفق العُرف – نجحت في ان أخدّر نفسي كلياً . ومع ذلك ، فالله يعلم ان لي جلداً حساساً : انني لم أحس « شيئاً » الى ان نهضنا .

هوذا ، هوذا تماماً . ليس ثمة مغامرات – ليس ثمة لحظات كاملة ... لقد فقدنا الأوهام نفسها ، وسلكنا الدروب نفسها . وأنا أحزر الباقي – بل أستطيع ان أتكلم بدلاً منها وأقول أنا نفسي ما يبقى لها ان تقول :

– وإذن ، فقد أدركت ان هناك دائماً نساء يبكين ، او رجلاً أحمر الشعر ، او اي شيء آخر يُفسد تأثيراتك ؟

فقالت من غير حماس :

– نعم ، بالطبع .

– أليس الأمر كذلك ؟

– اوه ، إن حماقات رجل احمر الشعر ، ربما كان بإمكاني ان اخضع لها مع الزمن . والحق اني كنت طيبة جيداً أن اهتمّ بالطريقة التي كان الآخرون يمثلون بها أدوارهم ... لا ، بل ...

– بل انه ليس ثمة اوضاع ذات امتياز ؟

– هو ذلك . كنت أظن ان الحقد او الحب او الموت كانت تهبط علينا كألسنة النار يوم الجمعة المقدس . كنت اظن ان المرء يمكن ان يشعّ حقداً او موتاً . وأي خطأ كان هذا الظن ! اجل ، كنت افكر حقاً بأن « الحقد » كان شيئاً موجوداً ، وأنه كان يأتي ويحطّ على الناس ، ويرفعهم فوق أنفسهم . وبالطبع ، ليس ثمة إلاّي ، إلاّي مَن يحقد ، ومن يحب . وأنا ، انني الشيء نفسه دائماً ، عجين يتمدّد ويتمدّد ... وهذا متشابه الى حد يجعل المرء يتساءل كيف خطر للناس ان يخترعوا اسماء ، ويقيموا تمييزات .

إنها تفكر مثلي . ويخيل إليّ انني لم أتركها قط . وقلت لها :

– إسمعي جيداً . انني منذ فترة افكر بشيء يروق لي اكثر جداً من دور النصب الذي أسندته إليّ بسخاء : هو اننا قد تغيّرنا معاً وبالطريقة نفسها . وأنا أفضل هذا ، لو تعلمين ، على ان أراك تبتعدين اكثر فأكثر ، وان يُحكم عليّ بأن أسجل الى الأبد نقطة انطلاقك . إن كل ما رويته لي ، انما جئت لأرويه لك – بكلمات أخرى ، هذا صحيح . إننا نلتقي عند الوصول . ولا أستطيع ان أعبّر لك عن سعادتي بذلك .

قالت بهدوء ، ولكن بلهجة معاندة :

– صحيح ؟ انني مع ذلك كنت أفضّل ألا نتغير ، كان ذلك أسهل . انني

لست مثلك ، ويسوءني بالأحرى ان أعرف أن شخصاً آخر قد فكّر بما أفكّر به . ثم إنك لا بد ان تكون مخطئاً .

فرويت لها مغامراتي ، وحدثتها عن الكينونة – وربما اطول مما ينبغي . وقد أصغت باجتهاد ، فاتحة عينيها على سعتهما ، رافعة حاجبيها .

وحين انتهيت ، بدا عليها العزاء .

– حسناً ، ولكني أراك لا تفكر إطلاقاً كما أفكر . انك تشكو ان الاشياء لا تنتظم حولك على شكل باقة من الزهور ، من غير ان تقوم بأي عمل . أما أنا ، فلا أطلب اكثر من ذلك : كنت أريد ان أعمـــل . أنت تذكر حين كنا نلعب لعبة المغامر والمغامرة : كنت انت من تحدث له المغامرات ، وكنت أنا من يجعلها تحدث . وكنت أقول : « انني رجل عمل » أتذكر ؟ أما الآن ، فأقول ببساطة : ان المرء لا يستطيع ان يكون رجل عمل .

ينبغي ان أصدق أني لم أبدُ مقتنعاً ، إذا انهـــا انتعشت واستطردت بلهجة أقوى :

– ثم إن هناك كومة من الاشياء الأخرى لم أقلها لك ، لأنها ستكون أطول من ان استطيع شرحها لك . كان ينبغي مثلاً ان أتمكن من ان أقول لنفسي ، في اللحظة التي كنت اعمل فيها ، أن ما كنت أعمله ستكون له نتائج... مشؤومة. انني لا استطيع ان اشرح لك جيداً ...

فقلت بلهجة لا تخلو من حذلقة :

– ولكن ذلك غير مجد على الاطلاق . وقد فكرت بهذا ايضاً .

فنظرت إليّ في حذر :

– اذا صدّقتك ، لوجدت أنك قد فكرت بكل شيء على النحو الذي فكرت فيه : إنك تدهشني كثيراً .

انني لا استطيع ان أقنعها ، ولن أفعل إلا ان أغيظها . وصمتّ . واستولت عليّ الرغبة في ان آخذها بين ذراعي .

وفجأة ، نظرت إليّ نظرة قلقة :

– وإذن ، إذا كنت قد فكرت في هذا كله ، فماذا نستطيع ان نفعل ؟

فخفضت رأسي . ورددت هي بتثاقل :

– إنني أعيش ، وقد عدمت حواسي .

ماذا يسعني ان اقول لها ؟ هل اعرف أسباباً تبرر الحياة ؟ انني لست مثلها يائساً ، لأنني لم اكن انتظر اشياء كثيرة . إنما انا بالأحرى ... مندهش امام هذه الحياة التي أعطيت لي – أعطيت من اجل « لا شيء » . واحتفظت برأسي منخفضاً ، انني لا أريد ان أرى وجه آني في هذه اللحظة .

وتابعت بصوت مكتئب :

– انني اسافر ، وانا عائدة من السويد . وقد توقفت ثمانية ايام في برلين ، هناك هذا الرجل الذي ينفق عليّ .

ان آخذها بين ذراعيّ ... مـا جدوى ذلك ؟ انني لا استطيع شيئاً من أجلها. انها وحيدة مثلي.

وقالت لي بصوت اكثر مرحاً :

– بِمَ تدمدم ؟

فرفعت عينيّ . انها تنظر إليّ بحنان .

– لا شيء . كنت افكر فقط بشيء ما .

– يا للشخصية العجيبة ! تكلم او فاصمت . ولكن إختر .

وحدثتهـا عن مقهى « رانديفو دي شامينو » وعن لحن « راغ – تايم » القديم الذي كنت اسمعه في الفونوغراف ، وعن السعادة الغريبة التي يمنحني إياها.

– كنت أتساءل عما اذا لم يكن بالامكان ان نجد من هذه الناحية شيئاً او ان نبحث .

فلم تجب ، وأحسب أنها لم تهتم كثيراً بما قلت لها . عـلى انها استطردت بعد لحظة – ولا أدري إن كانت تتابع افكارها او اذا كان هذا جواباً على ما قلته لها :

– إن اللوحات والتماثيل أشياء غير قابلة للاستعمال : إنها جميلة « تجاهي » ،

الموسيقى ...

— ولكن في المسرح ...

— ماذا في المسرح ؟ هل تريد ان تعدد الفنون الجميلة ؟

— كنت تقولين في الماضي انك كنت تريدين ان تتعاطي المسرح لأن المرء لا بد ان يحقق ، على خشبة المسرح ، لحظات كاملة !

— اجل ، لقد حققتها : ولكن من اجل الآخرين . كنت في الغبار ، وفي تيارات الهواء ، وتحت الأنوار الفجة ، وبين ألواح الكرتون . وعلى العموم ، كان « توردنايك » شريكي في التمثيل . وأعتقد انك رأيته يمثل في « كوفانت غاردن » . وكنت أخشى دائماً ان انفجر ضاحكة في وجهه .

— ولكن ألم يكن دورك يستغرقك قط ؟

— احياناً : ولكنه لم يكن يستغرقني بقوة . كان الشيء الجوهري ، بالنسبة لنا جميعاً ، الثقب الأسود ، قبالتنا تماماً ، الذي كان في جوفه ناس" لا نراهم ، وبالطبع ، كنا نقدم لهؤلاء لحظة كاملة . ولكنك تعلم انهم لم يكونوا يعيشون داخله : وانما كان يتدحرج امامهم . ونحن ، الممثلين ، اتعتقد اننا كنا نعيش داخله ؟ إنه في نهاية المطاف لم يكن في اي مكان ، لا من هذه الجهة ولا من تلك بالنسبة لخشبة المسرح ، انه لم يكن موجوداً ، ومع ذلك ، فقد كان الجميع يفكرون فيه .

ثم أضافت بصوت ممطوط يكاد يكون سوقياً :

— انك تفهم إذن يا صغيري ، لقد تخلّيت عن كل شيء .

— اما انا ، فقد حاولت ان اكتب هذا الكتاب...

فقاطعتني :

— انني اعيش في الماضي . أسترد كل ما حدث لي ، وأنظمه . ومن بعيد ، على هذا النحو ، ليس ثمة من ضير ، إن المرء يستسلم . إن حكايتنا كلها جميلة بما فيه الكفاية . فأنا أعطيها بعض ضربات من إبهامي ، فاذا هي سلسلة من اللحظات الكاملة . وإذ ذاك أغمض عيني" وأحاول ان أتصور" انني ما أزال أعيش

في داخلها . إن عندي شخصيات أخرى ايضاً . يجب على المرء ان يحسن تركيز فكره . ألا تعرف ماذا قرأت ؟ « التمارين النفسية » تأليف لوبولا . وقد عاد عليّ ذلك بفائدة كبيرة . إن هناك طريقة لوضع الديكور اولاً ، ثم لإظهار الشخصيات .

وأضافت بلهجة سحرية :

– وهكذا يتوصل المرء الى ان « يرى » .

فقلت : – الحق ان ذلك لن يرضيني على الاطلاق .

– أو تظن ان ذلك يرضيني انا ؟

وظللنا لحظة صامتين . وكان الليل يهبط ، فكدت لا أميز لطخة وجهها المتقعة . وكان ثوبها الاسود يمتزج بالظل الذي غمر الحجرة . وبصورة آلية ، تناولت فنجاني الذي كان ما يزال فيه بعض الشاي ، وحملته الى شفتيّ . كان الشاي بارداً . وأخذتني الرغبة في التدخين ، ولكني لم أجرؤ . وأحسست شعوراً شاقاً بأنه لم يكن لدينا بعدُ ما نقول . حتى الامس فقط ، كان لدي أسئلة كثيرة اطرحها عليها : اين كانت ، وماذا فعلت ، ومن لقيت ، ولكن ذلك لم يكن يهمني إلا بمقدار ما منحت آني نفسها عن طيب خاطر . اما الآن ، فأنا بلا فضول : ان جميع تلك البلاد ، وجميع تلك المدن التي ألمّت بها ، وجميع اولئك الرجال الذين غازلوها ، وربما تكون قد أحبتهم ، كل ذلك لم يكن متصلاً بها ، وكل ذلك كان بالنسبة إليها بلا اكتراث : اشعة شمس صغيرة على سطح بحر مظلم بارد . إن آني تجاهي ، ونحن لم نلتق منذ أربعة اعوام ، وليس لدينا بعد ما نقول .

وقالت آني فجأة :

– اما الآن ، فيجب ان تذهب . انني أنتظر شخصاً .

– تنتظرين ؟...

– اجل ، انتظر ألمانياً ، رساماً .

وأخذت تضحك . وقد رنّت ضحتها رنيناً غريباً في القاعة المظلمة .

– انه شخص ليس مثلنا – ليس مثلنا بعد . انه يعمل ، ينفق ذاته .

ونهضت على مضض :

– متى اراك ثانية ؟

– لا أدري . انني مسافرة مساء الغد الى لندن .

– عن طريق « دييب » ؟

– نعم ، وأعتقد انني بعد ذلك سأسافر الى مصر . وربما مررت بباريس في الشتاء القادم ، سوف اكتب لك .

قلت لها بخجل :

– انني غداً حرّ طوال النهار .

فأجابت بصوت جاف :

– نعم ، غير ان لديّ انا عملاً كثيراً . لا استطيع ان اراك . سأكتب لك من مصر . وليس عليك الا ان تعطيني عنوانك .

– هو كذلك .

فخربشت عنواني ، في الظلام ، على طرف مغلّف . يجب ان ابلّغ فندق برنتانيا بأن يحوّلوا لي رسائلي حين أغادر بوفيل . انني أعرف ، في أعماقي ، انها لن تكتب . ربما رأيتها ثانية بعد عشرة أعوام ، وربما كانت هذه هي المرة الأخيرة التي أراها فيها . وليس مبعث ارهاقي أنني سأتركها فحسب ؛ بل ان بي خوفاً فظيعاً ان أعود الى وحدتي .

ونهضت ، وعند الباب ، قبلتني قبلة خفيفة على الفم . وقالت وهي تبتسم :

– ذلك لكي أتذكّر شفتيك . يجب أن اعيد الشباب الى ذكرياتي ، من أجل « تماريني المعنوية » .

فأخذتها من ذراعها وأدنيتها مني . فلم تقاوم ، ولكنها اومأت برأسها سلباً .

– لا ، ان ذلك لا يثير اهتمامي بعد . فلن نعيده ... ثم انه ، بالنسبة لما يمكن ان يُصنع بالناس ، فإن اول شاب قادم جميل بعض الشيء ، يساويك .

– ولكن ما الذي ستفعلينه ؟

– لقد قلت لك : انني مسافرة الى انكلترا .
– لا ، أقصد ...
– لا شيء .
ولم اترك ذراعيها ، فقلت لها بعذوبة :
– اذن ، يجب ان أتركك ، بعد ان وجدتُك ثانية .
وتبيّنتُ الآن ملامح وجهها بوضوح . لقد أصبح فجأة ممتقعاً مشدوداً . وجه امرأة عجوز ، فظيع تماماً ، وانا على يقين من انها لم تدَعْهُ ، وجهها هذا : فهو قائمٌ هنا ، بالخفية عنها ، او ربما بالرغم عنها .
قالت بهدوء :
– لا ، لا . انك لم تجدني ثانية .
وخلّصت ذراعيها . وفتحت الباب ، وكان الممر يقطر ضوءاً .
وأخذت آني تضحك .
يا للمسكين ! انه لا حظّ له . فللمرة الاولى التي يمثّل فيها دوره جيداً ، لا يلقى الرضى . هيّا . اذهب .
وسمعت الباب يُغلق ورائي .

الأحد

راجعت هذا الصباح « دليل » السكك الحديدية : اذا افترضنا انها لم تكذب عليّ ، فهي ستسافر في قطار ديبب عند الساعة الخامسة والثامنة والثلاثين . ولكن ربما كان صاحبها سيأخذها بالسيارة ؟ وتهب طوال الصباح في شوارع مانيلمونتان ، وبعد الظهر ، على أرصفة المحطات . ان بضع خطى ، بضعة جدران كانت تفصلني عنها . وفي الساعة الخامسة والثامنة والثلاثين ، سيصبح حديثنا بالأمس ذكرى ، والمرأة الموسرة التي لامست شفتاها في ستلحق ، في الماضي ، فتاة مكناس ، ولندن ، الصغيرة الهزيلة . ولكن لم يحدث شيء بعد ، ما دامت لا تزال هنا ، وما دام ممكناً بعد رؤيتها واقناعها واصطحابها معي الى الأبد . انني

لم أكن أحسّني بعدُ وحيداً .

وأردت ان أصرف فكري عن آني ، لأنني كنت ، لفرط تصوّر جسمها ووجهها ، قد سقطت في ثورة عصبية شديدة : كانت يداي ترتجفان ، وكانت الرعشات الباردة تتملكني . وأخذت اقلّب صفحات الكتب ، عند بسطات الباعة ، ولا سيما المنشورات الخلاعية ، لأن ذلك كان ، بالرغم من كل شيء ، يشغل الفكر .

وحين دقّت الساعة الخامسة في محطة اورساي ، كنت انظر الى رسوم كتاب عنوانه «الطبيب بالسرط» ، وكانت رسوماً قليلة التنوّع : فقد كان في معظمها صورة رجل طويل ملتح يحمل سوطاً فوق أرداف ضخمة عارية . وما ان ادركت ان الساعة قد أصبحت الخامسة ، حتى ألقيت بالكتاب بين الكتب الأخرى ، ووثبت الى سيارة تكسي حملتني الى محطة سان لازار .

وتنزّهت زهاء عشرين دقيقة على رصيف هذه المحطة ، ثم رأيتها . كانت ترتدي معطفاً كبيراً من الفرو كان يضفي عليها هيئة سيدة ، وغلالة صغيرة . وكان الرجل يرتدي معطفاً من شعر الجمل . وكان برونزي اللون ، شاباً ما يزال ، طويلاً جداً ، وجميلاً جداً . انه اجنبي ، بالتأكيد ، ولكنه ليس انكليزياً ؛ ربما كان مصرياً . وقد صعدا الى القطار من غير ان يرياني . لم يكونا يتبادلان الكلام . ثم هبط الرجل ثانية ، فابتاع صحفاً . وخفضت آني زجاج مقصورتها ، فرأتني . ونظرت اليّ طويلاً ، بلا غضب ، بعينين لا تعبير فيهما . ثم صعد الرجل ثانية الى المقصورة ، وانطلق القطار . وفي تلك اللحظة ، رأيت بوضوح مطعم بيكاديللي الذي كنّا نتناول فيه الغداء في السابق ، ثم انصفق كل شيء ، ومشيت . وحين أحسستني متعباً ، دخلت مقهى ، واستسلمت للنوم . وأتى الخادم يوقظني ، وأنا اكتب هذا والنعاس ما زال يراودني .

سأعود غداً الى بوفيل في قطار الظهر . وسيكفيني ان أبقى فيها يومين : لكي أحزم امتعتي وأنهي معاملتي مع المصرف . وأعتقد انهم سيطلبون مني ، في فندق برنتانيا ، ان أدفع لهم اجرة خمسة عشر يوماً اضافياً ، لأنني لم اخبرهم

مسبقاً . ويجب أيضاً ان اردّ لدار الكتب ما استعرت من كتب ، وعلى اي حال سأعود الى باريس قبل نهاية الاسبوع .

وما الذي سأكسبه بالمقابل ؟ تلك هي أيضاً مدينة : هذه يشقّها نهر ، وتلك يحدّها بحر ، ولولا ذلك لكانتا متشابهتين . ان الناس يختارون أرضاً مجرودة ، جدباء ، فيدحرجون فيها احجاراً كبيرة مجوّفة . وفي هذه الاحجار ، روائح أسيرة ، روائح أثقل من الهواء . وهي تُلقى احياناً من النافذة في الشوارع ، فتظلّ فيها حتى تمزّقها الرياح . وفي الجو الصافي ، تدخل الضجّات من احد طرفيّ المدينة ، وتخرج من الطرف الآخر ، بعد ان تعبر جميع الجدران ، واحياناً اخرى ، تدور وتدور بين هذه الأحجار التي تسلقها الشمس ويشقّها الجليد .

انني أخاف المدن . ولكن يجب على المرء الا يخرج منها . فاذا غامر بالابتعاد اكثر مما ينبغي ، التقى دائرة « النبات » . لقد زحف « النبات » مسافة كيلو مترات نحو المدن. انه ينتظر. حتى اذا أصبحت المدينة ميتة ، اكتسحها «النبات» فتسلّق الاحجار ، واحتواها ، وعبّث فيها ، وفجّرها بكلّاباته الطويلة السوداء ؛ انه سيكتسح الثقوب ويترك في كل مكان أرجلاً متدلية . يجب على المرء ان يبقى في المدن ما دامت حية ، ويجب عليه الا يبقى وحده تحت هذا الشعر الطويل القائم عند أبوابها : يجب ان يتركه يتموّج ويصطفق بلا شهود. اذا عرف المرء في المدن ان ينظّم نفسه ويختار الساعات التي تجترّ فيها الحيوانات او تنام في ثقوبها ، خلف اكوام النفايات العضوية ، فانه لن يلتقي ابداً الا المعادن ، اقلّ الموجودات ارهاباً .

انني عائد الى بوفيل . « فالنبات » لا يحاصر بوفيل الا من ثلاث جهات . وفي الجهة الرابعة ثقب كبير مليء بماء أسود يتحرّك وحده . الريح تصفر بين البيوت ، والروائح تبقى مدة أقصر من اي مكان آخر : فان الريح تطردها فتجري على سطح الماء الأسود كضباب صغير مستطار اللبّ . المطر يهطل. وقد تُركت نباتات تنمو بين السياجات ، نباتات مخصيّة ، مستأنسة ، بلغ من سمنتها انها أصبحت غير مؤذية ، ان لها اوراقاً هائلة مبيضّة تتدلى كأنها الآذان ، ويخيّل

لمن يلمسها انها غضاريف . ان كل شيء سمين وأبيض في بوفيل ، بسبب هذا الماء الكثير الذي يهبط من السماء . انني عائدٌ الى بوفيل . اية فظاعة !

استيقظت منتفضاً . انه منتصف الليل . انقضت ست ساعات على مغادرة آني لباريس . ولقد مخرت السفينة البحر . أنها تنام في مقصورة ، اما الشاب البرونزي الجميل ، فجالس على ضهر السفينة يدخّن سكاير .

الثلاثاء في بوفيل

أهذه هي الحرية ؟ ان الحدائق تنحدر تحتي برخاوة نحو المدينة ، وفي كل حديقة يرتفع بيت . انني ارى البحر ثقيلاً ، جامداً ، وارى بوفيل . ان الطقس جميل .

انا حرٌ : انه لا يبقى لي اي سبب لكي اعيش ، فجميع الأسباب التي حاولتها قد تراخت ، ولا أستطيع بعدُ ان اتصورّ اسباباً اخرى . انني ما زلت شاباً ، وما زلت أملك قوة كافية لأبدأ من جديد . ولكن ما الذي يجب ان أبدأه من جديد ؟ كم عوّلت على آني ، في أحرج لحظات ارهابي وغثياناتي ، لكي تنقذني ؛ ان هذا ما ادركه الآن فحسب . لقد مات ماضيّ ، ومات السيد دورولبون ، ولم تعدْ آني الا لتنتزع مني كل امل . انني وحيد في هذا الشارع الأبيض الذي تحف به الحدائق . وحيد وحرٌ . ولكن هذه الحرية تشبه الموت قليلاً .

ان حياتي تأخذ اليوم نهايتها . سأكون غداً قد تركت هذه المدينة التي تمتدّ عند قدميّ ، والتي عشت فيها هذه الفترة الطويلة . انها لن تكون بعدُ الا اسماً ، مكتّلاً ، بورجوازياً ، فرنسياً مئة بالمئة ، اسماً في ذاكرتي ، اقلّ غنى من اسميْ فلورنس او بغداد . سيأتي عهدٌ اتساءل فيه : « حين كنت في بوفيل ، ما الذي كان يمكنني ان أفعل ، طوال النهار ؟ » ومن هذه الشمس ، من هذا الأصيل ، لن يبقى شيء ، حتى ولا ذكرى .

ان حياتي كلها خلفي . أراها برمّتها ، أرى شكلها والحركات البطيئة التي أفضت بي الى هنا . هناك اشياء قليلة تُقال عنها : انه شوط خاسر ، هذا كل ما في الأمر . لقد انقضت اليوم ثلاثة اعوام على دخولي الى بوفيل ، بأبّهة .

كنت قد خسرت الجولة الاولى : واردت ان ألعب الثانية ، فخسرت ايضاً : وهكذا خسرت الشوط . وبهذا تعلّمت ان المرء يخسر دائماً . ليس هناك الا الانذال من يحسبون انهم يربحون . اما الآن ، سأفعل كما فعلت آني : سأعيش وقد عدمتُ حواسّي . أعيش وانام ، انام وآكل . أُوجَد على مهل ، وبعذوبة كهذه الاشجار ، كبركة ماء ، كمقعد الترام الأحمر .

ان « الغثيان » يَدَعُ لي راحةً قصيرة . ولكني اعلم انه سيعود : فتلك هي حالتي الطبيعية . غير ان جسمي اليوم اشدّ ارهاقاً من ان يتحمله . ان للمرضى ايضاً ساعات ضعف سعيدة تنزع منهم ، لبضع ساعات ، احساسهم بالألم . كل ما في الأمر اني سئم . وبين الفينة والفينة اتثاءب بقوة حتى ان الدموع تتدحرج على خدّيّ . انه سأم عميق ، عميق ، قلب الكينونة العميق ، المادة نفسها التي صُنعتُ منها . انني لا اهمل نفسي ، بل على العكس : فهذا الصباح اخذت حماماً وحلقت ذقني . غير انني حين افكر ثانية بجميع هذه الأفعال الاعتنائية ، لا افهم كيف أمكنني ان افعلها : انها غير مجدية على الاطلاق . لا شك بأن العادات هي التي فعلتها من اجلي . ان العادات لم تمت ، فهي ماضية في الانهماك ، وفي نسج لحمتها ، خفيةً وعلى مهل ، وهي تغسلني وتمسحني وتُلبسني ، على غرار ما تفعله المرضعات . أتكون هي التي قادتني ايضاً الى هذه الرابية ؟ انني لا اذكر بعدُ كيف اتيت . لا شك اني جئت من سُلَّم دوتري : هل ارتقيت حقاً درجاتها المئة والعشر واحدة واحدة ؟ لعل ما هو أصعب تصوّراً هو اني بعد لحظة سأهبطها ثانية . غير اني اعرف اني سأجدني بعد هنيهة في اسفل «الرابية الخضراء» وسأستطيع ، وانا ارفع رأسي ، ان ارى نوافذ تلك البيوت القريبة تُضاء في البعيد ، في البعيد ، فوق رأسي . وهذه اللحظة التي لا استطيع ان اخرج منها ، والتي تحبسني وتحدّني من كل جانب ، هذه اللحظة التي صُنعتُ منها ، لن تكون بعدُ الا حلماً ملتاثاً .

انني انظر تلألؤ بوفيل الرمادية ، تحت قدميّ . فكأنها تحت الشمس اكوامٌ من محار القشور او من شظايا العظم او من الحصباء . كانت ثمة التماعات زجاج

او ميكا ، ضائعة بين هذه النفايات ، تُرسل بين الفينة والفينة نيراناً خفيفة . بعد ساعة ، ستصبح المجاري والخنادق والأثلام الدقيقة شوارع اسير فيها بين الجدران . وهؤلاء الرجال القصار الذين اتميّزهم في شارع «بولبيه» ، سأكون بعد ساعة واحداً منهم .

ما اشدّ ما أحسّني بعيداً عنهم ، من على هذه الرابية. يخيّل اليّ انني أنتمي الى جنس آخر . انهم يخرجون من المكاتب ، بعد يوم عملهم ، فينظرون الى البيوت والحدائق نظرة راضية ، ويفكرون بأنها «مدينتهم» ، مدينة بورجوازية جميلة انهم غير خائفين ، وهم يُحسّون انهم في بيوتهم . انهم لم يروا قط الا الماء المستأنس الذين يسيل من الصنابير ، والا النور الذي ينبع من المصابيح حين يضغطون على المفتاح ، والا الاشجار الهجينة النغلة التي تُسند بالمناشير . انهم يرون الدليل ، مئة مرة في اليوم ، على ان كل شيء يتمّ بصورة آلية ، وأنّ العالم يطيع قوانين ثابتة لا تتغيّر . ان الاجسام المتروكة في الفراغ تسقط جميعاً بالسرعة نفسها . والحديقة العامة تُغلق كل يوم في الساعة الرابعة شتاء والسادسة صيفاً ، وان الرصاص يذوب عند الدرجة ٣٣٥ ، وان آخر ترام يغادر اوتيل دوفيل في الساعة الثالثة والعشرين وخمس دقائق . انهم مطمئنون ، كئيبون بعض الشيء ، انهم يفكرون في «الغد» اي ببساطة في يوم جديد ؛ ان المدن لا تنعم إلا بنهار واحد يعود متشابهاً كل صباح . ولا يفعلون الا ان يقرعوا له الأجراس قليلاً ايام الأحد . الحمقى ! انه يثير اشمئزازي ان افكر اني سأرى ثانية سحنهم الكثيفة المطمئنة . انهم يسنّون القوانين ، ويكتبون روايات شعبية ، ويتزاوجون ، ويرتكبون الحماقة الكبرى بانجاب الأولاد . على ان الطبيعة الكبيرة المبهمة انسلّت الى مدينتهم وتسرّبت الى كل مكان في بيوتهم ، مكاتبهم وفي انفسهم . انها لا تتحرك ، بل تبقى هادئة وهم ملء داخلها يتنفسونها ولا يرونها ، وهم يتصورون انها في الخارج ، على بعد عشرين فرسخاً من المدينة . انني انا «اراها» ...وأعرف ان خضوعها كسل ... وأعرف ان ليس لها قوانين : وهذا ما يحسبونه سبب ثباتها ... ليس لها الا عادات ويمكنها ان تغيّرها غداً .

لنفرض ان شيئاً ما يحدث؟لنفرض انها اخذت فجأة تختنق؟ انهم سيلاحظون آنذاك انها هناك، وسيخيّل اليهم ان قلبهم سينفجر. واذن، فما الذي يجديهم سدودهم وأسوارهم ومراكزهم الكهربائية وأفرانهم الحامية ومطارقهم؟ ان هذا ممكن ان يحدث في اي وقت، وربما على الفور: ان الدلائل قائمة. فمثلاً، يرى ربّ أسرة بنتزّه خرقةً حمراء تُقبل عليه عبر الطريق، كأنها مدفوعة بالريح. وحين تصبح الخرقة قريبة منه كل القرب، فسيرى انها قطعة من اللحم الفاسد الملوّث بالغبار، تجرّ نفسها زاحفة، واثبة، قطعة لحم معذّبة تتدحرج في المجاري قاذفة دفقات الدم بصورة تشنجات. مثل آخر: أمّ تنظر خدّ ابنها وتسأله: «ما هذا الذي على خدك؟ أهو دمّل؟» ثم ترى البشرة تتورّم قليلاً وتتشقق وتنفتح، ومن جوف الشق، تبرز عين ثالثة، عين ضاحكة. او انهم سيشعرون بملامسات عذبة على اجسامهم تشبه الملامسات التي يتركها الخيزران في الأنهار على اجسام السبّاحين. وسيعرفون ان ملابسهم قد اصبحت اشياء حيّة. وثمة آخر سيجد ان هناك شيئاً ما يحكّه في فمه، فيقترب من مرآة، ويفتح فمه: فاذا بلسانه قد اصبح حشرة ذات الف رجل تنبض بالحياة وتحكّ سقف حلقه. ويودّ ان يبصقها، ولكن الحشرة ذات الألف رجل انما هي جزء منه وينبغي ان تُوجد لها أسماء جديدة، العين الحجرية، الذراع الكبيرة ذات القرون الثلاثة، الإصبع-العكاز، العنكبوت-الفلك. وذلك الذي سيكون دائماً في سريره المريح، في غرفته العذبة الحارة، سيستيقظ عارياً على ارض مزرقّة، في غابة من القضبان الضاجة، المنتصبة حمراء وبيضاء نحو السماء، كأنها مداخن جوكستابوفيل، مع بيضات ضخمة نابضة من الأرض، مُزغبة منتفخة كالبصل. وستتطاير عصافير حول هذه القضبان فتنقرها بمناقيرها وتجعل دمها ينزف. وسوف يسيل المنيّ ممزوجاً بالدم، حاراً شفافاً مع الكريات. او ان شيئاً من ذلك كله لن يحدث ولن يقع اي تغيّر ذي اهمية، ولكن الناس سيفاجأون اذ يفتحون شبابيكهم ذات صباح، بنوع من الحسّ القطيع يحط بثقل على الأشياء، ويبدو كأنما هو ينتظر. لا شيء الا هذا: ولكن يكفي ان

بدوم ذلك بعض الوقت حتى تحدث حوادث انتحار بالمئات . اي نعم ، ليتغير ذلك قليلاً حتى نرى ، فأنا لا اطلب اكثر من هذا . اننا سنرى آنذاك أناساً آخرين غارقين فجأة في الوحدة . أناس وحيدون وحدة كاملة يعبرون الشوارع تحيط بهم مسوخ فظيعة ، ويمرون امامي بتثاقل ، وعيونهم ثابتة ، هاربين من آلامهم حامليها معهم ، فاغري الافواه ، بألسنتهم — الحشرات التي تخفق بأجنحتها . وحينذاك ، سأنفجر ضاحكاً ، حتى ولو كان جسمي مغطى بقشور لحمية قذرة تتفتح زهوراً دموية وبنفسجاً وصفيراً . ولسوف استند الى جدار ، وسأصيح بهم حين يلمون بي : « ماذا فعلتم بعملكم ؟ ماذا فعلتم بنزعتكم الانسانية ؟ اين هي كرامتكم ، كرامة الخيزران المفكر ، ؟ ولن يأخذني الخوف ، او على الاقل لن يأخذني اكثر مما يأخذني الآن . ألن يكون ذلك ايضاً من الكينونة ، ألواناً اخرى للكينونة ؟ إن جميع هذه العيون التي ستأكل وجهاً على مهل ، ستكون زائدة على اللزوم ، بلا شك ، ولكنها لن تكون أزيد من الاولين انما انا اخاف الكينونة .

إن المساء يهبط والمصابيح الاولى تنار في المدينة . يا إلهي ! كم تبدو المدينة « طبيعية » ، بالرغم من جميع هذه الهندسات ، كم تبدو مسحوقة بالمساء ! إن ذلك بدهي جداً ، من هنا ، أيمكن ان أكون الوحيد الذي يرى ذلك ؟ أليس ثمة في اي مكان « كاساندر » آخر ، على رأس رابية ، ينظر تحت اقدامه مدينة يبتلعها جوف الطبيعة ؟ ولكن ماذا يهمني في الحقيقة ؟ ما عساني أستطيع ان اقول له ؟

ويستدير جسمي ، على مهل ، نحو الشرق ، فيترنح قليلاً ويأخذ في السير .

الاربعاء : آخر يوم لي في بوفيل

جلت في المدينة كلها بحثاً عن « العصامي » . إنه بكل تأكيد لم يعد الى بيته . ولا بد ان يتيه في الشوارع ، مرهقاً بالخجل والذعر ، هذا الانساني المسكين الذي لا يركن اليه الناس بعد . والحق أني لم أدهش قط حين حدث الشيء :

فمنذ وقت طويل وأنا أحس ّ ان رأسه الرقيق الخائف كان يجلب اليه الفضيحة .
لقد كان قليل الذنب : انه لا يكاد يكون شهوانية ً حبه المتأمل المتواضع للصبية – نوع من النزعة الانسانية ، على الاصح . ولكن كان لا بدّ ان يجد نفسه ذات يوم وحيداً . مثل السيد أشيل ، ومثلي أنا : إنه من جنسي ، وهو صاحب إرادة طيبة . اما الآن ، فقد دخل الوحدة – والى الأبد . لقد انهار كل شيء دفعة واحدة ، أحلامه للتثقف ، وأحلامه للتفاهم مع البشر . سيكون هنـاك أولاً الخوف والذعر والليالي المؤرقة ، وبعد ذلك سلسلة ايام النفي . سيعود في المساء ليتيه في باحة « الرهونات » ؛ وسينظر من بعيد الى نوافذ دار الكتب المشعة ، وسيغص قلبه حين يتذكر صفوف الكتب الطويلة ، وغلافاتها الجلدية ، ورائحة صفحاتها . انني أسف اني لم أصحبه ، ولكنه لم يشأ ذلك ؛ وهو الذي ابتهـل إليّ ان أدعه وحيداً : كان يبدأ تعلم الوحدة . وأنا اكتب هذا في مقهى مابلي . وقد دخلته بأبهة ، وكنت أريد ان أتأمل المدير وأمينة الصندوق وأحس بقـوة اني كنت أراهما للمرة الأخيرة . ولكـنني لا استطيع ان اصرف فكري عن « العصامي » ، فان وجهه المعكر ماثل امام عيني دائماً ، مليئاً بالعتاب ، وياقته العالية الدامية . وإذ ذاك طلبت ورقاً ، وسأروي ما حدث له .

توجهت الى دار الكتب حوالي الساعة الثانية بعـد الظهر . وكنت أفكر : « دار الكتب . إنني ادخل هنا للمرة الاخيرة » .

وكانت القاعة شبه خالية ، وقد شق عليّ ان أتعرفها ، لأني كنت اعرف انني لن أعود اليها ابداً . وكانت خفيفة كالبخار ، لا واقعية تقريباً ، حمراء برمتها ؛ وكانت الشمس الغاربة تصبغ بالحمرة الطاولة المخصصة للمطالعات ، والباب ، وظهور الكتب . وداخلني إحساس ٌ لذيذ ، ذات لحظة ، بأني ألج غابة صغيرة ملأى بالأوراق المذهبة ؛ وابتسمت . وفكرت : « كم مضى عليّ من الوقت دون ان أبتسم » وكان الكورسيكي ينظر عبر النافذة ، ويداه خلف ظهره . ما الذي كان يراه ؟ صلعة امبتراز ؟ « اما انا ، فلن أرى بعـد أبداً صلعة امبتراز ، ولا قبعته العالية ولا ردنجوته . فبعد ست ساعات ، أكون

قد غادرت بوفيل ». ووضعت على طاولة نائب امين دار الكتب الجزءين اللذين كنت استعرتهما في الشهر الماضي . وقد مزّق قسيمة خضراء وبسط لي قِطَعها :

– تفضل يا سيد روكانتان .

– شكراً .

وفكرت : « انني الآن غير مدين لهم بشيء . انني غير مدين بشيء لأي شخص هنا . سأقصد بعد حين مقهى « رانديفو دي شامينو » لأودع صاحبته، انني حر». وترددت لحظات : هل أنفق هذه الهنيهات الاخيرة للقيام بنزهة طويلة في بوفيل ، ولرؤية جادة فيكتور هوغو ، وجادة غالفاني ، وشارع تورنوبريد . ولكن هذه الغابة الصغيرة كانت هادئة جداً ، نقية جداً : وكان يخيّل إليّ بأنها تكاد تكون غير موجودة، وأن « الغثيان » قد وفّرها . وذهبت أجلس قرب الموقد . كان « جورنال دو بوفيل » ملقىً على الطاولة . ومددت يدي ، فتناولته .

« أنقذه كلبه »

« كان السيد دوبوسلك ، وهو ملاك في رمبردون ، عائداً مساء الامس على دراجته من معرض نوجيس ... »

أقبلت سيدة ضخمة تجلس الى يميني . ووضعت قبعتها اللبادية الى جانبها ، وكان فمها مزروعاً في وجهها كمدية في تفاحة . وتحت الأنف ، كان ثمة ثقب صغير فاجر يُقطّب باحتقار . وسحبت من محفظتها كتاباً مجلداً ، فارتفقت الطاولة وهي تُسند رأسها بيديها السمينتين . وقبالتي ، كان سيد هرِمٌ ينام . وكنت أعرفه : لقد كان في دار الكتب ، حين أخذني ذلك الخوف الشديد في ذلك المساء . وقد خاف هو ايضاً ، كما أظن . وفكرت : « ما أبعد هذا كله! »

وفي الساعة الرابعة والنصف ، دخل « العصامي » . وكنت أودّ لـو أشدّ على يده وأودعه . ولكن ينبغي الاعتقاد بأن مقابلتنا الأخيرة قد خلّفت لديـه ذكرى سيئة : لقد حيّاني تحية بعيدة ، وراح يضع بعيـداً عني رزمة صغيرة

بيضاء لا بد انها كانت تحتوي ، كالعادة، قطعة من خبز ولوحاً من الشوكولا. وبعد هنيهة ، عاد يحمل كتاباً مصوّراً وضعه قرب رزمته . وفكرت : « انني أراه للمرة الأخيرة » . غداً مساء ، وبعد غد مساء ، وكل مساء يلي ذلك ، سيعود ليقرأه على هذه الطاولة فيما هو يأكل خبزه وشوكولاه ، وسيتابع بصبر قصصه الفأري ، وسيقرأ مؤلفات نابو ونودو ونوديه ونيس ، متوقفاً بين الفينة والفينة سيسجل إحدى الحكم على دفتره الصغير . اما انا ، فسأمشي في باريس، في شوارع باريس ، وسأرى وجوهاً جديدة . ما الذي سيحدث لي، فيما يكون هو هنا،يضيء المصباح وجهه الكبير المفكرّ ؟ وأحسست قبل فوات الأوان انني سأدع نفسي لسراب المغامرة مرة أخرى . فرفعت كتفيّ واستأنفت المطالعة .

« بوفيل وضواحيها :

« مونيستيه.

« نشاط فرقة الدرك في عــام ١٩٣٢ . الضابط في قسم الفوارس الرئيس غاسبار ، قائد فرقة مونوستيه ودركيّوه الأربعة السادة لاغوت وليزان وبيار بان وغيل ، لم يعطلوا يوماً واحداً في أثناء عام ١٩٣٢ . والواقع ان دركيينا كان عليهم أن يحققوا في ٧ جرائم و ٨٢ جنحة و ١٥٩ مخالفة و ٦ انتحارات و ١٥ حادث اصطدام منها ٣ مميتة » .

« جوكستابوفيل

« فرقة جوكستابوفيل لنافخي الأبواق .

« اليوم تمرين عام ، تسليم البطاقات للحفلة السنوية » .

« كومبوستيل

« تسليم وسام جوقة الشرف لرئيس البلدية .

« السائح البوفيلي (مؤسس الكشاف البوفيلي ١٩٢٤) :

« هذا المساء ، في الساعة ٢٠ و ٤٥ ، اجتماع شهري في المركز الاجتماعي ١٠ شارع فردينان بيرون ، القاعة ١ . جدول الاعمال : قراءة آخر دعوى . المراسلات . المأدبة السنوية ، اشتراكات ١٩٣٢ ، برنامج الرحلات في شباط ،

قضايا مختلفة ؛ قبول الاعضاء الجدد » .

« حماية الحيوانات (جمعية بوفيليه) :

« الخميس القادم ، من الساعة ١٥ الى الساعة ١٧ ، القاعة ت ، ١٠ شارع فردينان بيرون ، بوفيل ، حضور عام . توجيه المراسلات الى الرئيس ، في المركز او ١٥٤ شارع غالفاني » .

« النادي البوفيلي لكلب الدفاع ... الجمعية البوفيلية لمرضى الحرب...الغرفة النقابية لأصحاب السيارات العمومية...اللجنة البوفيلية لأصدقاء دور المعلمين...» .

دخل صبيّان يحملان محفظتين ؛ انهما من طلبة الليسيه . والكورسيكي يحب كثيراً تلاميذ الليسيه ، لأنه يستطيع ان يمارس عليهم مراقبة أبوية . إنه يلذه ان يتركهم غالباً يتحركون على كراسيهم ويثرثرون ، ثم يمضي فجأة يسترق الخطى ليقف خلفهم موبخاً : « أتكون هذه جلسة محتشمة بالنسبة لفتية كبار ؟ اذا كنتم لا تريدون ان تغيّروا ، فان السيد أمين المكتبة قد قرر ان يشتكي الى مدير الليسيه » . فاذا احتجوا ، نظر اليهم بعينيه الرهيبتين : « أعطوني أسماءكم » . وهو يوجه ايضاً مطالعاتهم : ففي دار الكتب رُسمت على بعض المؤلفات إشارة صليب احمر ؛ انه الجحيم : آثار لـ « جيد » وديدرو وبودلير وكتب طبية . وحين يطلب احد تلامذة الليسيه أحد هذه الكتب للمطالعة ، يومىء الكورسيكي اليه ويجتذبه الى زاوية ليسأله . وبعد لحظة ، ينفجر فيملأ صوته قاعة المطالعة : « إن هناك مع ذلك كتباً افضل لمن كان في مثل سنك . كتب تربوية . ولكن هل أنهيت اولاً فروضك ؟ في اي صف انت ؟ في الثاني ؟ وليس لديك ما تفعله بعد الساعة الرابعة ؟ إن استاذك يأتي الى هنا غالباً ، وسوف أحدثه عنك » .

كان الصبيان ما يزالان مزروعان قرب الموقد . وكان لأصغرهما سناً شعر جميل اسمر ، وكانت له بشرة مفرطة الرقة وفمٌ صغير ، خبيث ومزهو . أما رفيقه ، فكان فتى ضخماً له ظل شارب ، وقد لامس مرفقه وتمتم بضع كلمات . فلم يجبه الصبي الأسمر ، غير أنه بسم

بسمة لا تكاد تُرى ، بسمة ملأى بالاعتزاز والتكبّر . ثم اختار كلاهما ، في غير مبالاة ، قاموساً كان على احد الرفوف ، واقتربا من « العصامي » الذي كان يحدق فيهما نظراً متعباً . وكان يبدو عليهما انهما يجهلان وجوده ، ولكنهما جلسا بلصقه تماماً ، الصغير الأسمر الى يساره ، والفتى الضخم الى يسار الصغير الأسمر . وسرعان ما بدأا يتفحصان القاموس . وترك العصامي نظره يتيه عبر القاعة ، ثم عاد الى المطالعة . لم يسبق لقاعة مكتبة ان كشفت عن مشهد مطمئن أكثر من هذا : انني لم أكن أسمع ضجة ، ما عدا أنفاس السيدة الضخمة ، ولم أكن أرى إلا رؤوساً مائلة فوق الصفحات . ومع ذلك ، فقد داخلني منذ تلك اللحظة شعورٌ بأن حادثاً مزعجاً سيقع . كان جميع اولئك الاشخاص الذين يخفضون عيونهم باجتهاد يبدون وكأنهم يمثلون : كنت قد شعرت ، قبل ذلك بلحظات ، ان ما يشبه لفحة من قسوة تمر فوق رؤوسنا .

كنت قد فرغت من القراءة ، ولكني لم أقرر ان أذهب : كنت أنتظر ، متظاهراً بأني أقرأ جريدتي . وكان ما يزيد فضولي وانزعاجي أن الآخرين كانوا ينتظرون ايضاً . وكان يخيّل إليّ ان جارتي كانت تقلب بسرعة أكبر صفحات كتابها . ومضت بضع دقائق ، ثم سمعت همساً . ورفعت رأسي بحذر . كان الصبيّان قد أغلقا قاموسهما . ولم يكن الصغير الأسمر يتكلم ، بل كان يُدير الى اليمين وجهاً مطبوعاً بالاحترام والاهتمام . وكان الأشقر مختبئاً نصف اختباء خلف كتفه ، مرهفاً أذنه ، يضحك بصمت . وفكرت : « ولكن من يتكلم ؟ »

كان هو « العصامي » . وكان مائلاً على جاره الفتيّ ، وعيناه في عينيه ، وكان يبتسم له ؛ وكنت أرى شفتيه تتحركان بين الفينة والفينة ، وجفونه الطويلة تخفق . ولم أكن أعهد فيه هيئة الشباب هذه ، حتى كان فاتناً تقريباً . ولكنه كان يتوقف احياناً ليُلقي خلفه نظرة قلقة . وكان يبدو على الفتى الصغير انه كان يشرب كلماته . لم يكن في هذا المشهد الصغير ما هو خارق وكنتُ أوشك ان أعود الى مطالعتي حين رأيت الفتى الصغير يزلق يده بهدوء وراء ظهره ، على حافة الطاولة . ومشت اليد لحظة ، وهي محتجبة على هذا النحو عن عيني « العصامي » ، وأخذت تتلمّس ما حولها ثم التقت

ذراع الأشقر الضخم ، فقرصتها بعنف . ولم يكن الآخر قد رآها آتية ، لفرط استغراقه في التمتع الصامت بكلام العصامي . فاذا هــو يقفز في الهواء ، واذا فمه ينفتح الى ما لا حدّ له تحت تأثير الاندهاش والاعجــاب . وكان الاسمر الصغير قد احتفظ بهيئة الاهتمام الموقّر ، حتى ان المرء يسّعه ان يشك اذا كانت تلك اليد العفريتة يده . وفكرت : « ما الذي سيفعلانه معه ؟ » وكنت أدرك جيداً ان شيئاً ما دنيئاً سوف يحدث ، وكنت أرى كذلك ان الأوان لم يفت للحيلولة دون ان يحدث هذا . ولكني لم أكن اتوصل الى الحدس بما ينبغي منعه . وخطر لي ذات لحظة ان أنهض فأذهب لأربت على كتف العصامي وأعقد معه حديثاً . ولكنه في اللحظة نفسها فاجأ نظرتي . فكف فوراً عن الكلام وزمّ شفتيه بهيئة مغتاظة . وسرعان ما صرفت بصري وتناولت جريدتي ثانية لأستعيد طمأنينتي . وفي هذه الأثناء كانت السيدة الضخمة قد دفعت كتابهـا ورفعت رأسها . وكانت تبدو مسحورة . وأحسست بوضوح ان السيدة توشك ان تنفجر : كانوا « يريدون » جميعاً ان تنفجر . ما الذي كنت أستطيع أن أفعله ؟ لقد ألقيت نظرة على الكورسيكي : فاذا هو قــد كفّ عن النظر عبر النافذة ، واستدار نصف استدارة نحونا .

ومرّ ربع ساعة . وكان العصامي قد استأنف همسه . ولم أكن أجرؤ بعــدُ على النظر اليه ، ولكني كنت أتصوّر جيداً هيئته النضرة الرقيقة وتلك النظرات العميقة التي كانت تثقل عليه من غير ان يعرف ذلك . وذات لحظــة ، سمعت ضحكته ، ضحكة صغيرة سوقية وملحنة . وقد انقبض قلبي لذلك : كان يخيّل إليّ ان أطفالاً قذرين سيغرقون قطة . ثم انقطع الهمس فجأة . وبدا لي هذا الصمت فاجعاً : كانت تلك هي النهاية ، الإعدام . وكنت أخفض رأسي على جريدتي ، وأتظاهر بالقراءة ؛ ولكني لم أكن أقرأ : كنت أرفع حاجبي وأتطاول بعينيّ الى أعلى ما استطيع ، لكي أحاول ان ألمح ماكان يحدث في ذلك الصمت قبالتي . وتمكنت ، اذ أدرت رأسي قليلاً ، من ان التقط بزاوية عيني شيئاً ما : كانت يداً ، اليد الصغيرة البيضاء التي كانت منذ لحظة قــد انسلّت

بحذاء الطاولة . انها الآن تستريح مقلوبة على ظهرها ، مسترخية ، عذبة ، شهوانية ، وكان لها عراء مستحمّة تدفأ في الشمس بكسل . واقترب منها شيء أسمر ذو شعر ، على تردد . كان إصبعاً ضخماً مصفراً بالتبغ ؛ وكانت له ، بالقرب من هذه اليد ، فظاظة فرج ذكر . وقد توقف لحظة ، صلباً مصوباً نحو الراحة الرخصة ، ثم أخذ فجأة يلامسها في خجل . لم أكن مندهشاً ، بل كنت خاصة غاضباً على « العصامي » : ألم يكن الأحمق يستطيع إذن أن يمالك نفسه ! ألم يكن يدرك الخطر الذي يواجهه ؟ كان باقياً له حظ ، حظ صغير : فلئن وضع كلتا يديه على الطاولة . الى جانبي الكتاب ، لئن ظل ساكناً تماماً ، فربما أفلت هذه المرة من قدره . ولكني كنت « أعرف » انه سيفوّت عليه حظه : كان الاصبع يمر رقيقاً ، ذليلاً ، على البشرة الساكنة ، ويلامسها بالكاد ، من غير ان يجرؤ على الاستسلام لثقله : فكأنه كان واعياً فظاظته . ورفعت رأسي فجأة ، غير قادر على ان أتحمّل بعدُ هـذا الذهاب والإياب العنيدين : كنت أبحث عن عيني « العصامي » وأسعل بشدة ، لأنبّهه . ولكنه كان قد أسبل جفنيه ، وكان يبتسم . وكانت يده الأخرى قـد اختفت تحت الطاولة . وكان الفتيان قد كفّا عن الضحك وأصبحا ممتقعين جداً . كان الصغير الأسمر يقرص شفتيه ، كان خائفاً ، فكأن الأحداث قد تجاوزته . غير انه لم يكن ليسحب يده ، بل لقد تركها على الطاولة ، جامدة ، متشنّجة بعض الشيء . وكان رفيقه فاغراً فمه ، بهيئة بليدة مذعورة .

وآنذاك أخذ الكورسيكي يهدر . كان قد أقبل من غير ان يُسمع ، فوقف خلف كرسيّ « العصامي » . كان قرمزي اللون ، وكان يبدو عليه انه يضحك ، غير ان عينيه كانتا ترسلان الشرر . وقفزت على كرسيّ ، ولكنني أحسستني وقد فُرّج عني تقريباً : كان الانتظار أشقّ من ان يحتمل . وكنت أريد أن ينتهي ذلك في أقصر وقت ممكن ، أن يخرجوه من المكتبة ، اذا شاءوا ، ولكن لينته ذلك . والتقط الفتيان حقيبتيهما وقد ابيضا حتى أصبحا كالثلج ، وخرجا في طرفة عين .

وكان الكورسيكي يصيح ، ثملاً من فرط الغضب :

ــ لقد رأيتك ، لقد رأيتك هذه المرة ، ولن تستطيع ان تقول ان ذلك غير صحيح . انك ستقول هذا ، انه ليس صحيحاً ، أليس كذلك ؟ أتظن انني لم أكن ارى حركاتك ؟ ان عينيّ ليستا في جيبي ، يا صاحبي . صبراً ، كنت أقول لنفسي ، صبراً ! وحين أقبض عليه ، سيكلّفه ذلك غالياً . اوه ، نعم ، سيكلّفك ذلك غالياً . انني أعرف اسمك ، وأعرف عنوانك ، لقد استعلمت ، لو كنت تدري . واعرف أيضاً معلّمك ، السيد شوبليه . وهو الذي سيندهش غداً صباحاً ، حين يتلقى رسالة من السيد امين المكتبة . ماذا ؟

واستطرد وهو يدير عينيه في محجريه :

ــ اصمت . يجب الا تتخيل اولاً ان الأمر سيتوقف عند هذا الحدّ . ان في فرنسا محاكم ، لأشخاص من نوعك . ان « السيد » يتثقف ! ان « السيد » يكمل ثقافته ! ان « السيد » كان يزعجني طوال الوقت من أجل استعلامات او كتب . انك لو تعلم لم تخدعني على الاطلاق .

ولم يكن يبدو على « العصامي » أنه مبغوت . لا بدّ انه منذ سنوات كان يتوقع مثل هذا الحل . ولا بدّ انه تصوّر مئة مرة ما الذي سيحدث حين ينسل الكورسيكي بخطى ذئبية خلفه ، وحين ينفجر فجأة صوت غاضب في أذنيه . ومع ذلك ، فقد كان يعود كل مساء ، وكان يواصل مطالعاته ، بشكل محموم ، وكان بين الحينة والفينة ، يداعب كاللص يد صبي بيضاء ، او ربما ساقه . ان ما كنت اقرأه على وجهه ، كان على الأصح استسلاماً وخضوعاً .

وتمتم قائلاً :

ــ لا ادري ما الذي تعنيه ، فانا آتي الى هنا منذ سنوات ...

وكان يتظاهر بالغيظ والدهشة ، ولكن بلا اقتناع . كان يعلم جيداً ان الحادث كان هنا ، وان ليس ثمة بعدُ ما يمكن ان يوقفه ، وانه ينبغي له ان يعيش دقائقه واحدة واحدة .

وقالت جارتي :

ـ لا تُصْغِ اليه ، فلقد رأيته .

وكانت قد نهضت متثاقلة :

ـ آه لا ، ليست هي المرة الاولى التي أراه فيها ؛ فيوم الاثنين الماضي ، لا قبل ذلك ، رأيته ولم ارد ان أقول شيئاً ، لأنني لم اكن اصدّق عينيّ ، ولم اكن أعتقد ان بالامكان ان يحدث ، في مكتبة يقصدها الناس للتثقف ، ما يثير احمرار الخجل . ليس لي أنا اولاد ، ولكني أرثي للامهات اللواتي يرسلن اولادهن ليدرسوا هنا وهنّ يحسبن انهم هادئون ، لا يعكر صفوهم أحد ، في حين ان هناك مسوخاً لا يحترمون شيئاً ويمنعونهم من كتابة فروضهم .

واقترب الكورسيكي من « العصامي » ، وصاح في وجهه :

ـ أتسمع ما تقوله السيدة ؟ لست بحاجة لأن تقوم بالتمثيل . فلقد رأوك ، ايها الرجل النذل !

فقال العصامي في ترصّن :

ـ يا سيد ، اني أبلغك الأمر بأن تكون مؤدّباً .

وكان ذلك ينسجم مع دوره . ربما كان يودّ ان يعترف ، ان يفرّ ، ولكن كان ينبغي ان يمثل دوره حتى النهاية . انه لم يكن ينظر الى الكورسيكي ، وكانت عيناه مغلقتين تقريباً . وكانت ذراعاه متدليتين ، وكان ممتقعاً الى درجة فظيعة . ثم صعد في وجهه فجأة فيضٌ من الدم .

وكان الكورسيكي يختنق من الغضب :

ـ مؤدّب ؟ يا للقذر ! ربما كنت تظنّ انني لم أرك . اؤكد لك اني كنت أراقبك . منذ أشهر وانا أراقبك .

فهزّ العصامي كتفيه وتظاهر بالعودة الى المطالعة . وكان قد اتخذ ، وهو قرمزي الوجه ، ممتلىء العينين بالدموع ، مظهر الاهتمام البالغ . وكان ينظر بتنبّه الى صورة من الموزاييك البيزنطي .

وقالت السيدة وهي تنظر الى الكورسيكي :

ـ انه يتابع قراءته ... انه جسور !

وظلَّ الكورسيكي متردداً . وفي تلك الاثناء ، كان نائب امين المكتبة ، وهو شاب خجول هاديء يُرهبه الكورسيكي ، قد تطاول قليلاً فوق مكتبه ، وصاح :

— باولي ، ماذا هناك ؟

وحدثت لحظة عَوْم ، واستطعت ان أؤمِّل ان تظلَّ القضية عند هذا الحدّ . ولكن لا بدَّ ان الكورسيكي قد ارتدّ على نفسه وأحسَّ مضحكاً . فاذا به ، وهو في ثورة اعصابه ، لا يعرف بعد ما ينبغي ان يقول لهذه الضحية الصامتة ، واذا به يقذف الفراغ بضربة من قبضة يده . والتفت العصامي مذعوراً ، وكان ينظر الى الكورسيكي ، فاغر الفم ، وكان في عينيه خوف فظيع ، ثم قال بمشقة :

— اذا ضربتني رفعتُ شكوى ، اريد ان اذهب بملء رضاي .

وكنت قد نهضت بدوري ، ولكن بعد فوات الاوان : فقد أرسل الكورسيكي أنَّةً شهوانية صغيرة ، وفجأة سحق قبضته على أنف العصامي . وذات لحظة ، لم أرَ بعدُ الاَّ عيني هذا الأخير ، عينيه الرائعتين المفتوحتين ألماً وخجلاً فوق كمٍّ وقبضة سمراء . وحين سحب الكورسيكي قبضته ، كان أنف العصامي ينزف دماً . وأراد ان يرفع يديه الى وجهه ، ولكن الكورسيكي ضربه أيضاً على زاوية شفتيه . فاسترخى العصامي على كرسيِّه ونظر امامه بعينين خجلتين رقيقتين وكان الدم يسيل من أنفه على ثيابه . وتلمَّس الطاولة بيده اليمنى بحثاً عن رزمته ، بينما كانت يده اليسرى تحاول بعناد لمس منخريه اللذين كانا يقطران .

وقال كأنما يحدث نفسه :

— انني ذاهب .

وكانت المرأة التي بجانبي ممتقعة الوجه وعيناها تلتمعان . وقالت :

— انك تستحق ذلك ، ايها القذر !

وكنت أرتجف غضباً ، وقد استدرت حول الطاولة ، فقبضت على الكورسيكي القصير من عنقه ورفعته وأنا ارتعش : وكان بوسعي ان أحطِّمه على الطاولة . وكان قد اصبح ازرق اللون وهو يتخبَّط ، ويحاول ان يخمشني ؛

ولكن ذراعيه القصيرتين لم تكونا تدركان وجهي . ولم اكن اقول كلمةً ، ولكني كنت اريد ان أدقَّ أنفه وأشوّهَ وجهه . وفهم ذلك ، فرفع مرفقه ليحمي وجهه : وكنت مسروراً لأني كنت ارى انه كان خائفاً . وأخذ يهذي فجأة :

– دعني ايها الوحش . أتكون انت ايضاً ...

وما زلت أتساءل لماذا تركته.هل خشيت المضاعفات ؟ اتكون هذه الاعوام الكسول في بوفيل قد غمرتني بالصدأ ؟ لو حدث ذلك في الماضي لما تركته من غير ان احطّم اسنانه . والتفتُ الى العصامي ، وكان قد نهض اخيراً . ولكنه كان يتفادى النظر الي ، وذهب خافض الرأس ينتزع معطفه عن المشجب . وكان يُمرّ بلا انقطاع يده اليسرى تحت أنفه ، كما لو كان يريد وقف النزيف. ولكن الدم ظلَّ يقطر ، وكنت اخشى ان يعود عليه ذلك بالأذى ودمدم ، من غير ان ينظر الى احد :

– انقضت اعوام وأنا اجيء الى هنا ...

ولكن الرجل القصير ما كاد يستقرّ على قدميه حتى اصبح مرة اخرى سيد الموقف ، فقال للعصامي :

– حُلَّ عن ظهري ولا تضع قدميك بعدُ هنا على الاطلاق ، والاّ استدعيت الشرطة لإخراجك .

وادركت العصامي في آخر السلّم . وكنت منزعجاً ، خجلاً من خجله ، ولم اكن اعرف ما يجب ان اقول له . ولم يبدُ عليه انه لاحظ حضوري. وكان قد اخرج اخيراً منديله ، وكان يبصق شيئاً ما. وكان انفه ينزف اقل من ذي قبل. وقلت له بارتباك :

– تعال معي الى الصيدلي .

فلم يجب . وكانت ضجة كبيرة تنفلت من قاعة المطالعة . ولا بدّ ان الجميع كانوا يتكلمون في وقت واحد . وقد أطلقت المرأة ضحكة ثاقبة .

وقال العصامي :

– لن أستطيع بعدُ أبداً ان اعود الى هنا .

واستدار ينظر نظرة حائرة الى السلّم ومدخل قاعة المطالعة . وقد أسالت هذه الحركة الدم بين ياقته المنشّاة وعنقه . وكان فمه وخدّاه ملطّخة بالدم .

وقلت له وانا آخذه من ذراعه :

– تعال .

فارتعش وتخلّص بعنف :

– دعني .

– ولكنك لا تستطيع ان تبقى وحدك . يجب ان يُغسل وجهك ، وان يُعنى بك .

وكان يردّد :

– دعني ، ارجوك يا سيدي ، دعني .

وكان على وشك ان يسقط في نوبة الأعصاب : فتركته يبتعد . وأضاءت الشمس الغاربة ظهره المنحني لحظة ، ثم اختفى . وعلى عتبة الباب ، كان ثمة لطخة دم ، بشكل نجمة .

بعد ذلك بساعة

الجوّ رماديّ ، والشمس تغيب ؛ بعد ساعتين ، سينطلق القطار . لقد اجتزت للمرة الاولى الحديقة العامة ، وانا اتنزّه في شارع بوليبه . انني « اعرف » انه شارع بوليبه ، ولكني لا اتذكّره . حين كنت أسلكه عادة ، كان يخيّل اليّ اني اجتاز كثافةً عميقة في الحسّ السليم : كان شارع بوليبه الخشن المربّع يشبه برصانته الملأى بالفظاظة ، وطريقه المقوّسة المزفتة ، الطرق الوطنية حين تجتاز الدساكر الغنية وتحيط نفسها من الجانبين ، على طول كيلومتر ، بالبيوت الضخمة ذات الطابقين ؛ وكنت أدعوها شارع فلاّحين ، وكانت تسحرني لأنها كانت جدّ ناشزة ، وجدّ مفارقة في مرفأ للتجارة . ان البيوت اليوم قائمة هنا ، ولكنها فقدت مظهرها الريفي ؛ انها عقارات ، وهذا

كل شيء. لقد داخلني، في الحديقة العامة منذ لحظة، شعورٌ من هذا القبيل: كانت النباتات والأراضي المعشبة ونبع اوليفيه ماسكوريه تبدو عنيدة لفرط ما كانت لا معبِّرة. انا افهم: ان المدينة تبدأ هي اولاً بالتخلّي عنّي. انني لم اترك بوفيل، ولكني مع ذلك لستُ فيها بعد. ان بوفيل صامتة. وانني اجد غريباً ان يجب عليّ ان ابقى ساعتين بعدُ في هذه المدينة التي تصف اثاثها، من غير ان تهتمّ بي، وتضعه تحت مفارشها لتستطيع ان تحسره بكلّ نضارته، هذا المساء او غداً، لقادمين جُدد. انني احسّني منسيّاً اكثر من اي وقت آخر.

خطوت بضع خطوات وتوقفت. انني أتذوّق هذا النسيان الكليّ الذي سقطت فيه. انا بين مدينتين، احداهما تجهلني، والأخرى لا تعرفني. فمن يتذكّرني؟ ربما امرأة ثقيلة شابة في لندن... ومع ذلك، اتراها تفكّر بي «انا»؟ الواقع ان هناك ذلك الرجل، ذلك المصري. لعلّه قد دخل غرفتها، ولعلّه قد اخذها بين ذراعيه. انني لا احسده، فأنا اعلم جيداً انها تعيش وقد عدمت حواسّها، حتى ولو كانت تحبّه من صميم قلبها، فانه سيكون مع ذلك حبٌّ ميتة. انني انا الذي حصلت على آخر حبّ حيّ لها. غير ان هناك مع ذلك هذا الذي يمكن ان يمنحها اياه: اللذة. فاذا كانت بسبيل ان تتراخى وتسقط في الاغتلام، فليس اذن شيء ما بعدُ يربطها بي. انها تعاني اللذة، ولستُ بعدُ بالنسبة لها اكثر من شخص لم يلتق بها قط؛ لقد افرغت نفسها مني دفعة واحدة، وجميع وجدانات العالم الأخرى، هي ايضاً فارغة مني. وهذا يعود عليّ بشعور الطرافة. ومع ذلك، فانا اعلم جيداً اني كائن، و «أني» هنا.

والآن، حين اقول «انا» يبدو لي ذلك اجوف. انني لا اتوصل بعدُ جيداً الى ان أُحسّني، لفرط ما انا منسيّ. ان كل ما يبقى واقعياً فيّ، هو كينونةٌ تُحسّ انها كائنة. انني اتثاءب تثاؤباً طويلاً، عذباً. ان انطوان روكنتان غير كائن في نظر احد. وهذا ما يسلّيني. وما هذا، انطوان روكنتان؟ انه من التجريد. ذكرى صغيرة صفراء منّي تنوس في وجداني. انطوان روكنتان..

وفجأة تصفرّ « الأنا » ، وتصفرّ ، وينتهي الامر ، وتنطفيء .

ان الوعي يحطّ بين الجدران ، صافياً ، جامداً ، قاحلاً ، انه يتأبّد . ليس ثمة من يسكنه بعد . كان ثمة من كان الساعة يقول : « أنا » ويقول : «وعي» من ؟ كان في الخارج شوارع متكتّمة ، ذات ألوان وروائح معروفة . وتبقى جدران مغفلة ، ووعي مغفل . ذلك ما هو موجود : جدران ، وبين الجدران ، شفافيةٌ صغيرة حيّة ولا شخصية . ان الوعي كائن كالشجرة ، كنبتة العشب . انه ينعس ، ويضجر . كينونات صغيرة فارّة تعمره كما تعمر العصافير الأغصان . تعمرها وتختفي . وعي منسيّ ، مهجور بين هذه الجدران ، تحت السماء الرمادية . وها هو ذا معنى وجوده : هو انه يعي انه زائد على اللزوم . انه يتحلّل ويذوب ، ويتناثر ، ويسعى لأن يضيع على الجدار الاسمر ، على طول المصباح ، او هناك في دخان المساء . ولكنه لا ينسى نفسه « أبداً » ؛ انه يعي انه وعيٌ ينسى نفسه . هذا هو قَدَرُه . ان هناك صوتاً مخنوقاً يقول : « القطار سينطلق بعد ساعتين » وهناك وعيٌ لهذا الصوت . هناك ايضاً وعي وجه . انه يمرّ على مهل ، مليئاً بالدم ، ملطخاً ، وعيناه الكبيرتان تدمعان . هو ليس بين الجدران ، هو ليس في اي مكان . انه يتلاشى ؛ ان جسماً مقوّساً يحلّ محلّه برأس دام ، ويبتعد بخطى بطيئة ، ويبدو انه يتوقّف لدى كل خطوة ، ولا يتوقف أبداً . هناك وعي لهذا الجسم الذي يسير ببطء في شارع معتم . يمشي ولكنه لا يبتعد. والشارع المعتم لا ينتهي ، انه يضيع في العدم . هو ليس بين الجدران ، وهو ليس في اي مكان . وهناك وعي صوت مخنوق يقول : « ان العصامي يتيه في المدينة » .

لا في المدينة عينها ، ولا بين هذه الجدران المتداعية ، وانما يمشي العصامي في مدينة متوحشة لا تنساه . ان هناك اشخاصاً يفكرون فيه ، الكورسيكي ، والمرأة الضخمة ، وربما جميع الناس ، في المدينة . انه لم يخسر بعد ، ولا يستطيع ان يخسر أناه ، تلك الأنا المعذّبة، النازفة التي لم يريدوا ان يجهزوا عليها. ان شفتيه ومنخريه تؤلمه ، هو يفكر : « انني اتوجّع » . ويمشي . يجب ان يمشي. فلو وقف لحظة واحدة لانتصبت حوله فجأة جدران دار الكتب العالية ،

وحسبته داخلها، وسوف ينبع الكورسيكي الى جانبه، وسيعود المشهد من جديد، متشابهاً في كل تفاصيله، وستقهقه المرأة: «يجب ان تكون في سجن الاشغال الشاقة، تلك القذارات!» انه يمشي، وهو لا يريد ان يعود الى منزله: فالكورسيكي ينتظره في غرفته، والمرأة والصبيان: «لا مجال للإنكار، فقد رأيتك» وسيعود المشهد من جديد. انه يفكر: «يا الهي، ليتني لم افعل ذلك، ليته كان بامكاني الا افعل ذلك، ليت ذلك يمكن الا يكون حقيقياً!»

ويروح الوجه القلق ويجيء امام الوعي: «ربما عمد الى الانتحار» ولكن لا: ان تلك الروح العذبة المطاردة لا يمكن ان تفكر بالموت.

ان هناك معرفة الوعي. انه يرى نفسه من جانب الى جانب، مطمئناً وفارغاً بين الجدران، متحرراً من الانسان الذي كان يعمره، ممسوخاً لانه ليس احداً. الصوت يقول: «الصناديق تسجلت. والقطار يمضي بعد ساعتين». الجدران تنخطف يميناً وشمالاً. هناك وعي لطريقة تخصيب الطرق، ووعي لمخزن معمل الحداد، ووعي لقطه الشكة، والصوت يقول: «للمرة الاخيرة».

وعي آني، آني السمينة. آني العجوز، في غرفتها بالفندق، هناك وعي الألم، الألم واع بين الجدران الطويلة التي تمضي ولن تعود ابداً: «اترانا لن ننتهي من هذا ابداً؟» ان الصوت يغني بين الجدران لحن جاز «بعض هذه الايام»، اترى ذلك لن ينتهي ابداً؟ ويعود اللحن على مهل، من الخلف، بطريقة خفية، ليستعيد الصوت، ويغني الصوت دون ان يتمكن من التوقف، ويمشي الجسم، وهناك وعي هذا كله، ومع الأسف، وعي الوعي. ولكن ليس ثمة احد ليتألم وبلوي يديه ويشفق على نفسه. لا احد، وانما هو ألم ممرات محض، ألم منسي — لا يستطيع ان ينسى نفسه. ويقول الصوت: هوذا مقهى «راندبفو دي شامينو» وتنبثق «الانا» في الوعي، انها «انا» انطوان روكنتان، وانا ذاهب الى باريس عما قليل، وقد قدمت اودع صاحبة الفندق.

— جئت أودعك.

– انك مسافر ، يا سيد انطوان ؟

– سأقيم في باريس ، تغييراً للجو .

– يا للمحظوظ !

كيف تأتّى لي ان أضغط على شفتيّ على هذا الوجه العريض ؟ إن جسمها لا يخصّني . حتى الأمس ، كان بإمكاني ان أحدس بهذا تحت الثوب الصوفي الأسود . أما اليوم ، فان الثوب غير قابل للاختراق . هذا الجسم الابيض ، بعروقه النافرة ، أتراه كان حلماً ؟

قالت صاحبة الفندق :

– سوف نشتاق إليك . ألا تريد ان تأخذ شيئاً ؟ انني أنا التي أدعوك .

وجلسنا نشرب . وخفضت صوتها قليلاً ، وقالت بأسف مؤدب :

– لقد تعوّدت كثيراً عليك . وكنا متفاهمين جداً .

– سأعود لرؤيتك .

– هو كذلك ، يا سيد انطوان . حين تمر في بوفيل ، ستعرج علينا لإلقاء تحية صغيرة . ستقول لنفسك : « سأذهب لألقي التحية على السيدة جان ، إن ذلك سيسرّها » . صحيح ، إن المرء يجب ان يعرف ما الذي انتهى إليه الناس . والواقع ان الزبائن هنا ، يعودون إلينا دائماً . إن عندنا بحارة ، أليس هذا صحيحاً ، وموظفين من شركة الترانسا : انني أقضي أحياناً عامين من غير ان أراهم ، فهم إما في البرازيل او في نيويورك يقومون بالخدمة في بوردو على باخرة للمساجير . ثم يأتي يوم يعودون فيه : « مرحباً ، يا سيدة جان » ونشرب قدحاً معاً . وسوف تصدّقني اذا شئت ، انني أتذكر ما اعتادوا ان يأخذوه من شراب . بعد عامين من الغياب ؟ فأقول لمادلين : « قدمي قدح فرموت جاف للسيد بيار ، وقدح نوايي سينزانو للسيد ليون » . فيقولون لي : « عجباً كيف تتذكرين ذلك » ؟ فأجيبهم : « تلك هي مهنتي » .

وكان في جوف القاعة رجل سمين يضاجعها منذ حين . وقد ناداها :

– صاحبة الفندق الصغيرة !

فنهضت :

– اعذرني ، يا سيد انطوان .

واقتربت الخادم مني :

– أهكذا تتركنا ؟

– إنني ذاهب الى باريس .

– لقد سكنتها ، باريس . مدة عامين . كنت أعمل عند «سيميون» ولكني كنت أشتاق هذه المدينة .

وترددت لحظة ، ثم أدركت ان ليس لديها بعدُ ما تقوله لي :

– إذن ، مع السلامة ، يا سيد انطوان .

ومسحت يدها بمريولها وبسطتها لي :

– مع السلامة ، مادلين .

وانصرفت . وجذبت « جريدة بوفيل » ، ثم دفعتها : لقد قرأتها منذ حين في « دار الكتب » من أول سطر فيها الى آخر سطر .

ولم تعد صاحبة الفندق ، لقد تركت لصديقها يديها السمينتين ، فأخذ يعجنهما في هوس .

سيمضي القطار بعد ثلاثة أرباع الساعة .

وأجريت حساباتي ، على سبيل التسلية .

الف ومئتا فرنك في الشهر ، ليس ذلك بالمبلغ الدسم . على انني اذا ضيّقت على نفسي قليلاً فانه لا بد ان يكفيني . غرفة أجرتها ثلاثمئة فرنك ، وخمسة عشر فرنكاً للطعام كل يوم : ويبقى أربعة وخمسون فرنكاً للغسيل والسكي والنفقات الصغيرة والسينما . لن أكون بحاجة الى البياض والملابس قبل فترة طويلة . فان بذلتيّ نظيفتان ، بالرغم من انهما تلمعان قليلاً لدى المرفقين : انهما تخدمانني ثلاث سنوات او أربعاً اخرى اذا اعتنيت بهما .

عجباً ! « أأنا » الذي سيسوق حياة الفطر هذه ؟ ماعساي أفعل بنهاراتي ؟ انني سوف أتنزه . سأقصد حديقة « التويلري » فأقتعد كرسياً حديدياً – أو

بالأصح مقعداً من المقاعد الخشبية الثابتة ، بداعي التوفير . وسأقصد دور الكتب للمطالعة . وبعد ذلك ؟ السينما مرة واحدة في الاسبوع . هل أحضر حفلة بهلوان يوم الاحد ؟ هل سأذهب فألعب « الكروكيه » مع متقاعدي اللكسمبورغ في الثلاثين من العمر ؟ إنني أشفق على نفسي ! هناك لحظات أتساءل فيها أليس من الأفضل ان أنفق في عام الثلاثمئة الف فرنك التي تبقى لي — وبعد ذلك ... ولكن بِمَ يعود عليَّ ذلك ؟ ثياب جديدة ؟ نساء ؟ رحلات ؟ لقد حصلت على هذا كله ، وقد انتهى الأمر الآن ، وليس لديَّ بعدُ أية رغبة فيما سيبقى . سوف أجد نفسي بعد عام ، أفرغ مني الآن وحتى بلا ذكرى ، وسأكون جباناً امام الموت .

ثلاثون عاماً ! و ١٤،٤٠٠ فرنك كمدخول . قسائم أقبضها كل شهر . أنا مع ذلك لست بالشيخ ! فليُعطوني شيئاً أعمله ، أي شيء ... من الأفضل ان أفكر بشيء آخر ، لأني في هذه اللحظة ، انما أمثّل . انا أعلم جيداً انني لا أريد ان أفعل شيئاً : ففعل أي شيء ، انما هو خلق كينونة — وهناك من الكينونة ما فيه الكفاية .

الحقيقة هي انني لا أستطيع ان أترك قلمي : أظنّ اني سأصاب بـ «الغثيان» ، وعندي شعور بأني أؤخره إذ أكتب . ولهذا أكتب ما يخطر في بالي .

وأسمع مادلين التي تريد ان ترضيني ، تناديني من بعيد وهي تُريني اسطوانة :
— اسطوانتك ، يا سيد انطوان ، التي تحبهـا ، أتريد ان أسمعها للمرة الاخيرة ؟
— إذا شئت .

قلت ذلك تأدباً ، ولكني لا أحسّني في وضع ملائم للإصغاء الى لحن جاز . غير اني أنتبه مع ذلك ، لأني سأستمع الى هذه الاسطوانة للمرة الأخيرة ، كما تقولين يا مادلين : انها قديمة جداً . بل أقدم مما ينبغي ، بالنسبة للريف ، عبثاً سأبحث عنها في باريس . سوف تضعها مادلين على كفة الفونوغراف ، وستدور . وفي الحزوز ، ستأخذ إبرة الفولاذ في القفز والصرير ؛ وحين تنتهي

الحزوز من سوقها ، على شكل حلزوني ، الى وسط الاسطوانة ، سينتهي كل شيء ، وسيصمت الى الأبد الصوت الأبح الذي يغنّي « بعض هذه الأيام » . وبدأت الاسطوانة .

إن هناك حمقى يلتمسون التعازي في الفنون الجميلة . مثـال ذلك امرأة عمي « بيجوا » « وان » بربلود » شوبان قد ساعدتني مساعدة عظيمة لدى موت عمك المسكين . وقاعات الحفـلات الموسيقية تغصّ بالأذلة الخاضعين المُهانين الذين يسعون ، مغمضي العيون ، الى تحويل وجوههم الممتقعة الى شرائط لاقطة . انهم يتصورون الآن الأصوات الملتقطة تسيل فيهم ، عذبةً معذّبة ، وان آلامهم تصبح موسيقية ، كآلام فرتر الشاب ؛ وهم يظنّون ان الجمال رؤوف بهم ، فيا للفروج الحمقى !

أود ان يقولوا لي اذا كانوا يجدونها رؤوفاً بهم ، تلك الموسيقى . لا شك اني كنت ، منذ لحظة ، بعيداً عن اسبح في الغبطة . كنت على السطح أجري حساباتي ، بصورة آلية . وفي الجوف ، كانت تأسن جميع هذه الأفكار المزعجة التي اتخذت شكل استفهامات غير مصوغة ، واندهاشات بكماء ، والتي لا تتركني بعدُ ليلاً ولا نهاراً . أفكارٌ عن آني ، وعن حياتي الضائعة . وتحت ذلك ايضاً يقبع «الغثيان» ، خجولاً كالفجر . ولكن في تلك اللحظة ، لم يكن ثمة موسيقى ، وكنت سئماً وهادئاً . كانت جميع الاشياء التي تحيط بي مصنوعة من المادة التي انا مصنوعٌ منها ، من نوع من الألم القبيح . كان العالم جدّ بشع ، خارج نفسي ، وجدّ بشعة تلك الاقداح القذرة على الطاولات ، واللطخات السمراء على المرآة ومريول مادلين والهيئة الودية لعاشق صاحبة الفندق ، وجـدّ بشع وجود العالم نفسه ، وكم كنت أحسّني مطمئناً ، بين افراد الاسرة .

إن هناك الآن أغنية الساكسفون هذه . واني لأشعر بالخجل . إن ألماً صغيراً مجيداً قد ولد ، ألم — نموذجي . اربعة ألحان من الساكسفون . إنها تروح وتجيء وكأنها تقول « يجب ان تفعل مثلنا » او تتألم « على القياس » نعم ، بالطبع ، أود كثيراً ان أتألم على هذا النحو ، على القياس في غير ما التذاذ ، ومن غير شفقة

على نفسي ، وبطهارة قاسية . ولكن أيكون الذنب ذنبي اذا كانت البرة دافئة في جوف كأسي ، واذاكان ثمة لطخات سمراء على المرآة ، واذا كنت زائداً على اللزوم ، واذاكان أخلص آلامي وأجفنها يتلبد ويثقل ، بكمية مفرطة من اللحم وبشرة أعرض مما ينبغي ، كفيل البحر ذي العينين الضخمتين اللذيتين المؤثرتين ، ولكن البشعتين ايضاً ؟كلا ، ليس بالامكان القول بأنه ذو رأفة وشفقة ، هذا الألم الصغير الذي يطوف فوق الاسطوانة ويبهرني . بل هو ليس ساخراً : فهو يدور بجذل ، منشغلاً بنفسه ؛ لقد قطع كالمنجل صميمية العالم التفهة ، وهو الآن يدور ، ونحن جميعاً ، مادلين ، والرجل الضخم ، وصاحبة الفندق ، وأنا نفسي والطاولات والمقاعد والمرآة الملطخة ، والأقداح ، نحن جميعاً الذين كنا نستسلم للوجود والكينونة لأنناكنا فيما بيننا — لقد فاجأنا الألم في المباذل ، في الانسياق اليومي : انني خجل من اجل نفسي ومن أجل ما يوجد « أمامه » .

إن هذا الألم غير كائن . فلئن نهضت وانتزعت هذه الاسطوانة من الكفة التي تحملها ولئن كسرتها الى قسمين ، فانني لن أبلغه ، هو الألم . انه فيما وراء — دائماً فيما وراء شيء ، صوت او نغمة كمان . إنه عبر كثافات وكثافات من كينونة ينحسر رقيقاً صلباً ، حتى اذا أراد المرء التقاطه لم يلتق إلا موجودات ، يصطدم بموجودات خالية من المعنى . إنه خلفها : حتى انني لا أسمعه ، وانما أسمع اصواتاً ، اهتزازات هواء تكشف عنه . انه غير موجود ، مـا دام ليس فيه ما هو زائد على اللزوم : إن الباقي كله هو زائد على اللزوم بالنسبة إليه . إنه « كائن » .

وأنا ايضاً أردت ان « أكون » . بل أنا لم أرد غير هذا . تلك هي كلمة حياتي الدقيقة : فداخل جميع هذه المحاولات التي لا تبدو بلا صلات ، أجد الرغبة نفسها : ان أطرد الكينونة خارج نفسي ، وان افرغ اللحظات من شحمها ، وان الويها وأجففها ، وان أتطهر وأتصلب ، لكي أنتهي الى اطلاق صوت واضح دقيق لنغمة ساكسفون . بل إن بإمكان ذلك ان يكون عبرة خلقية : كان

ثمة انسان مسكين قد أخطأ العالم. كان كائناً، كالناس الآخرين، في عالم الحدائق العامة ، في المشارب ، في المدن التجارية ، وكان يريد ان يُقنع نفسه بأنه كان يعيش في مكان آخر ، خلف قماشة اللوحات ، مع رؤساء « تينتوريه » ومع فلورنتيي « غوزولي » ، خلف صفحات الكتب ، مع فابريس ديل دونغو وجوليون سوريل ، خلف اسطوانات الفونوغراف ، مع شكاوى الجاز الجافة. وبعد ذلك ، بعد ان تباله مدة طويلة ، فهم ، ففتح عينيه ، فرأى أنه كان ثمة خطأ : لقد كان في مشرب ، بالضبط ، أمام قدح من البيرة الفاترة . وقد ظل مرهقاً على المقعد ، وفكر : انني أبله . وفي تلك اللحظة بالذات ، في الجانب الآخر من الوجود ، في ذلك العالم الآخر الذي تمكن رؤيته من بعيد ، ولكن دون الاقتراب منه اطلاقاً ، أخذت أغنية صغيرة ترقص ، وتغني : « مثلي يجب ان تكون . يجب ان تغني على القياس » .
وغنى الصوت :

Some of these days
You'll miss me honey

ولا بد ان الاسطوانة كانت مجروحة في هذا الجانب ، لأن ضجة غريبة كانت تنبعث منها . وثمة شيء يقبض القلب : هو ان الأغنية لم تمس على الاطلاق بهذا السعال الصغير الذي تحدثه الابرة على الاسطوانة . إنها جد بعيدة — جد بعيدة خلفه . وهذا ايضاً ، أفهمه : إن الاسطوانة تنجرح وتتلف ، والمغنية ربما كانت قد ماتت ، وأنا مسافر عما قليل ، سوف أستقل قطاري . ولكن خلف الموجود الذي يسقط من حاضر الى آخر ، بلا ماض ، بلا مستقبل ، خلف هذه الاصوات التي تتحلل من يوم لآخر ، وتتقشر وتنسل تحت الموت ، تظل الأغنية هي نفسها ، نضرة صلبة ، كشاهد بلا هوادة .

وصمت الصوت . وتنحنحت الاسطوانة قليلاً ثم توقفت . وأخذ المقهى ، وقد تحرر من حُلم مزعج ، يجتر لذة ان يكون ويمضغها من جديد . ويبدو

الدم في وجه صاحبة المقهى ، وهي ترسل الصفعات الى خدّي صديقها الجديد، ذينك الخدّين الضخمين الابيضين ، ولكنها لا تنجح في تلوينها. انهما خدّا ميت . اما انا ، فاني أنتن واغرق في نصف سبات . بعد ربع ساعة ، سأكون في القطار ، ولكني لا افكر بذلك . انني افكر بامبركي حليق الذقن ، ذي حاجبين سميكين اسودين ، يختنق من الحرّ ، في الطابق العشرين من احدى بنايات نيويورك . ان السماء تحترق فوق نيويورك ، وقد التهبت زرقة السماء ، واقبلت ألسنة لهيب ضخمة صفراء تلحس السطوح ، ان صبية بروكلين سيقفون وهم في سروال الحمام ، تحت سنان الرشّ . والغرفة المظلمة في الطابق العشرين تنضح تحت نار حامية . ويتنهّد الامبركي ذو الحاجبين الاسودين ، ويلهث ويتدحرج العرق على خدّيه . انه جالس بقميصه ذي الكمين القصيرين ، امام البيانو ، وان في فمه مذاق دخان ، وفي رأسه شبح هواء . « بعض تلك الايام » ان توم قادم بعد ساعة ، وعلى فخذه قرعته المسطّحة ، وسوف يسترخيان كلاهما على الكراسي الجلدية ويشربان كؤوساً دهاقاً من الكحول ، فتقبل نارُ السماء لتلهب حلقيهما ، وسيشعران بثقل نُعاس محرق هائل . ولكن يجب اولاً عزف هذا اللحن . « بعض تلك الايام » وتُمسك اليد الدبقة بالقلم على البيانو . « بعض تلك الايام ... »

لقد حدث ذلك على هذا النحو . على هذا النحو او على نحو آخر ، الامران سيّان . انها ولدت هكذا . وقد اختارت ، لتولد، جسم ذلك اليهودي المتهدّم ذي الحاجبين الفحميين. كان يُمسك قلمه برخاوة ، وقطرات من العرق كانت تسقط من اصابعه ذات الخواتم على الورق . ولماذا لم اكن انا ؟ لماذا وجب ان يكون بالذات ذلك العجل الضخم الطافح بالبيرة القذرة والكحول لكي تتمّ هذه المعجزة ؟

— مادلين ، هل تريدين ان تضعي الاسطوانة مرة اخرى ؟ مرة واحدة ، قبل ان اذهب ؟

فأخذت مادلين تضحك وأدارت المفتاح ، فعاد الصوت من جديد . ولكني

كففت عن التفكير بنفسي . انني افكر بذلك الشخص هناك . الذي ألّف هذا اللحن ، ذات يوم من تموز ، في حرّ غرفته الأسود . انني احاول ان افكر فيه « عبر » النغم ، عبر الاصوات البيضاء المزّة التي يرسلها الساكسفون . لقد صنع هذا . كانت له هموم ، ولم يكن كل شيء يجري كما كان ينبغي : كانت ثمة نفقات ينبغي دفعها — ثم انه كان لا بد ان تكون ثمة ، في مكان ما ، امرأة لا تفكر فيه على النحو الذي كان يتمنّاه — ثم انه كان ثمة ايضاً تلك الموجة الهائلة من الحرارة التي كانت تحوّل الناس الى بُرك من الشحم الذائب . ان ذلك كله ليس فيه ما هو جميل ولا ما هو مجيد . ولكني حين اسمع الاغنية وافكر بأن ذلك الرجل هو الذي وضعها ، فأني اجد عذابه ورشح عرقه . . المؤثر . لقد كان محظوظاً . ولا بدّ انه لم يدرك ذلك . لا بدّ انه قد فكر : ان هذه الاغنية ، اذا اوتيت بعض الحظ ، ستعود عليّ بخمسين دولاراً ! ولكن ، هذه هي منذ سنوات ، المرة الاولى التي يبدو لي فيها رجلٌ ما مؤثراً ، اودّ لو اعرف شيئاً عن هذا الرجل . سيهمّني ان اعرف نوع الهموم التي كان يعانيها ، اذا كانت له امرأة او اذا كان يعيش وحيداً . وليس ذلك بداعي نزعة انانية بل على العكس من ذلك . وانما لانه فعل هذا . ليس بي رغبة الى التعرف عليه — والحق انه ربما يكون قد مات . وانما اودّ ان احصل على بعض المعلومات عنه وان اتمكّن من التفكير به ، بين وقت وآخر ، اذ استمع الى هذه الاسطوانة . وأحسب ان هذا الشخص لن يتأثر على الاطلاق اذا قيل له ان هناك ، في المدينة الفرنسية السابعة ، قريباً من المحطة ، شخصاً يفكر فيه . اما انا ، فسأكون سعيداً ، لو كنت مكانه ؛ انني احسده . يجب ان امضي . وأنهض ، ولكني اظلّ لحظة متردداً ، فانا اودّ ان اسمع الزنجية تغنّي . للمرة الاخيرة .

انها تغني . ها هما اثنان قد أُنقذا : اليهودي والزنجية . أُنقذا ، لعلّهما قد ظنّا انهما ضاعا حتى النهاية ، غرقا في الكينونة . ومع ذلك ، ليس ثمة من يستطيع ان يفكّر فيّ كما افكّر فيهما ، بتلك العذوبة . لا احد ، حتى ولا آني . انهم بالنسبة لي يشبهون قليلاً الموتى ، يشبهون قليلاً ابطال رواية ؛ لقد اغتسلوا

من اثم أن يكونوا. لا تماماً، بكل تأكيد — ولكن الى الحدّ الذي يستطيع الانسان ان يفعله. ان هذه الفكرة تبعث فيّ الاضطراب فجأة، لانني لم اكن اؤمل حتى هذا بعدُ. انني أحسّ شيئاً يلامسني بخجل، ولا اجرؤ ان اتحرّك لاني اخشى ان يزول هذا. شيء لا اعرفه بعدُ: نوع من الفرح.

الزنجية تغني. ان بالامكان تبرير كينونتها؟ ولو قليلاً جداً؟ انني احسّني مخوّفاً بصورة هائلة. ليس ذلك لان لدي كثيراً من الامل. وانما انا شخص قد تجلّد تماماً بعد رحلة في الثلج، ثم دخل فجأة غرفة دافئة. وأظنّ انه سيبقى جامداً امام الباب. ما يزال مقروراً، وان ارتعاشات طويلة ستسري في جسمه.

Some of these days
You'll miss me honey

اتراني لن استطيع ان اجرّب؟ طبعاً، ليست القضية قضية لحن موسيقى... ولكن اتراني لن استطيع، في ميدان آخر؟ يجب ان يكون كتاباً: فانا لا احسن صنع اي شيء آخر. ولكن، لا كتاب تاريخ: ان التاريخ يتحدث عما سبق ان كان — ولا يستطيع كائن على الاطلاق ان يبرر كينونة كائن آخر. لقد كانت غلطتي رغبتي في ان ابعث السيد دورولبون. وانما اقصد نوعاً آخر من الكتب. لا ادري تماماً اي نوع — ولكن يجب ان يحدس الناس، خلف الكلمات المطبوعة خلف الصفحات، بشيء لن يكون، شيء فوق الكينونة، حكاية مثلاً، كتلك التي لا يمكن ان تحدث، مغامرة. وينبغي ان تكون جميلة وقاسية كالفولاذ، وان تجعل الناس يخجلون بكينونتهم.

انني ذاهب. وانا احسّني مبهماً. انني لا اجرؤ على اتخاذ قرار. لو كنت واثقاً من انّ لي موهبة. ولكني ابداً — ابداً لم اكتب شيئاً من هذا القبيل؛ كتبت مقالات تاريخية، نعم، رغم انها... اريد كتاباً. رواية. وسيكون ثمة

اناس يقرأون هذه الرواية ويقولون : « ان انطوان روكنتان هو الذي كتبها ؛ لقد كان شخصاً احمر الشعر يتسكّع في المقاهي » . وسيفكرون في حياتي كما افكر في حيـاة تلك الزنجية : كشيء ثمـين ونصف اسطوري . كتاب . بالطبع ، لن يكون ذلك اولاً الا عملاً مضجراً ومتعباً ، ولن يمنعني من ان اكون ، ولا ان احسّ اني كائن. ولكن لا بدّ ان تأتي لحظة يصبح فيها الكتاب مكتوباً ، ويصبح خلفي ، وأظنّ ان شيئاً من نوره سيسقط على ماضيّ . ولعلني استطيع آنذاك ان اتذكّر ، عبره ، حياتي من غير اشمئزاز . ولعلني ذات يوم ، اذ افكر بهذه الساعة بالذات ، هذه الساعة الكئيبة التي انتظر فيها ، منحني الظهر ، ان يحين الوقت لأصعد القطار ، لعلني سأشعر بقلبي يزداد سرعة في الخفق وسأقول لنفسي : « في ذلك اليوم ، وفي تلك الساعة ، انا بدأ كل شيء . وآنذاك سأنجح — في الماضي ، وليس في غير الماضي — ان اقبل نفسي » .

الليل يهبط . وفي الطابق الاول من فندق برنتانيا ، اضيئت نافذتان . ورائحة الخشب الرطب تنبعث قوية من مستودع « لانوفيل غار[1] » : ان المطر سيهطل غداً على بوفيل .

تمت

(١) المحطة الجديدة .